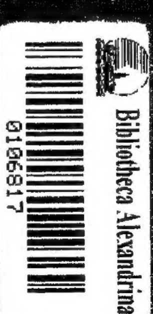
مختارات إسلامية

المجلد الثاني



ر الفكر اللبناني - بيروت

سلسلة مختارات إسلامية

أبو بكر الصديق

أول الخلفاء الراشدين

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

أبو بكر الصِّدِّيق

أول الخلفاء الراشدين

الناشر: دار الفكر اللبناني
تلفون: ٢٣٧٠٩٥ - ٢٥٦٤١٨ - ٢٥٥٥٤٩
تلكس: ٢٣٦٤٨ - ص.ب ٤٦٩٩ - بيروت - لبنان



أعدت هذه المجموعة خصيصاً لتعريف الأجيال العربية والاسلامية الطالعة بحقائق عن تاريخهم العريق ومآثر كبار قادتهم عبر العصور .

ونبدأها بسير الخلفاء الراشدين ، رضوان الله عليهم ، مما فيها من عبر وأمثال واختلافيات ومناقب يحتاج إليها كل مسلم وكل عربي في دنيا وآخرته .

تتوج هذه السلسلة سيرة سيدنا أبي بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين ونأمل أن تقبل الناشئة على مطالعتها ويتخذوا منها السبيل السوي في حياتهم فيتبوأوا المراتب والمستويات المهيأة لهم ليكونوا خير خلف لخير سلف .

أبو بكر الصديق رضي الله عنه

هو أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو إبن كعب بن سعد بن تيم بن مرَّة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر التيمي القرشي ، ويجتمع مع النبي ﷺ في مرَّة بن كعب وأمه أم الخير سلمىٰ بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد إبن تيم بن مرَّة وهي بنت عم أبي قحافة .

فهو قرشي ، من أبوين قرشيّين .

كان إسمه (عبد الكعبة) فسماه رسول الله ﷺ عبد الله ولقّب عتيقاً لأن النبي ﷺ نظر إليه فقال : هذا عتيق من النار ، وفي رواية أخرى :

« من أراد أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى أبي بكر » .

وفي حديث عن عائشة رضي الله عنها : أن أبا بكر دخل على رسول الله ﷺ فقال :

« يا أبا بكر أنت عتيق الله من النار » فمن يومئذ سمى عتيقاً .

وهناك أحاديث أخرى في ذلك .

وكان يلقب في الجاهلية بالصديق لما عرف عنه من الصدق ، وقيل : لمبادرته إلى تصديق رسول الله ﷺ فيما كان يخبر به .

وفي حديث عن علي بن أبي طالب لما سُئل عن أبي بكر قال : ذاك أمرؤ سمَّاه الله الصديق على لسان جبريل ، وعلى لسان محمد ، كان خليفة رسول الله ﷺ على الصلاة رضيه لديننا فرضيناه لدنيانا .

وفي حديث آخر : أن علياً قال على المنبر : ان الله سمى أبا بكر على لسان نبيه صديقاً .

وقد أجمعت الأمة الإسلامية على تلقيبه بالصديق لأنه أول من بادر إلى تصديق رسول الله ﷺ فيما كان يخبر به ، ولازم الصدق طول حياته ، فلم تقع منه هناة ما ، ولا وقفة حال من الأحوال ، وكانت له المواقف الشريفة العالية في نشر الدعوة ، ورفع علم الإسلام .

ولد رضي الله عنه لسنتين من ميلاد رسول الله ﷺ وأشهر بمكة أي قبل البعثة بنحو ٣٨ سنة فهو أصغر من النبي عليه الصلاة والسلام بسنتين وأشهر ، كما ثبت ذلك في التاريخ .

نشأته ومجمل صفاته

نشأ رضي الله عنه كما ينشأ أبناء كرام العرب ، متشبعاً بالحرية ، وعزة النفس ، عفيفاً ، عالي الهمّة ، وشبّ على الأخلاق الفاضلة ، والسير الكريمة ، لم يسجد لصنم قط وحدث منه وهو صغير حينما أخذه والده إلى معبد فيه أصنام وقال له : اسجد لآلهتك الشم العوالي .

فدنا من الصنم وقال له : إني جائع فاطعمني . فلم يجبه .

ثم دنا منه وقال له : إني عطشان فاسقني . فلم يجبه .

ثم قال له : إني عارٍ فاكسني . فلم يجبه .

فأخذ صخرة وقال : إني ملق عليك هذه الصخرة ، فإن كنت إلَهاً فامنع عن نفسك ، فلم يجبه ، فألقى الصخرة عليه ، فخر لوجهه .

وكان عفيف النفس ، فلم يشرب في الجاهلية خمراً مطلقاً .

وفي حديث عن إبن عساكر عن أبي العالية الرباحي قال : قيل لأبي بكر الصديق في مجمع من أصحاب رسول الله ﷺ هل شربت الخمر في الجاهلية ؟ فقال : أعوذ بالله ؛ فقيل : ولِمَ ـ قال : كنت أصون عِرضي ، وأحفظ مُروءتي ، فإن من شرب الخمر كان مضيعاً في عِرضه ومُروءته ، قال : فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : صدق أبو بكر ، صدق أبو بكر .

ولما صلب عوده ، واشتد ساعده ، اشتغل بالتجارة كأكثر قريش ، وأخص ما كان يتجر فيه البزازة أي بيع الثياب ، فكسب ثقة العرب بأمانته ، ولين طباعه ، ودماثة أخلاقه ، فأحبّوه وخضعوا لرأيه ، واطمأنت نفوسهم إليه ، وأحلوه المقام الرفيع بينهم .

وكان أعلم الناس بأنساب العرب ، خبيراً بأحوالهم وسياستهم ، فأثرى وأضحى ذا مال وفير ؛ ولكن لم يطغه ذلك المال ، إذ كان بالناس رحيماً ، وعلى الفقراء والمساكين شفيقاً ، يصل الرحم ، ويصدق الحديث ويكسب المعدوم ، ويعين على نوائب الدهر ، ويقري الضعيف .

إســلامـه

لما شرف الله محمداً ﷺ بالنبوة والرسالة كان أبو بكر أول رجل أجابه للإسلام حتى قال عليه السلام : ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلاَّ كانت له كبوة غير أبي بكر .

وقيل : أسلم أبو بكر وعمره سبع وثلاثون سنة وقيل : ثمان وثلاثون وعاش في الإسلام ستاً وعشرين سنة .

وفي حديث عن إبن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ما كلمت في الإسلام أحداً إلاّ أبى عليَّ وراجعني الكلام إلاَّ إبن أبي قحافة فإني لم أكلمه في شيء إلاّ قبله ، واستقام عليه .

وفي حديث آخر عن البخاري عن أبي الدرداء قال :

قال رسول الله ﷺ : هل أنتم تاركون لي صاحبي ؟

إني قلت : أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ، فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت .

وقال إبن عساكر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما أنه قال :

لما أسلم أبوبكر أظهر إسلامه ، ودعا إلى الله ، وإلى رسول الله ﷺ ، ثم تفانى في تأييد الإسلام بجاهه ، وماله ، وحسن أدبه ، وحسن معاملته واستمالة الناس إليه .

فكان يجتمع إليه كرام قومه ، فيدعون من يثق به منهم إلى الإسلام ، فأسلم على يديه خلق كثير ، وفي مقدمتهم عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وهؤلاء هم السابقون الأولون ، ثم فشا ونما الإسلام بعد ذلك ولما آذى المشركون من أسلم من عبيدهم كان أبو بكر يشتري من ماله الموالي المعذبين على الإسلام ، لإنقاذهم من الآلام فيعتقهم ، إبتغاء وجه الله ، شفقة منه ، ورحمة بهم ، ليخلصهم من أيدي سادتهم الذين كانوا يقسون عليهم لإسلامهم ؛ ومن هؤلاء الموالي : بلال بن رباح مؤذن الرسول ﷺ ، وعامر بن فهيرة ، وغيرها .

وفيه وفى بلال يقول عمر رضي الله عنه : إن أبا بكر سيدنا وقد أعتق سيدنا .

أخرج إبن جرير بن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو

بكر يعتق على الإسلام بمكة ، فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن ، فقال أبوه : أي بنيّ أراك تعتق أناساً ضعفاء ، فلو أنك تعتق رجالاً جلداً يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك .

قال : أي أبت ، أنا أريد ما عند الله .

صحبته لرسول الله ﷺ

صحب أبو بكر النبي ﷺ من حين أسلم إلى حين توفي ، لم يفارقه سفراً ولا حضراً ، إلاّ فيما أذن له في الخروج فيه من حج وغزو ، وكفاه فخراً أنه حاز شرف الصحبة في الغار لرسول الله ﷺ .

وقد دخل الغار قبله ، ليزيل ما به من سوء ، وأقام معه ثلاثة أيام وعينه من أجله لا تنام ؛ وكان مخلصاً لرسول الله ﷺ يفديه بنفسه وماله ، وترك أمواله وأولاده وهاجر معه إلى المدينة ، وأعد الزاد والراحلة ، ثم أقام في المدينة يصدق رسول الله ﷺ ويؤيده ، وزوّجه إبنته أم المؤمنين السيدة (عائشة) رضي الله عنها وعمرها تسع سنوات ، وشهد معه المشاهد كلها ، وكان يحمل رايته العظمى في آخر غزواته وهي غزوة تبوك ويدافع عنه ، ويقف في وجه الأعداء دونه .

محبة الرسول له وتعظيمه

كان أبو بكر أحب رفيق لرسول الله ﷺ . وقد قال في تعظيمه النبي عليه الصلاة والسلام : « ما أحد عندي أعظم من أبي بكر واساني بنفسه وماله ، وزوّجني ابنته ، وصحبني في الغار ، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ؛ ولكن أخوة الإسلام » .

وقال ﷺ : لا طلعت الشمس ، ولا غربت على أحد أفضل من أبي بكر ، إلاّ أن يكون نبي .

وقال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت : هل قلتَ في أبي بكر شيئاً ؟ قال : نعم . فقال : قل ، وأنا أسمع . فقال :

« والثاني إثنين في الغار المنيف وقد
طاف العدو به إذ صعد الجبلا »
« وكان حِبَّ رسول الله قد علموا
من البرية لم يعدل به رجلاً »

فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ، ثم قال : صدقت يا حسان ، هو كما قلت .

وقال ﷺ في حقه في آخر صلاة صلاها في المسجد :

« إن مَن أمنِّ الناس عليّ في صحبته وماله أبا بكر ؛ ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام ومودته لا يبقين باب إلاّ سُد ، إلاّ باب أبي بكر » .

وفي رواية أخرى : لا يبقين في المسجد خوخة إلاّ خوخة أبي بكر .

خلافتــه

لما مرض رسول الله ﷺ مرض الموت استخلفه على الناس في إمامة الصلاة ، وهي الإمامة الكبرى ، وقال : فليُصل أبو بكر بالناس وفي هذا أعظم إشارة لاستحقاقه الخلافة من بعده ، وهذا من أهم الأسباب في توليته الخلافة .

والأحاديث الواردة في خلافته كثيرة نذكر منها ما يأتي :

أخرج إبن عساكر عن إبن عباس رضي الله عنهما قال : جاءت أمرأة إلى النبي ﷺ تسأله شيئاً ؟ فقال لها : تعودين فقالت : يا رسول الله إن عدت فلم أجدك . فقال : إن جئتِ فلم تجديني فاتِ أبا بكر ، فإنه الخليفة من بعدي .

وأخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها سُئلت : مَن كان رسول الله ﷺ مستخلفاً لو استخلف ؟ قالت : أبو بكر . قيل لها : ثم مَن بعد أبي بكر ؟ قالت عمر . قيل لها : مَن بعد عمر ؟ قالت : أبو عبيدة بن الجراح .

وأخرج الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : مرض النبي ﷺ فاشتد مرضه فقال : (مُروا أبا بكر فليصل بالناس) فقالت عائشة : يا رسول الله إنه رجل رقيق القلب ، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس ؛ فقال : مُري أبا بكر فليصل بالناس ؛ فعادت ، فقال : مُري أبا بكر فليصل بالناس ، فإنكن صواحب يوسف ، فصلي بالناس في حياة رسول الله ﷺ .

وفي حديث إبن عمر : كبَّر عمر ، فسمع رسول الله ﷺ تكبيره ، فأطلع رأسه مغضباً ؛ فقال : أين أبو قحافة ؟

قال العلماء : في هذا الحديث أوضح دلالة على أن الصديق أفضل الصحابة على الإطلاق ، وأحقهم بالخلافة ، وأولاهم بالإمامة .

وأخرج البيهقي عن الزعفراني قال : سمعت الشافعي يقول : أجمع الناس على خلافة أبي بكر الصديق ، وذلك انه اضطر الناس بعد رسول الله ﷺ ، فلم يجدوا تحت أديم السماء خيراً من أبي بكر ، فولوه رقابهم .

فهو شيخ المسلمين حقاً ، وأول الخلفاء الراشدين ، وخليفة رسول رب العالمين .

مبايعته بالخلافة

لما توفي رسول الله ﷺ كان أبو بكر غائباً في أهله بالسُنح[1]فلما أتاه نعيه أقبل على الناس ، فوجدهم في اختباط عظيم لوفاة رسول الله ﷺ ، فمنهم المصدق ، ومنهم المكذب ، وهاجوا واضطربوا ، فدخل على رسول الله ﷺ ، فكشف عن وجهه وقبّله ، وقال :

بأبي أنت وأمي ، قد ذقت الموتة التي كتب الله عليك ، ولَن يصيبك بعدها موتة أبداً .

ثم خرج إلى الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ثم تلا قوله تعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أفَإنْ مَاتَ أوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أعْقَابِكُمْ ﴾ آل عمران .

فكان أبو بكر في هذا الموقف الحرج أجلد الناس لفراقه ﷺ ، وأربطهم جأشاً ، وأقواهم عزيمة ، وأشدهم بأساً ، فصار قدوة لأصحاب رسول الله ﷺ في تخفيف جزعهم وحزنهم .

وبينما كان الناس مشتغلين بوفاة النبي ﷺ ، وتجهيزه جاء مخبّر فأخبرهم باجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة بقصد المفاوضة في شأن الخلافة ، فأسرع إليهم أبو بكر وعمر ، وجماعة من المهاجرين ليتداركوا الأمر قبل افتراق الكلمة ، فأتوا الأنصار ، وقد اجتمعوا بالسقيفة يبايعون سعد بن عبادة فأعجلهم المهاجرون عن أمرهم ، وغلبوهم عليه ، ووقع بينهم وبين الأنصار كلام كثير ، حتى قال بعض الأنصار .

منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش وكثر اللغط ، وارتفعت الأصوات فقال عمر لأبي بكر : أبسط يدك ، فبسط يده فبايعه ، ثم بايعه المهاجرون ، ثم الأنصار ، ثم كانت البيعة العامة ؛ وتخلف عن بيعته علي وطلحة ، والزبير ، وبنو هاشم ، لما كانوا يتوقعونه من مصير الخلافة إليهم وعدم صرفها عنهم .

ولما رأى بنو هاشم انحياز الناس إلى البيعة لأبي بكر واتفاقهم على الرضا بخلافته لما ثبت عندهم من أن الخلافة

غير النبوة وأن أبا بكر أحق الناس بها ، بعد أن أنابه عنه رسول الله ﷺ في الصلاة بالمسلمين في حال مرضه ، أقبلوا على بيعته ، وبايعه علي رضي الله عنه بعد أيام على الأرجح .

وأخرج إبن عساكر عن علي أنه قال : لقد أمر النبي ﷺ أبا بكر أن يصلي بالناس ، وإني شاهد وما أنا بغائب ، وما بي مرض ، فرضينا لدنيانا ما رضي به النبي ﷺ لديننا .

وأخرج النسائي والحاكم وصححه عن إبن مسعود قال :

لما قبض رسول الله ﷺ قالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير فأتاهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : يا معشر الأنصار ألستمُ تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس ؟ فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر .

فقالت الأنصار : نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر .

وأخرج موسى بن عقبة والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن عوف قال : خطب أبو بكر فقال :

« والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً ، ولا ليلة قط ، ولا كنت راغباً فيها ، ولا سألتها الله في سرٍّ ولا علانية ؛ ولكني أشفقت من الفتنة ، ومالي في الإمارة من راحة ، لقد قلدت أمراً عظيماً ، ومالي به من طاقة ، ولا يد إلّا بتقوية الله » .

فقال علي والزبير : « ما غضبنا إلاّ لأنا أخرنا عن المشورة ، وإنا نرى أبا بكر أحق الناس بها ، إنه لصاحب الغار ، وإنا لنعرف شرفه وخبره ، ولقد أمره رسول الله ﷺ بالصلاة بالناس وهو حيٌ » .

وقال إبن اسحق في السيرة : حدثني الزهري قال : حدثني أنس إبن مالك قال : لما بويع أبو بكر في السقيفة ، وكان الغد ، جلس أبو بكر على المنبر ، فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« إن الله قد جمع أمركم على خيّركم ، صاحب رسول الله ﷺ ، وثاني اثنين إذ هما في الغار فقوموا فبايعوه » .

فبايع الناس أبا بكر البيعة العامة بعد بيعة السقيفة .

ثم تكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : أيها الناس فإني قد ولِّيت عليكم ، ولست بخيِّركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قويٌّ عندي ، حتى أريح عليه حقه إن شاء الله والقويُّ فيكم ضعيف

حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلاّ ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلاّ

عـمَّـهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » .

ولقد أظهر أبو بكر الحزم والعزم في خلافته ، وجمع كلمة المسلمين ، واشتد في إنفاذ ما كان يريده ﷺ من فتح ممالك كسرى وقيصر .

أول أعماله بعد الخلافة

تسيير جيش أسامة

أول عمل بدأ به أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد توليه الخلافة تسيير جيش أسامة بن زيد الذي كان النبي ﷺ جهزه قبل مرض الموت لغزو أطراف بلاد الروم ، ولم يثنه عن ذلك ما حصل من الاضطرابات في بلاد العرب ، عقب وفاة رسول الله ﷺ .

وقد طلب بعض كبار الأنصار ، على لسان عمر بن الخطاب ، من أبي بكر أن يولي إمارة الجيش رجلاً أسنّ من أسامة ؛ لأن عمرَه كان وقتئذ ١٧ سنة ، فغضب أبو بكر ، حتى قام ، وقعد ، وقال :

« يا عمر استعمله رسول الله ﷺ ، وتأمرني أن أعزله » .

ثم خرج رضي الله عنه ، وشيع الجيش بنفسه ماشياً ، وأسامة راكب ، فقال له أسامة : يا خليفة رسول الله ، لتركبنَّ

أو لأنزلنّ ، فقال : والله لا نزلتَ ولا ركبتُ ، وما عليّ أن أغبر قدمي ساعةً في سبيل الله ، فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له ، وسبعمائة درجة ترفع له ، وسبعمائة سيئة تمحى عنه ، ثم وصّاه هو وأصحابه فقال :

« لا تخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا أمرأة ، ولا تعزقوا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرة ولا بعيراً ، إلاّ للأكل » إلى آخر ما جاء بوصيته المذكورة في كتاب (إتمام الوفاء للمرحوم الشيخ الخضري) .

فذهب الجيش وغزا أطراف الشام ، ورجع إلى المدينة ظافراً غانماً بعد أن غاب عنها أربعين يوماً .

وكان إنفاذ هذا الجيش من أعظم الأمور نفعاً للمسلمين ، فإن العرب قالوا : لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش ، فكفّوا عن كثير مما كانوا عزموا عليه ، فعظم شأن أبي بكر عند الله ، وعلموا أن مخالفة البعض له في أمر هذه الغزوة لم تكن من الحكمة .

حرب أهل الردة

ولما مات رسول الله ﷺ مُني الإسلام بمصيبة عظمى لو لم تتداركها حكمة أبي بكر رضي الله عنه لضعف الدين ، وتشتت شمل المسلمين ، فإن العرب ما لبثت بعد أن علمت بموت الرسول عليه الصلاة والسلام حتى ارتدت ، ولم يبقَ أحد متمسكاً بدينه إلاّ قريساً بمكة وثقيفاً بالطائف ، وقليلاً من غيرهم ، وقد أدعى بعض العرب النبوة ، ومنهم رجل من أهل نجد اسمه مُسيلَمة الكذاب الذي تزوج بامرأة أدّعت النبوة أيضاً اسمها سجاح فأرسل إليها الصديق خالد بن الوليد وحاربهما حرباً شديدة في بلاد اليمامة فقتل مُسيلمة .

ومنع البعض الآخر الزكاة ، وهي من أهم أركان الإسلام وموارده ، فوقف أبو بكر بين المسلمين وقفة الحازم القوي ، ودعاهم لقتال المرتدين ، وأعادتهم إلى حظيرة الإسلام ، وتأدية الزكاة على قلة من بقي مخلصاً لله من المسلمين وهم أهل المدينة ، ومكة ، والطائف ، فأشار عليه بعض الصحابة

ومنهم عمر بن الخطاب وعلي رضي الله عنهما ألاَّ يهيج العرب ، ويجمعهم على عداوته لقلة عدد المخلصين ، فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقالاً كانوا يُؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه .

وكان رأي أبو بكر هو أصوب الآراء في هذه الكارثة ، وسير الجيش مستعيناً بماله ، وكان أربعين ألف دينار أنفقها في تجهيزه واثقاً بوعده سبحانه وتعالى في قوله :

﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ .

فأيده الله بالنصر المبين ، ورجع المرتدون إلى الإسلام خاضعين نادمين ، ولولم يفعل ذلك لعظم خطبهم ، واستفحل ضررهم ، وكانوا مثلاً سيئاً لغيرهم ، وقد اعترف له عمر بأصالة الرأي ، وبعد النظر .

غزواته وفتحه لبعض المماليك

لما رأى أبو بكر رضي الله عنه أن الفرصة قد حانت لتحقيق بشارة النبي ﷺ بفتح الممالك ، جمع أربعين ألف مقاتل ممن لم يدخل قلبه الرِّدة ، وكان أكثرهم من قريش وثقيف ، وبعث بعضهم لغزو الفرس ، وبعضهم لغزو الروم ، ففتح الله على الأولين أكثر نواحي العراق ، وعلى الآخرين مشارق الشام وفلسطين ، حيث وقع بينهم وبين الفرس والروم من الوقائع ما لم يفلحوا بعدها في موقعة مع المسلمين وهزم المسلمون الروم في واقعة تسمى واقعة اليرموك وهو واد في الجنوب الشرقي في الشام . وواقعة اليرموك هي من أعظم الوقائع الإسلامية ؛ ثم فتحوا مدناً كثيرة غنموا منها أموالاً عظيمة .

وبذلك ظهر الإسلام ظهوراً بيِّناً ، ووقع الرعب في قلوب أعدائه وخافوا خوفاً كثيراً .

فعل أبو بكر كل ذلك في أقل من ثمانية وعشرين شهراً ، فكان بذلك المجدد لدين الله والمؤسس العظيم لدولة الإسلام .

هذا وأن غزواته ، وفتوحاته ، مذكورة بالتفصيل في (كتاب أشهر مشاهير الإسلام للمرحوم رفيق بك العظم) وفي كتاب (إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء للمرحوم الشيخ محمد

الخضري) وفي غيرهما من كتب التاريخ ، فليطلع عليها الراغب في الزيادة والاستفادة .

جمعه للقرآن الكريم

لما استشهد في تلك الوقائع كثير من حفظة القرآن الكريم أشار سيدنا عمر بن الخطاب على أبي بكر بجمعه ، فجمعه في صحائف من صدور الرجال والجلود والعظام .

فكان عنده مدة حياته ، ثم عند سيدنا عُمر ، ثم عند حفصة بنت عمر زوجة رسول الله ﷺ ، فبذلك خدم الإسلام والمسلمين خدمة عظيمةً تذكر فتشكر ، وكان له بذلك ذكراً باقياً ، وأثراً خالداً .

وعن علي رضي الله عنه أنه قال : أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر . إن أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين .

أوليـــاته

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أول من أسلم ، وأول من جمع القرآن ، وأول من سمَّاه مصحفاً ، وأول من سُمي

خليفة ، وأول من ولي الخلافة وأبوه حيّ ، وأول خليفة فرض له رعيته العطاء ، وأول من اتخذ بيت المال .

مناقب أبي بكر الصديق

كان رسول الله ﷺ جالساً في المسجد وحوله أصحابه فجاء سيدنا علي بن أبي طالب ، إبن عم الرسول ﷺ وزوج السيدة فاطمة بنت الرسول ﷺ ، فوقف وسلَّم عليهم ، ثم نظر مكاناً يجلس فيه ، يكون لائقاً به ، وموافقاً لقدره ، فنظر النبي ﷺ في وجوه الجالسين ، يريد بذلك أن يعرف مَن الذي يوسع له مكاناً ؟ وكان سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه جالساً عن يمين النبي ﷺ ، فتزحزح له عن مجلسه وقال له :

ها هُنا يا أبا الحسن ، فجلس سيدنا على بين النبي ﷺ وأبي بكر .

قال أنس بن مالك خادم النبي ﷺ : فرأيت السرور في وجه رسول الله ﷺ وعلى أبي بكر . فقال النبي ﷺ ؛ إنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذوو الفضل .

شجاعته

قال علي رضي الله عنه : أخبروني مَن أشجعُ الناس ؟ فقالوا : أنت . قال : أما أنا ما بارزت أحداً إلّا إنتصفت منه ؛

ولكن أخبروني بأشجع الناس ؟ قالوا : لا نعلم فَمن ؟ قال : أبو بكر ، إنه كان يوم بدر فجعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً فقلنا : مَن يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يهوي إليه أحد من المشركين ؟ فوالله ما دنا منا أحد إلاَّ أبا بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول الله ﷺ لا يهوى إليه أحد إلاَّ هوى إليه ، فهو أشجع الناس .

قال علي رضي الله عنه : ولقد رأيت رسول الله ﷺ آخذته قريش ، فهذا يجبأه وهذا يتلتله وهم يقولون : أنت الذي جعلت الآلهة إلّهاً واحداً ؟ قال : فوالله ما دنا منا أحد إلاَّ أبو بكر يضرب هذا ويجبأ هذا ، ويتلتل هذا (أي هذا يدفعه وهذا يسوقه) وهو يقول : ويلكم ! أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ ثم رفع عَليٌّ بردة كانت عليه فبكى حتى أخضلت لحيته ، ثم قال : أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر ؟ فسكت القوم . فقال : أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر ؟ فسكت القوم . فقال : ألا تجيبوني ؟ فوالله لساعة من أبي بكر خير من ألف ساعة مثل مؤمن آل فرعون ، ذاك رجل يكتم إيمانه ، وهذا رجل أعلن إيمانه .

علمه وتقواه

كان رضي الله عنه عالماً ؛ بل وأعلم الصحابة وأذكاهم ، والدليل على عظم علمه قوله :

والله لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه » .

وقال إبن كثير : كان الصديق رضي الله عنه أقرأ الصحابة ، أي أعلمهم بالقرآن ؛ لأن رسول الله ﷺ قدمه إماماً للصلاة بالصحابة مع قوله : يَؤُم القوم أقرأهم لكتاب الله .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : لا ينبغي لقوم فيهم أبو بكر أن يؤمهم غيره .

وكان رضي الله عنه أعلمهم بالسنة ، وكيف لا يكون كذلك وقد واظب على صحبة الرسول ﷺ من يوم البعثة إلى الوفاة ، وهو مع ذلك من أذكى عباد الله وأعقلهم ، وإنما لم يرو عنه من الأحاديث المسندة إلاّ القليل ، لقصر مدته ، وسرعة وفاته بعد النبي ﷺ .

قضاؤه وعدله في رعيته

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا ورد عليه الخصوم نظر في كتاب الله ؛ فإن وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به ، وإن لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله ﷺ في ذلك الأمر سنة قضى به ، فإن أعياه خرج فسأل المسلمين وقال : أتاني كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى في ذلك بقضاء ؟

فربما اجتمع عليه النفر كلهم يذكر من رسول الله ﷺ فيه قضاء ، فيقول أبو بكر : الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا ، فإن أعياه أن يجد فيه سنة من رسول الله ﷺ جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم ، فإن أجمع رأيهم على أمر قضى به وهذا منتهي النظر ، والعدل في القضاء .

حلمه وسلامة قلبه

أخرج البخاري عن أبي الدرداء قال : كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر فسلم وقال : انه كان بيني وبين عمر إبن الخطاب شيء فأسرعت إليه ، ثم ندمت ، فسألته أن يغفر لي فأبى عليّ فأقبلت إليك . فقال النبي ﷺ : يغفر الله لك يا أبا بكر (قالها ثلاثاً) .

ثم إن عمر ندم ، فأتى منزل أبي بكر فلم يجده ، فأتى النبي ﷺ فجعل وجه النبي ﷺ يتمعر (يتغير غيظاً) حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه ، فقال : يا رسول الله ، والله أنا كنت أظلم منه مرتين ، فقال النبي ﷺ : إن الله بعثني إليكم فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت ، وواساني بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركون لي صاحبي ؟ (قالها مرتين) فما أوذى بعدها .

مثال آخر من حلمه

جاء الحسن بن علي إلى أبي بكر الصديق وهو على منبر رسول الله ﷺ فقال : إنـزل عن مجلس أبي . فقال : صدقت : إنه مجلس أبيك ، وأجلسه في حجره ويكي . فقال علي : والله ما هذا عن أمري . فقال : صدقت ، والله ما أتهمك .

تواضعــــه

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يحلب للقوم أغنامهم ، وكانت أملاك العرب معظمها من الغنم والإبل ، وكان ذلك في أيام النبي ﷺ .

ولما مات عليه الصلاة والسلام ، وصار أبو بكر خليفة المسلمين يتولى أمرهم ، قالت جارية من الحي : الآن من يحلب لنا الغنم ؟ تريد أن تقول : إنه أصبح أبو بكر عظيماً وأكبر من أن يقوم بحلب الغنم لقومه وقد صادف أنه سمعها أبو بكر رضي الله عنه فقال لها : لأحلبنها لكم ، وأرجو الله ألاَّ يغيرني ما دخلت فيه من الخلافة عن خلق كنت فيه ؛ فكان رحمه الله يحلب لهم بعد ذلك .

فما ذكر تعلمون أن سيدنا أبا بكر الصديق ، مع كونه كان خليفة للمسلمين ، وأعظم رجل فيهم ، كان يحلب الغنم لجيرانه وقومه .

وفي هذا أكبر دليل على تواضعه ، وعدم تعاظمه وتكبره ؛ فهكذا تكون الأخلاق الشريفة الكريمة .

وقيل : سُئل بعض التابعين : هل رأيت أبا بكر ؟ قال : نعم ، رأيت ملكاً في زي مسكين .

حُسن اعتذاره

أخرج أحمد ، بسند حسن ، عن ربيعة الأسلمي رضي الله عنه قال :

جرى بيني وبين أبي بكر كلام فقال لي كلمة كرهتها ، وندم ، فقال لي : أبا ربيعة رد عليّ مثلها حتى يكون قصاصاً . فقلت : لا أفعل . قال أبو بكر : لتقولَن أو لأستعدين عليك رسول الله ﷺ . فقلت : ما أنا بفاعل . فانطلق أبو بكر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ ، وانطلقت أتلوه .

وجاء أناساً من أسلم فقالوا لي : رحم الله أبا بكر ، في أي شيء يستعدي عليك رسول الله ﷺ ، وهو الذي قال لك ما

قال ؟ فقلت : أتدرون من هذا ؟ هذا أبو بكر الصديق ، هذا ثاني اثنين ، وهذا ذو شيبة المسلمين ، إياكم لا يلتفت فيراكم تنصرونني عليه ، فيغضب ، فيأتي رسول الله ﷺ فيغضب لغضبه ، فيغضب الله عزّ وجل لغضبهما ، فيهلك ربيعة . قالوا : ما تأمرنا ؟ قال : ارجعوا .

وانطلق أبو بكر رضي الله عنه وتبعته وحدي حتى أتى رسول الله ﷺ ، فحدثه الحديث كما كان ، فرفع إليّ رأسه فقال :

يا ربيعة مالَكَ والصديق ؟ فقلت : يا رسول الله كان كذا وكذا . فقال رسول الله ﷺ : أجل لا تردّ عليه ؛ ولكن قل : قد غفر الله لك يا أبا بكر . فقلت : غفر الله لك يا أبا بكر ، قال الحسن : فولى أبو بكر رضي الله عنه وهو يبكي .

حرصه على العمل والسعي على المعاش

لـمّا ولّي أبو بكر رضي الله عنه خلافة المسلمين أصبح ذاهباً إلى السوق ، وعلى عنقه أثواب يتجر فيها ، فلقيه سيدنا عمر رضي الله عنه فقال له : إلى أين تريد يا خليفة المؤمنين ؟

فقال له : إني ذاهب إلى السوق ، قال : ماذا تصنع وقد وليت أمر المسلمين ؟ قال : ومن أين أطعم عيالي ؟ فقال له

عمر : انطلق يفرض لك أبو عبيدة ؛ وكان وقتئذ أمين بيت المال .

فانطلقا إلى أبي عبيدة ، فقال : أفرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم ، وكسوة الشتاء والصيف ، إذا أخلقت شيئاً رددته وأخذت غيره . ففرض له كل يوم نصف شاة ، وما كساه في الرأس والبطن .

فسيدنا أبو بكر رضي الله عنه مع كونه كان خليفة أراد أن يذهب إلى السوق يتجر في الثياب لعلمه أنه لا بد للإنسان من عمل يعمله ليكسب منه قوت يومه .

فضرب لنا بذلك مثلاً حسناً في السعي على طلب الرزق ، وألَّا يكون الإنسان عالة على الناس .

رأفته برعيته

كان عمر بن الخطاب يتعهد عجوزاً ، فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها فأصلح ما أرادت ؛ فجاءها غير مرة كيلا يسبق إليها فرصده عمر ، فإذا هو أبو بكر الصديق الذي يجيئها (وهو يومئذ خليفة) فقال عمر : أنتَ هو لعمري .

هكذا التسابق إلى الفضيلة ، والتسارع إلى الخيرات ، وهذا منتهى الرأفة ، وغاية التواضع .

زهده وورعه

يحكى أن أبا بكر رضي الله عنه أتاه غلام ليلة بطعام فتناول منه لقمة ، فقال له الغلام : مالك منت تسألني كل ليلة ولم تسألني الليلة ؟ فقال : حملني على ذلك الجوع ، مِن أين جئت بهذا ؟ قال الغلام : مَررت بقوم فرقيت لهم ، فوعدوني ، فلما مررت بهم وجدت عرساً لهم فأعطوني . فقال أبو بكر : أُفٍّ لَكَ ، وكدت تهلكني ؛ ثم أدخل يده في حلقه وجعل يتقيأ ، ولكن اللقمة لم تخرج . فقيل له : إنها لا تخرج إلاّ بالماء . فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها . فقيل له : يرحمك الله كل هذا من أجل اللقمة ؟ فقال : لو لم تخرج إلاّ مع نفسي (روحي) لأخرجتها .

أمانته على مال المسلمين

أخرج إبن أبي الدنيا عن أبي بكر بن حفص قال : قال أبو بكر لما احتضر لابنته عائشة :

يا بنية ، إنا ولينا أمر المسلمين ، فلم نأخذ ديناراً ولا درهماً ، ولكنا أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا ، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا ، وأنه لم يبق عندنا من فيء

المسلمين قليل ولا كثير إلاّ هذا العبد الحبشي ، وهذا البعير الناضح ، وجرد هذه القطيفة ، فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر .

وأخرج الطبراني في مسنده عن الحسن بن علي بن أبي طالب قال :

لما احتضر أبو بكر قال : يا عائشة أنظري اللقحة (الناقة الغزيرة اللبن) التي كنا نشرب من لبنها ، والجفنة (القصعة) التي كنا نصطنع فيها ، والقطيفة التي كنا نلبسها ، فإنا كنا تقنع بذلك حين كنا نلي أمر المسلمين ، فإذا مت فردّيه إلى عمر .

فلما مات أبو بكر أرسلت به إلى عمر فقال عمر : رحمك الله يا أبا بكر لقد أتعبت من جاء بعدك .

كرمه ومساواته بين الناس في العطاء

كان لأبي بكر بيت مال ليس يحرسه أحد فقيل له : ألا تجعل عليه من يحرسه ؟ قال : عليه قفل . فكان يعطي ما فيه حتى يفرغ .

فلما انتقل إلى المدينة حوَّله فجعله في داره ، فقدم عليه مال فكان يقسمه على فقراء الناس ، فيسوي بين الناس في القسم .

وكان يشتري الإبل والخيل والسلاح فيجعله في سبيل الله .

واشترى قطائف أتى بها من البادية ففرقها على أرامل المدينة .

فلما توفي أبو بكر ودفن ، دعا عمر الأمناء ودخل بهم في بيت مال أبي بكر ، منهم عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان . ففتحوا بيت المال ، فلم يجدوا فيه شيئاً لا ديناراً ولا درهماً .

إنفاق ماله على رسول الله ﷺ وأنه أجود الصحابة

أخرج أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر ، فبكى أبو بكر وقال : هل أنا ومالي إلاّ لك يا رسول الله ؟

وأخرج إبن عساكر عن عائشة رضي الله عنها وعروة بن الزبير : أن أبا بكر رضي الله عنه أسلم يوم أسلم وله أربعون ألف دينار (وفي لفظ أربعون ألف درهم) فأنفقها على رسول الله ﷺ .

وأخرج أبو سعيد بن الأعرابي عن إبن عمر رضي الله عنهما قال : أسلم أبو بكر رضي الله عنه يوم أسلم وفي منزله أربعون

ألف درهم فخرج إلى المدينة في الهجرة وماله خمسة آلاف كل ذلك ينفقه في الرقاب والعون على الإسلام .

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ما لأحد عندنا يد إلاّ وقد كافأناه ، إلاّ أبا بكر فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة ، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر .

وأخرج إبن عساكر عن إبن عباس قال : قال رسول الله ﷺ :

« ما أحد عندي أعظم يداً من أبي بكر ، واساني بنفسه وماله ، وأنكحني ابنته » .

وأخرج أبو داود والترمذي عن عمر بن الخطاب قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك مالاً عندي ، قلت : اليومَ أسبق أبا بكر ـ إن سبقته يوماً ـ فجئت بنصف مالي .

فقال رسول الله ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟

قلت : مثله ؛ وأتى أبو بكر بكل ما عنده فقال :

قال : أبقيت لهم الله ورسوله .

فقلت : لا أسبقه في شيء أبداً .

نبذ من كلامه وحكمه

من كلامه رضي الله تعالى عنه كما جاء في طبقات الشعراني : أكيس الكيس التقوى ، وأحمق الحمق الفجور ، وأصدق الصدق الأمانة ، وأكذب الكذب الخيانة .

وكان يقول رضي الله تعالى عنه : إن هذا الأمر لا يصلح آخره إلاَّ بما صلح به أوله ، ولا يحتمله إلاّ أفضلكم مقدرة ، وأملككم لنفسه .

وكان يقول : إن العبد إذا دخله العجب بشيء من زينة الدنيا مقته الله تعالى حتى يفارق تلك الزينة .

وكان يقول : يا معشر المسلمين استحيوا من الله ، فوالذي نفسي بيده إني لأظل ، حين أذهب إلى الغائط في الفضاء ، متقنعاً استحياءً من ربي عزَّ وجل .

وكان يقول : ليتني كنت شجرة تعضد ثم تؤكل .

وكان يأخذ طرف لسانه ويقول : هذا الذي أوردني الموارد .

وكان إذا سقط خُطام ناقته ينيخها ويأخذه فيقال له : هلاّ أمرتنا ؟ فيقول : إن رسول الله ﷺ أمرني ألاَّ أسأل الناس شيئاً .

وكان إذا أكل رضي الله تعالى عنه طعاماً فيه شبهة ، ثم علم به استقاءه من بطنه ، ويقول : الّهم لا تؤاحذني بما شربته العروق وخالط الأمعاء .

وكان رضي الله عنه إذا مُدح قال : اللّهم أنت أعلم بي من نفسي ، وأنا أعلم بنفسي منهم ، اللّهم اجعلني خيراً مما يحسبون ، وأغفرلي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون .

إن الله قرن وعده بوعيده ، ليست مع العزاء مصيبة ، الموت أهون مما بعده وأشد مما قبله ، ثلاث من كن فيه كن عليه : البغي ، والنكث ، والمكر ، ذل قوم أسندوا أمرهم إلى أمرأة ، إحرص على الموت توهب لك الحياة (قاله لخالد بن الوليد حين بعثه إلى أهل الردة) .

كثير القول ينسى بعضه بعضاً ، وإنما لك ما وعي عنك .

لا تكتم المستشار خبراً فتؤتي من قبل نفسك .

خير الخصلتين لك أبغضهما إليك ، صنائع المعروف تقي مصارع السوء .

شذرات من خطب أبي بكر

خطبة أبي بكر يوم وفاة النبي عليه الصلاة والسلام

لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، واختبط الناس ،

فأصبحوا بين مصدق ومكذب ، جاء أبو بكر من السُّنح ، ودخل على رسول الله ﷺ ، وتكلم بكلام مؤثر ، ثم خرج وخطب الناس فقال :

« أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، وأشهد أن الكتاب كما نزل ، وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حدث ، وأن القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين ؛ ثم قال :

أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ؛ ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت ، وأن الله قد تقدم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعاً ، وأن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم ، وقبضه إلى ثوابه ، وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه ، فمن أخذ بهما عرف ، ومَن فرق بينهما أنكر ؛ ثم قال :

يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ، ولا يفتننكم عن دينكم ، فعاجلوه بالذي تعجزونه ، ولا تستنظروه فيلحق بكم .

جظذخطبة أبي بكر بعد أن ولي الخلافة

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

أما بعد فإني قد وليت أمركم ، ولست بخيركم ؛ ولكنه نزل القرآن . وسنَّ النبي ﷺ السنن ، وعلمنا فعلمنا .

فاعلموا أيها الناس ، أن أكيس الكيس التُقى ، وأن أحمق الحمق الفجور ، وأن قواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وأن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق .

أيها الناس إنما أنا متبع ، ولست بمبتدع ، فإذا أحسنت فأعينوني ، وإن أنا زغت فقوموني . أقول قولي هذا وأستغفر الله ولي ولكم .

خطبة أخرى

الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام ، وأكرمنا بالإيمان ، ورحمنا بنبيه ﷺ ، فهدانا به من الضلالة ، وجمعنا به من الشتات ، وألف بين قلوبنا ، ونصرنا على عدونا ، ومكن لنا في البلاد ، وجعلنا به إخواناً متحابين ، فاحمدوا الله على هذه النعمة ، وأسألوه المزيد فيها والشكر عليها ، فإن الله قد صدفكم الوعد بالنصر على من خالفكم ؛ وإياكم والعمل بالمعاصي وكفر النعمة ، فقلما كفر قوم بنعمة ولم ينزعوا إلى التوبة إلاّ سلبوا عزهم ، وسلط عليهم عدوهم .

أيها الناس : إن الله قد أعز دعوة هذه الأمة وجمع كلمتها ، وأظهر فلجها (فوزها) ونصرها وشرفها ، فاحمدوه عباد الله على نعمته ، واشكروه على آلائه جعلنا الله وإياكم من الشاكرين .

وخطبة أيضاً

عباد الله ، اعلموا أن الله قد إرتهن بحقه أنفسكم ، وأخذ على ذلك مَواثيقكم ، وعوضكم بالقليل الفاني الكثير الباقي .

وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه ، ولا يُطفأ نوره ، فثقوا بقوله ، وانتصحوا بكتابه ، واستبصروا فيه ليوم الظلمة ، فإنه خلقكم لعبادته ، ووكل بكم الكرام الكاتبين ، يعلمون ما تفعلون .

وخطب الناس يوماً خطبة قال فيها :

ومن يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصمها فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً ، أوصيكم بتقوى الله ، والاعتصام بأمر الله ، الذي شرع لكم وهداكم به ، فإن جوامع هدَى الإسلام بعد كلمة الاخلاص ، السمع والطاعة لمن ولاه الله أمركم ، فإن من يطع الله وأولى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد أفلح ، وأدى الذي عليه من الحق ، وإياكم واتباع الهوى ، فقد أفلح من حُفظ منِ الهوى ، والطمع والغضب ، وإياكم والفخر ، وما فخر من خلق منٍ تراب ثم إلى التراب يعود ، ثم يأكله الدود ، ثم هو اليوم حيٌ ، وغداً يموت .

وصـــاياه

وصية أبي بكر باستخلافه عمر بن الخطاب

عن عائشة رضي الله عنها قالت : كتب أبو بكر رضي الله عنه وصية قال فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قحافة عند خروجه من الدنيا ، حين يؤمن الكافر ، ويتقي الفاجر ، ويصدق الكاذب .

إني أستخلف عليكم عمر بن الخطاب ، فإن يعدل ، فذلك ظني به ورجائي فيه ، وإن يجر ويبدل فلا أعلم الغيب ؛ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

عهد ووصية أبي بكر لسيدنا عمر قبل وفاته

إني مستخلفك من بعدي ، وموصيك بتقوى الله ، إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة ؛ فإنما ثقلت موازين من

ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلاَّ الحق أن يكون ثقيلاً ، إنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل ، وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً .

إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم ، وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا ذكرتهم قلت : إني أخاف ألاَّ أكون من هؤلاء .

وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ، ولم يـذكر حسناتهم ، فإذا ذكرتهم قلت : إني لأرجو ألاَّ أكون من هؤلاء .

وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ، ليكون العبد راغباً راهباً ، ولا يتمنى على الله غير الحق ، ولا يلقى بيده إلى التهلكة .

فإذا حفظت وصيتي ، فلا يكن غائب أحب إليك من الموت ، وهو آتيك ، وإن ضيعت وصيتي ، فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجز الله .

ولما خرج عمر من عند أبي بكر رفع يديه وقال :

اللَّهم إني لم أرد بذلك إلاّ صلاحهم ، وخفت عليهم الفتنة ، +ء –» إ |+ –ء ، واجتهدت لهم رأياً ، فوليت عليهم

خيرهم وأقواهم عليهم ، وأحرصهم على إرشادهم ، وقد حضرني من أمرك ما حضر ، فأخلفني فيهم ، فهم عبادك ونواصيهم بيدك ، أصلح اللّهم ولاتهم ، واجعله من خلفائك الراشدين ، وأصلح له رعيته .

وصية سيدنا أبا بكر لبعض رؤساء الجند

عليك بتقوى الله ، فإنه يرى من باطنك ، مثل الذي يرى من ظاهرك ، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم ، وأبدأهم بالخير ، وعدهم إياه ، وإذا وَعظتهم فأوجز ، فإن الكلام ينسى بعضه بعضاً ، وأصلح نفسك يصلح لك الناس ، وإذا استشرت فأصدق الحديث ، تصدق لك المشورة ، وجالس أهل الصدق والوفاء .

مرضـــه

قيل : إن أبا بكر رضي الله عنه أصيب بالحمى لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاثة عشرة من الهجرة ، ومرض خمسة عشر يوماً لا يخرج فيها إلى الصلاة ، وكان عمر يصلي بالناس .

ولما اشتد عليه المرض جمع الصحابة واستشارهم في أن

يكون سيدنا عمر بن الخطاب خليفة من بعده ، فتمت كلمتهم عليه ، فعهد له بذلك ، وأوصاه بالمسلمين خيراً ، وكتاب عهده لعمر سبق ذكره .

وفـاته

لما ثقل المرض على أبي بكر رضي الله عنه أوصى عائشة أن يدفن إلى جنب رسول الله ﷺ ، وأشار إلى ثوبيه فقال : أغسلوهما وكفنوني فيهما ، فإن الحيّ أحوج إلى الجديد من الميت .

وأوصى أن تغسله أمرأته (أسماء بنت عميس) ويُعينها إبنه عبد الرحمن وكتب وصية بخمس ماله ، وقال : آخذ من مالي ما أخذ الله من فيء المسلمين ، ونزل لبيت المال في ذلك عن حائط بستان كان له ؛ وكان له من الفيء عبد يخدمه ، وبعير يستقي عليه ، وقطيفة ، فأوصى بردها إلى بيت المال ، فقبلها عمر .

وروى الطبري : أن أبا بكر لما حضرته الوفاة قال : أنظروا كم أنفقت منذ وليت بيت المال ؟ فأقضوه عني . فوجدوا مبلغه ثمانية آلاف درهم في ولايته .

وأخرج الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر لما حضرته الوفاة قال :

أي يوم هذا ؟ قالوا : يوم الاثنين . قال : فإن مُت من ليلتي فلا تنتظروا بي الغذ ، فإن أحب الأيام والليالي إليّ أقربها من رسول الله ﷺ .

وتوفي أبو بكر من ليلته تلك ، وهي ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادي الآخرة في السنة الثالثة عشرة من الهجرة .

وقيل : إن سبب موته تحرك سم الحية التي لدغته في الغار (ذكره إبن الأثير) وله من العمر ثلاث وستون سنة .

وآخر ما تكلم به أبو بكر : « رب توفني مسلماً وألحقني بالصالحين » .

وكان نقش خاتمه (نعم القادر الله) .

وقد غسّلته أمرأته (أسماء) كما أوصى ، وصلى عليه عمر بين القبر والمنبر ، وكبر أربعاً ، ودفن ليلاً إلى جنب رسول الله ﷺ ، ونزل في قبره عمر وعثمان وطلحة وإبنه عبد الرحمن ، وجعل رأسه عند كتفي رسول الله ﷺ .

ولما توفي أبو بكر رضي الله عنه ارتجت المدينة بالبكاء ، ودهش القوم كيوم موت رسول الله ﷺ .

ودخل عليه عمر فقال : يا خليفة رسول الله ، لقد كلفت القوم بعدك تعباً ، ووليتهم نصباً ، فهيهات من شق غبارك ، فكيف اللحاق بك ؟

تأبينه

خطبة علي في تأبين أبي بكر

لما قبض أبو بكر رضي الله عنه جاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه باكياً ، مسرعاً مسترجعاً ، حتى وقف بالباب ، وهو يقول :

رحمك الله يا أبا بكر ، كنت والله أول القوم إسلاماً ، وأخلقهم إيماناً ، وأشدهم يقيناً ، وأعظمهم غنىً ، وأحفظهم على رسول الله ﷺ ، وأحدبهم على الإسلام ، وأحماهم عن أهله ، وأنسبهم برسول الله خلقاً وفضلاً ، وهَدياً وصَمتاً ؛ فجزاك الله عن الإسلام ، وعن رسول الله ، وعن المسلمين خيراً .

صدقت رسول الله حين كذبه الناس ، وواسيته حين بخلوا ، وقمت معه حين قعدوا ، وسمّاك الله في كتابه (صديقاً) فقال : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ يريد محمداً ، ويريدك .

كنت والله للإسلام حِصناً ، وللكافرين ناكباً ، لم تضلل حجتك ، ولم تضعف بصيرتك ، ولم تجبن نفسك ، كالجبل لا تحركه العواصف ، ولا تزيله القواصف .

كنت كما قال رسول الله ﷺ : ضعيفاً في بدنك ، قوياً في دينك ، متواضعاً في نفسك ، عظيماً عند الله ، جليلاً في الأرض ، كبيراً عند المؤمنين .

ولم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى ، فالضعيف عندك قوي ، والقوي عندك ضعيف ، حتى تأخذ الحق من القوي ، وتأخذ للضعيف ، فلا حرمنا الله أجرك ، ولا أضلنا بعدك .

خطبة ابنته عائشة في تأبينه

نضر الله يا أبتِ وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ، فلقد كنتَ للدنيا مذلاً بأدبارك عنها ، وللآخرة معزًا بإقبالك عليها ، ولئن كان أعظم المصائب بعد رسول الله ﷺ رزؤك ، وأكبر الأحداث بعده فقدك ، إن كتاب الله عز وجل ليعدنا بالصبر عنك حسن العوض ، وأنا منتجزة من الله موعده فيك بالصبر عنك ، ومستعينة كثرة الاستغفار لك ، فسلم الله عليك ، توديع غير قالية لحياتك ، ولا زارية على القضاء فيك .

أولاده

أولاد أبي بكر هم : عبد الله . الذي خرج بالطائف ، وتوفي أول خلافة أبيه ، وأسماء زوجة الزبير بن العوام . وأمهما قتيلة من بني عامر إبن لؤى . وعبد الرحمن . وعائشة

(أمهما أم رومان بنت الحرث من بني فراس بن غنم بن كنانة) . ومحمد (أمه أسماء بنت عميس) وأم كلثوم أمها بنت زيد بن خارجة من الأنصار ، وهي ولدت بعد وفاته رضي الله عنه .

أحاديث الرسول ﷺ

وأقوال الصحابة والسلف الصالح في محاسن وفضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه

● روى عن إبن عمر رضي الله عنهما قال : دخل رسول الله ﷺ المسجد وأبو بكر عن يمينه وعمر عن شماله فقال : هكذا نبعث يوم القيامة . وقال ﷺ : إن الله تبارك وتعالى أيدني من أهل السماء بجبريل وميكائيل ، ومن أهل الأرض بأبي بكر وعمر . ورآهما مقبلين فقال : (هذان السمع والبصر) أي ان الرسول جعلهما مكان السمع والبصر ، وهذا دليل كاف على حب رسول الله لهما .

● وروي عن إبن عمر رضي الله عنهما قال : لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم .

● وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال : أمر رسول الله ﷺ بالصدقة ، ووافق ذلك مالاً عندي ، فقلت : اليوم أسبق أبا

بكر إن سبقته ، فجئته بنصف ماله ، فقال رسول الله ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ قلت : النصف ، وجاء أبو بكر بكل ماله فقال له النبي ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ قال : الله حقاً ورسوله . فقلت : والله لا أسبقك إلى شيء أبداً .

● وعن عمر رضي الله عنه أنه قال : وددت أني شعرة في صدر أبي بكر رضي الله عنه ـ وقال عمر : أبو بكر سيدنا .

● وعن عطاء عن أبي الدرداء : أنه مشي بين يدي أبي بكر رضي الله عنه ، فقال له رسول الله ﷺ : أتمشي بين يدي من هو خير منك ؟ ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمراسلين على أحد أفضل من أبي بكر .

● وعن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه قال : قال النبي ﷺ : يا علي ، هل تحب الشيخين ؟ قلت : نعم يا رسول الله لا يجتمع حبك وحبهما إلاّ في قلب مؤمن .

● وعن أبي أمامة الباهلي قال : قال رسول الله ﷺ : رحم الله أبا بكر ، زوجني إبنته ، وحملني إلى دار الهجرة ، وأعتق بلالاً من ماله .

● وعن أنس ، عن أبي بكر رضي الله عنه قال : قلت للنبي ﷺ ، ونحن في الغار : لو أن أحدهم نظر في قدميه لأبصرنا . فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله عز وجل ثالثهما ؟

● وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه ، وهو عاصب رأسه ، حتى صعد المنبر فقال : إني قائم الساعة على الحوض ، وإن عبداً عرضت عليه الدنيا وزينتها فاختار الآخرة ، فلم يفطن لها أحد إلاّ أبو بكر رضي الله عنه فقال : بأبي أنت وأمي ؛ بل نفديك بآبائنا وأبنائنا وأنفسنا وأموالنا ويكى . فقال : لا تبك يا أبا بكر ، إن من أمّن الناس عليّ في صحبته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً من الناس لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخي في الإسلام ، لا يبقى في المسجد باب إلاّ سد إلاّ باب أبي بكر . فبكى أبو بكر وقال : أنا ومالي لك يا رسول الله .

● أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من أصبح منكم صائماً ؟ قال أبو بكر : أنا . قال : فمن تبع منكم اليوم جنازة ؟ قال أبو بكر : أنا . قال : فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً ؟ قال أبو بكر : أنا ، قال : فمن عاد اليوم منكم مريضاً ط قال أبو بكر : أنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما اجتمعن في أمرىء إلاّ دخل الجنة .

● وعن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : يجيء يوم القيامة رجل إلى باب الجنة ليس منها باب إلاّ وعليه ملك يهتف

به : هلمَّ هلمَّ أدخل . فقال أبو بكر رضي الله عنه : إن هذا لسعيد . قال : هو إبن أبي قحافة أي أبو بكر .

● وعن سليمان بن يسار ، أن رسول الله ﷺ قال : في المؤمن ثلاثمائة وستون خصلة من الخير ، إذا جاء بواحدة دخل الجنة . قال أبو بكر رضي الله عنه : بأبي أنت وأمي أفيَّ منها شيء ؟ قال : هي كلها فيك يا أبا بكر .

● وعن إبن عمر رضي الله عنه ، قال : بينا النبي ﷺ جالس ، وعنده أبو بكر رضي الله عنه وعليه عباءة قد خلّلها في صدره بخلال إذ نزل عليه جبريل ، عليه السلام فقال : يا رسول الله مالي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلّلها في صدره بخلال ؟ قال : أنفق ماله عليّ قبل الفتح . قال : فأقرئه من الله عز وجل السلام ، وقل له : يقول لك ربك تبارك وتعالى : أراض أنت عني في فقرك أم ساخط ؟ فقال أبو بكر : أعلى ربي أغضب ؟ . أنا على ربي راض . أنا على ربي راض . أنا على ربي راض .

● وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال : كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ طلع أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فقال عليه الصلاة والسلام : هذان سيداً كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين ممن مضى وممن بقي إلاّ النبيين والمرسلين لا تخبرهما يا علي . قال : فما أخبرتهما حتى ماتا .

● وعن جابر قال : كنت مع رسول الله ﷺ فسمعته يقول : يطلع علينا من هذا الفج رجل من أهل الجنة . فطلع أبو بكر رضي الله عنه ؛ ثم قال : يطلع علينا من هذا الفج رجل من أهل الجنة ، فطلع عمر رضي الله عنه . ثم قال : يطلع علينا من هذا الفج رجل من أهل الجنة ، اللّهم اجعله علياً ، فطلع علي رضي الله عنه .

● وعن إبن عباس قال : قال أبو بكر : يا رسول الله ما أحسن هذه الآية ! قال : أيتها ؟ قال : قوله تبارك وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴾ الفجر .

فقال : يا أبا بكر إن الملك سيقولها لك .

● قيل : إنه لما أسلم أبو أبي بكر (أبو قحافة) لم يعلم أبو بكر رضي الله عنه بإسلامه حتى دخل على النبي ﷺ فقال : ألا أبشرك يا أبا بكر بما يسرك ؟ قال : مثلك يا رسول الله مَن يبشر بالخير ؛ فما هي ؟ قال : أسلم أبو قحافة . قال : يا رسول الله لو بشرتني بإسلام أبي طالب كان أقر لعيني فإنه أقر لعينك .

فبكى رسول الله ﷺ حتى علا بكاؤه أسفاً على ما فاته من إسلام أبي طالب وقال : رحمك الله يا أبا بكر (قالها ثلاثاً) .

● أخرج إبن عساكر عن الشعبي قال : خصَّ الله تبارك وتعالى أبا بكر بأربع خصال لم يخص بها أحد من الناس : سمّاه الصديق ولم يسم أحد الصديق غيره ، وهو صاحب الغار مع رسول الله ﷺ ، ورفيقه في الهجرة ، وأمره رسول الله ﷺ بالصلاة والمسلمون شهود .

● وأخرج الحاكم عن إبنِ المسيب قال : كان أبو بكر من النبي ﷺ مكان الوزير ، فكان يشاوره في جميع أموره ، وكان ثانيه في الإسلام ، وثانيه في الغار ، وثانيه في العريش يوم بدر ، وثانيه في القبر ، ولم يكن رسول الله ﷺ يقدم عليه أحداً .

● وأخرج الطبراني عن سهل رضي الله عنه قال : لما قدم النبي ﷺ من حجة الوداع صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس ان أبا بكر يسؤ ني قط فاعرفوا ذلك ، أيها الناس إني راض عنه وعن عمر » .

كلمة عامة

في أبي بكر الصديق رضي الله عنه

كان إماماً تقياً ، وحاكماً سياسياً ، وقائداً قوياً ، وقاضياً عادلاً ومصلحاً ، ورحيماً ، وكريماً وعفيفاً ، وأميناً ، ومتواضعاً ، ومتحلياً بمكارم الأخلاق .

وأما زهده ، وعفته ، وأمانته ، فحدث عنها ولا حرج ، فقد كان متعففاً عن أموال المسلمين ، لا يتناول منها إلاّ ما هو ضروري له ، حتى أنه مات ولم يترك إلاّ عبداً وبعيراً وقطيفة ، وأوصى بردها لبيت مال المسلمين ، فقبلها عمر .

وأما كرمه ، وجوده ، فكان رضي الله عنه خيراً جواداً ، يعتق العبيد الذين كانوا يدخلون في الإسلام ، ويعذبون في سبيل الله ، وحسبك أنه قد اشترى بلالاً ثم أعتقه ، فقال فيه عمر :

(إن أبا بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا) .

وكان واسع الإدراك ، بعيد النظر ، ثاقب الفكر ، سديد الرأي ، راجح العقل .

وقد وضع رضي الله عنه أساسات مهمة في القضاء والحكم بين الناس بالعدل حيث وضع :

أولاً ـ حق الشعب في إنتقاد الحاكم إذا أخطأ ، كما جاء في خطبته يوم مبايعته وتوليته الخلافة ، حيث قال : أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني .

ثانياً ـ أساس وجوب النصيحة للحاكم وتحريم الغش .

ثالثاً ـ أساس الإخاء ، والمساواة التامة بين طبقات الأمة ، في نظر الحاكم ، لا فرق بين قوي وضعيف ، وغني وفقير ، وأمير وحقير ، وذلك قوله :

إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وإن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق .

رابعاً ـ أساس طاعة الحاكم فيما هو حق وعدل فقط ، حيث قال ضمن خطبته :

إن من يطع الله ورسوله ، وأولى الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر فقد أفلح ، وأدى الذي عليه من الحق .

وبالجملة ، فحياته رضي الله عنه سلسلة فضائل ، وجليل أعمال ، بل كمال في كمال ، رحمه الله رحمة واسعة ، وجزاه الله خيراً عن الإسلام والمسلمين .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٣٧٠٤٠٩

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية



عمر بن الخطاب

ثاني الخلفاء الراشدين

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

عُمر بن الخطاب

الناشر: دار الفكر اللبناني
تلفون: ٢٣٧٠٩٥ - ٢٥٦٤١٨ - ٢٥٥٥٤٩
تلكس: ٢٣٦٤٨ - ص.ب ٤٦٩٩ - بيروت - لبنان



عمر بن الخطاب رضي الله عنه

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤى إبن غالب بن فهر العدوي القرشي ، ويجتمع مع رسول الله ﷺ في كعب ، فهو من أشراف مكة ، وعظماء قريش ، وأمه حنتمة بنت هاشم . بن المغيرة . بن عبد الله . بن عمر . بن مخزوم ، وهي أخت أبي جهل ، وبنت عم خالد بن الوليد .

وُلد رضي الله عنه في السنة الثالثة عشرة من ميلاد رسول الله ﷺ بمكة .

لم يزل اسمه في الجاهلية والاسلام عُمر وكنّاه المصطفى عليه الصلاة والسلام بأبي حفص وهو ولد الأسد ، وكان يوم بدر ذكره إبن اسحق وسمّاه رسول الله ﷺ بالفاروق يوم أسلم في دار الأرقم ، وبه تم المسلمون أربعين ، فخرجوا وأظهروا الإسلام ، ففرق الله بعمر الحق من الباطل ، ولذا لقب بالفاروق .

نشأتــه

كان رضي الله عنه في صغره يرعى الغنم لأبيه ، فقد روى إبن عساكر عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه قال : كنت مع عمر بن الخطاب بضفيان فقال :

كنت أرعى للخطاب بهذا المكان ، فكان فظّاً غليظاً ، فكنت أرعى أحياناً ، وأحتطب أحياناً ، فأصبحت أضرب الناس ، ليس فوقي أحد إلاّ رب العالمين .

ولما كبر عمر اشتغل بالتجارة فكان يتاجر بماله أحياناً إلى الشام .

وقد نشأ على الشهامة ، والنجدة ، والحمية ، وسداد الرأي ، وكان مسموع الكلمة في قومه ، وكـان مشهوراً بالشدة ، عزيز الجانب ، وله مكانة عظمى مع أنه لم يكن ذا مال ولا غنىً ، هكذا كان حال هذا الرجل العظيم في جاهليته ، وسنرى كيف كان حاله في الإسلام ؟ وإلى أية درجة بلغ به علو الهمة ، ومضاء العزيمة ، والرأي ، والإخلاص في محبة الرسول الأكرم ، وخدمة الدين القويم ؟

إسلامه

كان المسلمون قبيل إسلام عمر بن الخطاب يجتمعون في دار الأرقم إبن أبي الأرقم المخزومي في أصل الصفا مستخفين

لقلتهم وشدة قريش عليهم ، وكانوا في حاجة إلى الاستكثار من ذوي العصبية والجرأة ، وكان ممن عرف من قريش بنفوذ الكلمة ،البطش ، وسمو المكانة عمر بن الخطاب وأبو جهل .

وكان النبي ﷺ يتوقع خيراً للمسلمين بإسلام أحد هذين الرجلين ، لهذا قال :

« اللّهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام » يعني أبا جهل ، فاستجاب الله سبحانه وتعالى دعاء نبيه ﷺ بأحب الرجلين إليه ، وهو عمر بن الخطاب ، فأسلم في ذي الحجة لمضي ست سنين من البعثة ، وبعد إسلام تسعة وثلاثين رجلاً وثلاث وعشرين أمرأة ، وقيل بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة أمرأة ، وكان له من العمر ست وعشرون سنة .

فكان أشد الناس دفاعاً عن الإسلام ، كالحصن الحصين ، بعد أن كان من أكبر المعارضين له ، وأشدهم إيذاءً وبأساً على المسلمين ، يحرض عليهم بالأذى والضرر ، ويمنع الناس من الدخول في الإسلام لما توهمه من الخطر على شرفه ومكانته .

وأما سبب إسلامه فقد جاءت فيه روايات كثيرة ، ومنها ما أخرجه الحافظ عز الدين الجزري في أسد الغابة عن أسامة بن زيد عن أبيه عن جده أسلم أنه قال :

قال لنا عمر بن الخطاب : أتحبون أن أعلمكم كيف كان بدء إسلامي ؟ قلنا : نعم .

قال : كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ ، فبينا أنا يوماً في يوم حار شديد الحرِّ بالهاجرة في بعض طرق مكة إذ لقيني رجل من قريش فقال : أين تذهب يا إبن الخطاب ؟ أنت تزعم أنك هكذا وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك .

قال : قلت وما ذاك ؟ قال : أختك قد صبأت أي خرجت من دينها .

قال : فرجعت مغضباً ، وقد كان رسول الله ﷺ يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه ، ويصيبان في طعامه ، وقد كان ضم إلى زوج أختي رجلين . قال : فجئت حتى قرعت الباب فقيل : من هذا ؟ قلت : إبن الخطاب .

قال : وكان القوم جلوساً يقرأون القرآن في صحيفة معهم ، فلما سمعوا صوتي تبادروا واختفوا ، وتركوا أو نسوا الصحيفة من أيديهم .

قال : فقامت المرأة ففتحت لي ، فقلت : يا عدوَّة نفسها قد بلغني أنك صبأت (خرجت من دينك) .

قال : فأرفع شيئاً في يدي فأضربها به . قال : فسال الدم .

فلما رأت المرأة الدم بكت ، ثم قالت : يا إبن الخطاب ما كنت فاعلاً فافعل ، لقد أسلمت .

قال : فدخلت وأنا مغضب ، فجلست على السرير فنظرت ، فإذا بكتاب في ناحية البيت .

فقلت : ما هذا الكتاب ؟ أعطينه .

فقالت : لا أعطيك ، لستَ من أهله ، أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تطهر ، وهذا لا يمسه إلاَّ المطهرون .

قال : فلم أزل بها حتى أعطتنيه ، فإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم » فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ، ورميت بالصحيفة من يدي .

قال : ثم رجعت إلى نفسي فإذا فيها : ﴿ سَبَّحَ اللهِ مَا فِي السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الحديد .

قال : فكلما مررت بإسم من أسماء الله عز وجل ذعرت ، ثم ترجع نفسي حتى بلغت : ﴿ آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مسْتَخْلفِينَ فِيهِ ﴾ حتى بلغت إلى قوله ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

قال : فقلت : أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

فخرج القومِ يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوه مني ، وحمدوا الله عزّ وجل ، ثم قالوا : يا بنِ الخطاب أبشر ، فإن رسول الله ﷺ دعا يوم الاثنين فقال « اللّهم أعز الإسلام بأحد الرجلين إما عمرو إبن هشام وإما عمر بن الخطاب » .

وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله لك ، فأبشر .

قال : فلما عرفوا مني الصدق ، وقلت لهم : أخبروني بمكان رسول الله ﷺ .

فقالوا : هو في بيت في أسفل الصفا وصفوه .

قال : فخرجت حتى قرعت الباب ، قيل : من هذا ؟ قلت : إبن الخطاب .

قال : وقد عرفوا شدتي على رسول الله ﷺ ، ولم يعلموا بإسلامي .

قال : فما اجترأ أحد منهم أن يفتح الباب .

قال : فقال رسول الله ﷺ : افتحوا له فإنه إن يرد الله به خيراً يهده .

قال : ففتحوا لي ، وأخذ رجلان بعضدي ، حتى دنوت من رسول الله ﷺ .

فقال : أرسلوه ، فأرسلوني ، فجلست بين يديه ، فأخذ

بمجمع قميصي فجذبني إليه ثم قال : أسلم يا إبن الخطاب ، اللّهم إهده .

قال : قلت : أشهد أن لا إلّه إلاّ الله وأنك رسول الله .

فكبّر المسلمون تكبيرة سُمعت بطرق مكة .

بعد إسلامه

لما منَّ الله عليه بالإسلام ، وشرح صدره في السنة السادسة من الرسالة ، صار من أشد أعوانه ، وأقوى أنصاره ، وجاء في كتب الشريعة أنه لما أسلم نزل جبريل وقال : يا محمد استبشر أهل السماء بإسلام عمر .

وبعد أن كان المسلمون يعبدون ربَّهم خُفيةً أشار عمر على النبي ﷺ بإظهار الدين ، وعدم الاختفاء والتستر ، فخرج ﷺ ومعه المسلمون صفين ، يَؤُم أحدهما سيدنا عمر ، والثاني سيدنا حمزة عم الرسول ﷺ ، مهللين مكبرين ، داعين للدين ، جاهرين بالصلاة ، بعد أن كانت لا تفعل إلاَّ سراً .

فببركة دعائه عليه الصلاة والسلام كان عمر من أكبر أسباب معزة الإسلام في الفتح والنصر والأمان والهجرة ، حتى قال عبد الله بن مسعود : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر .

وكان شجاعاً مهيباً هابته العرب والعجم ، حتى أنه لما أراد

الهجرة إلى المدينة لم يخرج خفية كغيره ؛ بل تقلّد سيفه ، وجاء إلى الكعبة ، وحولها صناديد مكة ، فدخلها وطاف ، وصلى ركعتين . وقريش مجتمعة ثم خرج عليهم صائحاً بقوله : إني مهاجر ، فمن أراد منكم أن تثكله (تفقده) أمه ، ويَتيتم ولدُه ، وتترمل أمرأته ، فليلقني وراء هذا الوادي ؟ وتركهم وذهب ، فلم يجسر أحد على أن يلقاه .

إخلاصــه

وكان عمر من أشـد المسلمين إخلاصـاً للرسول ﷺ وأحرصهم على نشر الإسلام ، لازم النبي ﷺ في جميع غزواته ، وله فيها مواقف مشهورة مشهودة ، وكان من أقوى الناس جهاداً في سبيل الله ، وصبراً على المشاق ، شديد الحرص على حماية الدين ، وحقوق الخلافة والمسلمين ، وفي أقصى درجات العدالة ، والسياسة ، والفراسة ، حتى أن عمرو بن العاص لما أراد فتح برزخ السويس (القنال) واستأذنه منعه وقال : أخشى أن الفرنج يكثرون بالمشرق وبلاد المغرب ، فوقع ما تنبأ به مما هو حاصل الآن .

مبايعتــه

لما مات أبو بكر ولي الخلافة بعده بعهد منه وبويع له بالخلافة لثمان بقين من جمادي الآخرة سنة ثلاث عشرة من

الهجرة ، فقام بأمورها ، ووطد دعائم الإسلام في جزيرة العرب كلها . ولما بويع بالخلافة صعد المنبر وقال :

إنما مثل العرب ، مثل جمل آنف ، اتبع قائده ، فلينظر قائده أين يقوده ؟ أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق .

أول أعماله

أول عمل عمله في خلافته ثلاثة أمور :

١ ـ انتداب الناس مع أبي عبيد الثقفي لحرب الفرس .

٢ ـ عزل خالد بن الوليد وتوسيد الإمارة العامة في الشام إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح .

٣ ـ بعث يَعليَ بن أمية لإجلاء أهل نجران فأجلى النجرانيين النصارى منهم واليهود ، فتفرقوا بعضهم في الشام ، وبعض النجرانية بناحية الكوفة وبهم سميت .

فتوحاتـه

في عهده رضي الله عنه فتح المسلمون ممالك الفرس والروم ، واستولى على كثير من ولايتهم كالعراق وفارس والشام ومصر .

ولما أتم عمرو بن العاص فتح بلاد مصر ، ولاّه سيدنا عُمر

حاكماً عليها ، فأخذ في إصلاح شؤونها ورفع المظالم المفروضة على الأهالي من الروم ، وبنى مدينة الفسطاط (مصر القديمة الآن) واتخذها مقراً لحكومته ، وشيد بها جامعه المشهور (بجامع عمرو) الذي هو أول مسجد للإسلام بمصر ، وحفر خليجاً يوصل النيل بالبحر وسماه خليج أمير المؤمنين .

وبذلك زالت دولة الروم عن مصر ، كما زالت عن الشام .

أولياتــه

قال العسكري : هو أول من سمي أمير المؤمنين ، وأول من كتب التاريخ من الهجرة ، وأول من اتخذ بيت المال ، وأول من سن قيام شهر رمضان ، وأول من عسَّ بالليل ، وأول من عاقب على الهجاء ، وأول من ضرب في الخمر ثمانين ، وأول من حرم المتعة ، وأول من نهى عن بيع أمهات الأولاد ، وأول من جمع الناس في صلاة الجنائز على أربع تكبيرات ، وأول من اتخذ الديوان ، وأول من فتح الفتوح ومسح السواد ، وأول من حمل الطعام من مصر في بحر إيلة إلى المدينة ، وأول من احتبس صدقة في الإسلام ، وأول من أعال الفرائض ، وأول من أخذ زكاة الخيل ، وأول من قال : أطال الله بقاءك (قاله لعلي) وأول من قال : أيدك الله (قاله لعلي) هذا آخر ما ذكره العسكري .

وقال النووي في تهذيبه : هو أول من اتخذ الدِّرة ، وكذا ذكره إبن سعد في الطبقات .

قال : ولقد قيل بعده : لدِّرة عمر أهيب من سيفكم .

قال : وهو أول من استقصى القضاة في الأمصار ، وأول من مصر الأمصار ، الكوفة، والبصرة ، والجزيرة ، والشام ، ومصر ، والموصل .

وقيل : هو أول من كتب التاريخ ، وأول من أشار على أبي بكر يجمع القرآن في المصحف الشريف ، وأول من أنشأ الدفاتر لحصر الغزاة والغنائم وتقسيمها على مستحقيها ، وأول من وضع الخراج .

وكان نقش خاتمه : كفى بالموت واعظاً يا عمر .

صفاته الخُلقية

يكفي في وصفه أن معاوية بن أبي سفيان قال لصعصعة بن صوحان : صف لي عمر بن الخطاب ، فقال : كان عالماً برعيته ، عادلاً في قضيته ، عارياً من الكبر ، قبولاً للعذر ، سهل الحجاب ، مصون الباب ، متحرياً للصواب ، رفيقاً بالضعيف ، غير محاب للقريب ، ولا جاف للغريب ، أي أنه كان شديداً في الحق ، عادلاً بين المسلمين ، صغيرهم وكبيرهم ، غنيهم وفقيرهم ، نشر المساواة بين الرعية من عرب

ومن عجم ، قبل أن تعرف الشعوب الأخرى معنى المساواة ، ولذا قيل : إن عمر بن الخطاب أول حاكم ديموقراطي في الإسلام . فقد كان ميالاً للاستشارة وقبول النصح ، وكان لا يستأثر بالأمر دون المسلمين ، ولا يستبد عليهم في شأن من الشؤون العامة ، فإذا نزل به أمر لا يبرمه حتى يجمع المسلمين ، ويجيل الرأي معهم فيه ويستشيرهم .

ومن مأثور قوله في ذلك : لا خير في أمر أبرم من غير شوري .

وكان مسلكه في الشورى جميلاً ، فإنه كان يستشير العامة أولاً فيسمع منهم ، ثم يجمع مشايخ أصحاب رسول الله ﷺ ، وأصحاب الرأي منهم ، ثم يفضي إليهم بالأمر ، ويسألهم أن يخلصوا فيه إلى رأي محمود ، فالذي يستقر عليه رأيهم يمضيه .

فهو يقال بحق : أنه أول واضع للنظم الدستورية .

وكان رضي الله عنه قد أخذ نفسه وأهله بحال من التقشف وخشونة العيش ، حتى ساوى البائس الفقير ، الذي إنما يعيش بما يتبلغ به مما يمسك الرمق ويدفع الجوع .

لم تدعه نفسه إلى رقيق العيش ، ونعيم الحياة الدنيا ، ولم يهتم بمكاثرة الناس في المال ، ويرى مال المسلمين مرتعاً

وبيلاً على من رعاه ، فقتر على نفسه تقتيراً جعله موضعاً للانتقاد ، واعتراض المعترضين .

وقد بلغ من شدة احتزازه من أخذ مال المسلمين ، أن عطاءه ربما قصر به عن بلوغ الكفاية من حاجاته وحاجات أهله ، فلا يسمح لنفسه بأن يطلب من المسلمين أن يفرضوا له كفايته ؟ بل كان يلجأ إلى الاقتراض من أمين بيت المال ، فإذا حلَّ ميعاد الوفاء ، ولم يجد عنده ما يسد منه أخذ عطاءه وسدد منه .

وكان لا يسمح لأحد من بيته أن ينتفع بشيء ليس له فيه حق .

ومن المحقق أن الإنسان إذا كان ذا قناعة وعفة عن مال الناس زاهداً في حقوقهم ، دعاهم ذلك إلى محبته والرغبة فيه ، خصوصاً إذا كان حاكماً ، حدبوا عليه ، ومالوا إليه ، وأخلصوا في طاعته نياتهم ، وكان أكرم عليهم من أنفسهم .

صفاته الخلقية

أما صفاته الخَلقية ، فكان رضي الله عنه طويلاً ، أصلع ، أعسر ، أيسر ، يعمل بيديه كلتيهما ، وكان لطوله كأنه راكب ، شديد البياض ، تعلوه حمرة ، وكان أشيب ، يصفر لحيته ، ويرجل رأسه .

هيبته

● عن سعد بن أبي وقاص قال : استأذن عمر على رسول الله ﷺ وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن .

فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب ، فأذن له رسول الله ﷺ ، فدخل ورسول الله يضحك ؛ فقال له عمر : أضحك الله سنك يا رسول الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي ، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب .

فقال عمر : فأنت كنتَ أحق أن يهبن .

ثم قال : أي عدوات أنفسهن ، لتهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ ، قلن : أنت فظ غليظ .

فقال رسول الله ﷺ : الذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجاً إلاّ سلك فجاً غير فجك ، أي هرب منك الشيطان يا عمر (في الصحيحين) .

● ذكر إبن الجوزي عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ جالساً فسمعت لغطاً وصوت صبيان ، فقام رسول الله ﷺ ، وإذا حبشية تزفن (ترقص) والصبيان حولها : فقال : يا عائشة تعالي فانظري ، فجئت فوضعت لَحْيي على

منكب رسول الله ﷺ ، فجعلت أنظر إليهم ما بين المنكب إلى رأسه فقال لي : أما شبعتِ ؟ أما شبعتِ ؟ قالت : فجعلت أقول لا : لأنظر منزلتي عنده ، إذ طلع عمر فأرفض الناس عنها (أي انفض الناس عنها) قالت : فقال رسول الله ﷺ :

اني لأنظر إلى شياطين الجن والإنس قد فروا من عمر .

قالت : فرجعت .

● وذكر إبن الأثير في أسد الغابة عن بريدة قال : خرج رسول الله ﷺ في بعض مغازيه (غزواته) فلما انصرف جاءت جارية سوداء فقالت : يا رسول الله إني كنت نذرت إن ردَّك الله سالماً من غزواتك أن أضرب بين يديك بالدُّف . قال : إن كنت نذرت فاضربي ، وإلاّ فلا . فجعلت تضرب ، فدخل أبو بكر وهي تضرب ، ثم دخل عمر وهي تضرب ، فألقت الدُّف تحتها ، وقعدت عليه .

فقال رسول الله ﷺ : إن الشيطان ليخاف منك يا عمر . إني كنت جالساً وهي تضرب ، فدخل أبو بكر وهي تضرب ، ثم دخل عليّ وهي تضرب ، ثم دخل عثمان وهي تضرب ، ثم دخلت أنت فألقت الدُّف .

مساواته بين المسلمين

● روي أن أحد أكابر الملوك وهو (جبلة بن الأيهم) عندما أراد الدخول في الإسلام أقبل إلى المدينة في خمسمائة فارس

عليهم ثياب الوشي ، وهو لابس تاجه ، وفيه قرط (مارية بنت ظالم) زوجة الحارث الأكبر الغساني ، كان فيه لؤلؤتان عجيبتـان ، ففرح أميـر المؤمنين عمر بـإسـلامـه وفـرح المسلمون ، وخرجوا لمقابلته حتى حضر موسم الحج من عامه مع عمر رضي الله عنه .

وبينما هو يطوف بالبيت الحرام إذ وطيء على إزاره (ردائه) رجل أعرابي من بني فزارة فحلة ، فلطمه جبلة على وجهه فهشم أنفه ، فذهب الأعرابي إلى سيدنا عمر ليشكو الملك .

فطلبه سيدنا عمر وقال له : ما دعاك يا جبلة إلى أن لطمت أخاك هذا الفزاري فهشمت أنفه ، فقال : إنه وطيء إزاري فحلة .

فقال عمر : أما أنت فقد أقررت ، إما أن ترضيه ، وإما أن يضربك مثل ما ضربته ؟ فعجب لذلك جبلة وقال : كيف يضربني وأنا ملك كبير ، وهو من السوقة ؟ فلا يصح أن يضربني كما ضربته ، وهل أستوي أنا وهو في ذلك ؟

فقال له عمر : يا جبلة لقد جمعك وإياه الإسلام . والإسلام ساوي بينكما وكل المسلمين سواء ، لا فرق بين الملك والرعية ، ولا فضل لأحد على أحد إلاّ بالتقوى .

فقال جبلة : والله لقد رجوت أن أكون في الإسلام ، أعز مني في الجاهلية .

قال عمر : هو كذلك .

قال جبلة : أخِّرني إلى غد يا أمير المؤمنين ؛ قال عمر : ذلك لك .

فلما جنَّ الليل خرج هو وأصحابه به فلم يثن حتى دخل القسطنطينية على (هرقل) ملك الردم ، فتنصر وأقام عنده ، ثم ندم على ذلك ، وقال أبياتاً منها :

« تَنَصَّرت الأشرافُ من عَار لَطْمةٍ
وَمَا كانَ فيها لَوْ صَبَرْتُ لَهَا ضَرَرْ »
« تَكنَّفَنِي مِنهَا لَجَاجٌ ونَخْوةٌ
فَبعْتُ بها العينَ الصَّحيحةَ بالعَوَر »
« فَيَا ليتَ أُمّي لَم تَلِدْنِي وَلَيْتَني
رَجَعتُ إلى الأمر الذي قالَهُ عُمَرُ »

ولم يكن عمر يريد بعمله هذا التنفير من الإسلام ؛ وإنما كان يريد الانصاف والتسوية بين المسلمين دون محاباة .

وهكذا كان الدين الذي تخلق به عمر رضي الله عنه .

● وكان يخاف من الضعفاء كثيراً في سبيل الله ، وكان يُخيف الأقوياء في سبيل الله تعالى ، وهذا تأييد لقوله في خطبة له :

« إن أقواكم عندي الضعيف حتى أعطيه حقه ؛ وإن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه » .

« أيها الناس إني متبع ، وليس بمبتدع ، فإذا أحسنت فأعينوني ، وإذا زغت فقوموني » .

الوفـــاء بالوعـــد

عمر بن الخطاب والهُرْمُزان

لما أتى (بالهُرمزان) أسيراً إلى عمر بن الخطاب قيل له : يا أمير المؤمنين هذا زعيم العجم ، وصاحب رئيسهم . فقال له عمر : أعرض عليك الإسلام نصحاً لك في عاجلك وآجلك .

قال يا أمير المؤمنين إنما أعتقد ما أنا عليه ، ولا أرغب في الإسلام .

فدعا له عمر بالسيف . فلما همَّ بقتله قال : يا أمير المؤمنين شربة من ماء أفضل من قتلي على ظمأ ؛ فأمر له بشربة من ماء ؛ فلما أخذها قال : أأنا آمن حتى أشربها ؟

قال عمر : نعم . فرمى بها وقال : الوفاء يا أمير المؤمنين نور أبلج .

قال عمر : صدقت ، لك التوقف عنك ، والنظر في أمرك ،

إرفعا عنه السيف ، فلما رفع عنه قال : الآن يا أمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وما جاء به حق من عنده .

فقال عمر : أسلمت خير إسلام فما أخّرك ؟ قال : كَرهت أن تظن أني أسلمت جزعاً من السيف . فقال عمر : إن لأهل فارس عقولاً بها استحقوا ما كانوا فيه من الملك ، ثم أمر به أن يُبَرَّ ويكرم ، وكان بعد يشاوره في توجيه الجيوش لأهل فارس .

تقشفه وعدله

● أرسل كسرى رسولاً إلى عمر بن الخطاب لينظر أحواله ، وليشاهد أفعاله ، فلما دخل المدينة سأل أهلها وقال : أين ملككم ؟ فقالوا : مَالنا ملك ، بل لنا أمير قد خرج إلى ظاهر المدينة .

فخرج الرسول في طلبه ، فرآه نائماً في الشمس على الأرض فوق الرمل الحار ، وقد وضع بُردته كالوسادة تحت رأسه ، والعرق يسقط من جبينه ، إلى أن بلّ الأرض ، فلما رآه الرسول على هذه الحال ، وقع الخشوع في قلبه ، وقال : رجل تخاف جميع الملوك من هيبته تكون هذه حالته .

ثم قال عبارته المشهورة « عَدلتَ يا عمر فنِمتَ » وملكنا يجور فلا جرم أن بقي ساهراً خائفاً « أي أن سيدنا عمر يعدل

بين الناس ويسوي بينهم فأمن ونام ، ولكن ملكنا يظلم ويحب نفسه ويصرف أموال الأمة على نفسه فهو بلا شك يكون خائفاً ولا ينام مستريحاً » .

● قال العتبي : بُعث إلى عمر بحلل فقسمها ، فأصاب كل رجل ثوب ، فصعد المنبر وعليه حُلة ، والحلة ثوبان ، فقال : أيها الناس ألا تسمعون ؟

فقال سليمان : لا نسمع .

قال : ولِمَ يا أبا عبد الله ؟

قال : لأنك قسمت علينا ثوباً ثوباً وعليك حلة .

قال : لا تعجل يا أبا عبد الله .

ثم نادى : يا عبد الله ، فلم يجبه أحد .

فقال : يا عبد الله بن عمر .

قال : لبيك يا أمير المؤمنين .

قال : نشدتك بالله ، الثوب الذي اتَّزَرتُ به هو ثوبك ؟

قال : اللّهم نعم .

فقال سليمان رضي الله عنه : أما الآن فقل ، نسمع .

رحمته

● كان سيدنا عمر رضي الله عنه يطوف ليلة على حسب عادته ليقف على أحوال رعيته ، فرأى بيتاً من الشعر (أي خيمة) وهكذا كانت بيوت العرب .

ولم يكن رأى هذا البيت من قبل ، فقرب منه ليعرف خبره ، فسمع في داخله أنين أمرأة ، ورأى رجلاً خارجه ، فجاء إلى الرجل وسأله عن وجوده وعن أنين المرأة . فقال له : إني غريب وأمرأتي تلد داخل البيت ولا أحد عندها ، فذهب سيدنا عمر إلى منزله ، وأخبر زوجته (أم كلثوم) بنت سيدنا الامام علي بن أبي طالب ، وبنت السيدة فاطمة رضي الله عنها ، فتوجهت معه إلى البيت الذي فيه المرأة ، بعد أن أخذت ما يلزم من الدهن والملابس . وأخذ هو قدراً وشيئاً للطبخ ، فحمل القدر ، ومشت وراءه (أم كلثوم) حتى أتى إلى بيت الغريب ، فدخلت زوجته إلى المرأة لتساعدها ، وقال للرجل : أوقد ناراً ، وكان سيدنا عمر ينفخ في النار بنفسه ليشعلها ، حتى ان الدخان كان يمر من بين لحيته حتى طاب الطبيخ ، وولدت المرأة .

فقالت أم كلثوم لسيدنا عمر : بَشّرَ صاحبك يا أمير المؤمنين بغلام « تريد أن المرأة ولدت ولداً ذكراً) وكان الرجل الغريب لا يعرف أن الذي يوقد النار وينفخ فيها هو سيدنا عمر أمير

المؤمنين . فلما سمع كلمة أمير المؤمنين خاف وخجل ، وأراد أن يعتذر لسيدنا عمر . فقال له : يجب عليَّ أن أفعل ذلك بنفسي ؛ ثم قام وحمل القدر إلى باب البيت وناولها أم كلثوم ، فأطعمت المرأة حتى إذا ارتاحت خرجت أم كلثوم .

فقال سيدنا عمر للرجل : قم إلى بيتك ، وكل ما بقي في البرمة ، ثم قابلني غداً إن شاء الله تعالى .

فأكرمه سيدنا عمر ثاني يوم ، وانصرف الرجل من عنده مسروراً شاكراً .

اهتمامه برعيته

● عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : خرجت مع عمر إلى السوق فلحقته امرأة شابة فقالت : يا أمير المؤمنين هلك زوجي (مات) وترك صبيةً صغاراً ، والله ما ينضجون كراعاً ، ولا لهم زرع ولا ضرع ، وخشيت عليهمْ الضاع ، وأنا ابنة (الغفارى) وقد شهد أبي الحديبية مع النبي ﷺ ، فوقف عمر معها ولم يمض ، وقال : مرحباً مرحباً بنسب قريب .

ثم انصرف إلى بعير كان مربوطاً في الدار ، فحمل عليه غرارتين ملأهما طعاماً ، وجعل بينهما نفقة وثياباً ، ثم ناولها خطامه ، وقال لها : اقتاديه ، فلن يفني هذا حتى يأتيكم الله بخير .

فقال رجل : يا أمير المؤمنين أكثرت لها العطاء .

فقال عمر : ثكلتك أمك ، والله إني لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصناً زماناً ، فافتتحاه في الدمشقية ، ثم أصبحنا نستفيء سهامهما فيه .

شفقتــه

● ذكر إبن الجوزي عن زيد بن أسلم عن أبيه أسلم (مولى عمر) قال :

خرجنا مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى (حرة واقم) مكان بقرب المدينة ، حتى إذا كنا (بصرار) جبل ، إذ نار تتقد .

فقال : يا أسلم ، إني لأرى هاهنا ركباً قد ضربهم الليل والبرد انطلق بنا . فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم ، فإذا أنا بأمرأة معها صبيان وقدر منصوبة على نار وصبيانها يتضاغون (أي يصيحون ويتلوون) .

فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضوء ، وكره أن يقول يا أصحاب النار (فما أرق هذا الشعور ، وما أعظم هذه البلاغة) .

فقالت المرأة : وعليكم السلام . فقال أأدنو ؟ فقالت : إدن بخير أودع .

فدنا منها فقال : ما بالكم ؟ قالت ضربنا الليل والبرد . فقال : وما بال هؤلاء الصبية يتضاغَون ؟ قالت : الجوع . قال : وأي شيء في هذه القدر ؟

قالت : ما أسكتهم به حتى يناموا ، والله بيننا وبين عمر .

قال : إي رحمك الله ، وما يدري عمر بكم ؟ قالت : يتولى أمرنا ويغفل عنا .

قال : فأقبل عليّ (أي على أسلم) فقال : انطلق بنا ، فانطلقنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق ، فأخرج عدلاً من دقيق وكبةً من شحم ، فقال : إحمله عليّ . فقال أسلم : أنا أحمله عنك يا أمير المؤمنين . فقال : أنت تحمل عني وزري يوم القيامة لا أمّ لك ؟ فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه إليها فهرول فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها : ذرّي عليّ وأنا أُحرك لك ، وجعل ينفخ تحت القدر ، وكان ذا لحية عظيمة ، فجعلت أنظر إلى الدخان يخرج من خلال لحيته حتى أنضج ، ثم أنزل القدر بيده وقال : أعطني شيئاً ، فأتته بقصعة أو صحفة فأفرغ الطعام فيها ، وقال لها : أطعميهم وأنا أسطح لك . فلم يزل حتى شبعوا وترك عندها فضل ذلك ، ثم قام وقاموا وهو يضحك ويحمد الله تعالى . فجعلت تقول : جزاك الله خيراً كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين . فيقول لها : قولي خيراً إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك إن شاء الله .

ثم جعل يده على يدي وقصدنا المدينة وقال لي : يا أسلم إن الجوع عدو ، وقد رأيتهم وهم يبكون ، فأحببت أن أفارقهم وهم يضحكون .

عدلــه في رعيته

● روى أنس قال : بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاعداً إذ جاءه رجل من أهل مصر فقال : يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك . فقال عمر : لقد عذت بمجيب ، فما شأنك ؟

قال الرجل : سابقت على فرسي إبناً لعمرو بن العاص ، وهو يومئذٍ أمير على مصر ، فجعل يقنعني بسوطه ، ويقول : أنا إبن الأكرمين فبلغ ذلك عمراً أباه ، فخشي أن آتيك فحبسني في السجن ، فانفلت منه وهذا حين أتيتك .

فكتب عمر بن الخطاب إلى عمر بن العاص : إذا أتاك كتابي هذا فأشهد الموسم أنت وولدك فلان ، وقال للمصري : أقم حتى يأتيك

فقدم عمرو بن العاص ، فشهد الحج . فلما قضى عمر رضي الله عنه الحج ، وهو قاعد مع النـاس ، وعمرو بن العاص وإبنه إلى جانبه ، قام المصري ، فرمى إليه عمر رضي الله عنه بالدِّرة .

قال أنس : ولقد ضربه ، ونحن نشتهي أن يضربه ، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه ، وعمر يقول : أضرب إبن الأكرمين .

قال : يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت .

قال عمر : ضعها على صلعة عمرو فوالله ما ضربك إلاّ بفضل سلطانه .

فقال : يا أمير المؤمنين قد ضربت الذي ضربني .

قال : أما والله لو فعلت لما منعك أحد حتى تكون أنت الذي تنزع .

ثم قال عمر رضي الله عنه : يا عمرو ، « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » . فجعل يعتذر ، ويقول : إني لم أشعر بهذا .

احترامه لحقوق المرأة

● جاء رجل إلى عمر رضي الله عنه يشكو إليه خلق زوجته ، فوقف ببابه ينتظرهُ ، فسمع أمرأته تستطيلِ عليه بلسانها ، وهو ساكت لا يرد عليها ، فانصرف الرجل قائلا : إذا كان هذا حال أمير المؤمنين عمر إبن الخطاب فكيف حالي .

فخرج عمر فرآه مولياً فناداه : ما حاجتك يا أخي ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، جئت أشكو إليك خلق زوجتي واستطالتها علي ، فسمعت زوجتك كذلك . فرجعت وقلت : إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته فكيف حالي .

فقال له عمر : تحملتها لحقوق لها عليَّ فإنها طباخة لطعامي ، خبازة لخبزي ، غسالة لثيابي ، مرضعة لولدي ، وليس ذلك بواجب عليها ، وسكن قلبي بها عن الحرام ، فأنا أتحملها لذلك .

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، وكذلك زوجتي .

قال عمر : فتحملها يا أخي فإنما هي مدة يسيرة .

محافظته على صحة الرعية

● عن أبي وائل قال : مرَّ عمر رضي الله عنه بعجوز تبيع لبناً معها في سوق الليل ، فقال لها : يا عجوز لا تغشي المسلمين ، وزوار بيت الله ، ولا تشوبي اللبن بالماء .

فقالت : نعم يا أمير المؤمنين .

ثم مرَّ بعد ذلك فقال : يا عجوز ألم أتقدم إليك ألاّ تشوبي لبنك بالماء .

فقالت : والله ما فعلت . فتكلمت إبنة لها من داخل الخباء ، فقالت : يا أماه أغشاً وكذباً جمعت على نفسك .

فسمعها عمر ، فهمّ بمعاقبة العجوز ، فتركها لكلام ابنتها ، ثم التفت إلى بنيه فقال لهم : أيكم يتزوج هذه البنت ؟ فلعل الله عزّ وجل أن يخرج منها نسمة طيبة مثلها .

فقال عاصم بن عمر : أنا أتزوجها يا أمير المؤمنين ، فزوجها إياه . فولدت له أم عاصم . فتزوج أم عاصم عبد العزيز بن مروان . فولدت له عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وقد ورد فيه الناقص والأشج أعدلا بني مروان ، فكان هو الأشج .

« وهو الذي قال فيه النبي ﷺ : اللّهم أعزّ الإسلام بالعمرين » .

خدمته ومساعدته للفقراء

● خرج سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سواد الليل وأخذ يدخل بيتاً ثم يخرج منه إلى غيره . فرآه سيدنا طلحة وعلم بعض البيوت التي دخلها ، فلما جاء وقت الصبح ذهب سيدنا طلحة إلى ذلك البيت الذي دخله سيدنا عمر ليلاً ، فوجد فيه عجوزاً عمياء مقعدة (أي لا تقدر على المشي) فسألها عن السبب الذي كان يأتي من أجله سيدنا عمر وقال لها : لماذا يأتي هذا الرجل إلى بيتك ؟ يريد سيدنا عمر . فقالت له : انه يسأل عني ، ويأتي بما يصلح لي من الأشياء التي

أحتاج إليها ، ثم أنه يخرج عني الأذى (أي نه كان يقضي لها مصالحها ويخدمها ويحضر إليها ما تحتاج إليه وينظف لها مسكنها) .

فقال طلحة : ثكلتك أمك يا طلحة ، أعثرات عمر تتبّع ؟

تواضعــه

● عن الفضل بن عميرة : قدم الأحنف بن قيس على عمر في وفد من العراق ، في يوم صائف (شديد الحر) وهو محتجز بعباءة ويهنأ بعيراً (أي يعالج بعيراً كان مريضاً من إبل الصدقة) فقال : يا أحنف ضع ثيابك وهلمّ فأعِن أمير المؤمنين على هذا البعير فإنه من إبل الصدقة ، فيه حق لليتيم والمسكين والأرملة .

فقال رجل من القوم : يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ، فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة فيكفيك هذا ؟

قال عمر : وأي عبد هو أعبد مني ومن الأحنف ؟ هذا أنه من ولي أمر المسلمين ، فهو عبد المسلمين ، يجب عليه لهم مثل ما يجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الأمانة في المداراة .

فلله أي نفس طاهرة بارّة هذه النفس ؟ وأي حنان خالص من

شوائب التصنع والرياء هذا الحنان ؟ وأي خليفة عظيم بعد عمر يحمل نفسه مثل هذا العناء ، ويضع نفسه في هذه الرتبة من التواضع والرحمة ؟

● كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه بينه وبين رجل كلام في شيء فقال له الرجل : اتق الله ، فقال رجل من القوم : أتقول لأمير المؤمنين اتق الله ؟

فقال له عمر : دَعه فليقلها لي ، نعم ما قال ، لا خير فيكم إذا لم تقولوها ولا خير فينا إذا لم تقبلها .

(المناقب عن حسن رضي الله عنه) .

● ذكروا أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قدم الشام عرضت له في طريقه مخاضة ، فنزل عن بعيره وخلع نعليه ، فأمسكهما بيده وخاض الماء ومعه بعيره ، فقال له أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : قد صنعت صنعاً عظيماً عند أهل الأرض (يعني أهل الشام) فصك عمر في صدره وقال له :

أواه ! لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة . إنكم كنتم أذل الناس ، وأحقر الناس ، وأقل الناس ، فأعزكم الله بالإسلام ، فمهما تطلبوا العزة بغير الله يذلكم الله .

حبـه للرعيـة

● أرسل سيدنا عمر إلى سيدنا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما وهو من أكابر أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال له : قد نزل عند باب المدينة قافلة ، وأخاف إذا ناموا أن يسرق شيء من متاعهم ، فهيًا بنا لحراستها ، فسار معه سيدنا عبد الرحمن ؛ ولما وصلا إلى المكان الذي نزلت فيه القافلة ، قال له سيدنا عمر : نَم أنت ، وأنا أحرسها .

ثم جعل يحرس القافلة طول ليلته والناس نيام ، وعينه لا تنام عن عبادة ربه .

زهـده

● سأل سيدنا عمر رضي الله عنه بعض الصالحين فقال له : هل رأيت مني شيئاً تكرهه ولا تحبه لي ؟ فقال له : نعم سمعت أنك وضعت على مائدتك رغيفين ، وأن لك قميصين : أحدهما لليل ، والآخر للنهار .

فعدل سيدنا عمر رضي الله عنه عن ذلك ؛ لأنه علم أن ذلك تبذير وإسراف ، وهو لا يريد إلاّ الشيء الضروري ، وذلك ليوفر الأشياء للمسلمين ، ويحافظ عليها لقوله تعالى :

﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ الاسراء .

● ومن أمثلة زهدة رضي الله عنه ، وكفه عن شهوات الدنيا ، وكان بيده خيرها وثمراتها ، أنه بعد فتحه فارس ، كان يأتيه الذهب وهو خمس الفيء فيبكي ويقول : ان الله زوي الدنيا عن محمد ﷺ وأبي بكر ، وبذلها لي ، فأخشى أن يكون قد فعل ذلك ليهلكني ، ولكن عمر لم يهلك ، ولم تشغله هذه الأموال الهائلة المحمولة له ، فقد زهد فيها جميعاً ، وأصبح يكتفي بالكسرة والتمرة ، وبيده خزائن الأرض .

وحكي أن سعد بن أبي وقاص بعد فتحه فارس ، وإنتهاب جواهر كسرى ، أراد أن يهدي إلى عمر جواهر من تلك التيجان ، التي كان يتعصب بها هؤلاء الملوك ، فأرسل رسولاً ببعضها ، فذهب من الكوفة إلى المدينة ، وهنا يقول : أتيت عمر فوجدته قائماً في الغروب يطعم الناس ، وبيده درته ، ويقول : ضع مرقاً هنا يا يرفأ (إسم خادمه) ضع خبزاً هنا ، حتى أكل الناس وانصرف ، فتبعته حتى دخل منزله ونادى بزوجته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب قائلاً : هلمَّ العشاء يا أم كلثوم فأخرجت له ملحاً جريشاً وخبزاً يابساً ، وعندئذ لمحني واقفاً على الباب فنظر إلي وقال : كأنك لم تشبع . فوالله لقد كان طعامكم خيراً من هذا .

فقلت له : يا أمير المؤمنين إنما أنا رسول سعد ، وقد أرسل لك جوهرتين من تاج كسرى ، وهما معي في هذا السفط

(وعاء كالقفة) وأريته سَفطاً كان معي ، فقال : حسناً ، ألقه هناك ، ثم ودعت ، وانصرفت إلى الكوفة ، فلم أكد أنيخ راحلتي بالكوفة ، حتى أدركني رسول عمر وقال : أجب أمير المؤمنين .

فرجعت ، فإذا بعمر واقفاً وبيده الدِّرة وقال : ويل أمك ماذا صنعت بي ؟ فما هو بعد أن تركتني ونمت أتى إلي ملكان فأمسكا بي وقاداني إلى السَفَطَ فإذا هو شعلة من نار ، فخذه عني وبعه ، وفرّق ثمنه على المسلمين .

● خرج عمر رضي الله عنه من المسجد (والجارود العبدي) معه فبينما هما خارجان إذا بأمرأة على ظهر الطريق فسلم عليها عمر فردت عليه السلام . ثم قالت : رويدك يا عمر حتى أكلمك كلمات قليلة . فقال لها : قولي :

قالت : يا عمر ، عهدي بك وأنت تسمى عميراً في سوق عكاظ تصارع الصبيان ، فلم تذهب الأيام حتى سُميت عمر ، ثم لم تذهب الأيام حتى سُميت أمير المؤمنين ، فاتّق الله في الرعية ، واعلم انه من خاف الموت ، خشي الفوت . فبكي عمر رضي الله عنه .

فقال الجارود للمرأة ، قد اجترأت على أمير المؤمنين وأبكيته .

فقال عمر : دَعها ؟ أما تعرف هذه يا جارود هذه (خولة بنت حكيم) التي سمع الله قولها من فوق سبع سموات ، فعمر والله أحرى أن يسمع كلامها .

أراد بذلك قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتي تُجَادِلُكَ في زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ ﴾ المجادلة .

شفقته ورحمته بالرعيـــة

● كان رضي الله عنه رحيماً ، شفيقاً بالناس . دخل عليه أحد عماله فوجده مستلقياً على ظهره ، وصبيانه يلعبون حوله ، فأنكر ذلك عليه .

فقال عمر : كيف أنت مع أهلك ؟

قال : إذا دخلت سكت الناطق .

فقال له : اعتزل عملنا ، فإنك لا ترفق بأهلك وولدك ؟ فكيف ترفق بأمة محمد ﷺ ؟

احترامه للشرع والحق

● لما رأى عمر رضي الله عنه الرجال يُغالون في مهور النساء ، أراد أن يجعل لها حداً ، فخطب المسلمين في المسجد مشيراً إلى ذلك .

فردت عليه أمرأة وقالت : كيف تفعل هذا ؟ وقد قال الله تعالى :

﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً ﴾ النساء .

فرجع عمر عن رأيه وقال : أصابت أمرأة ، وأخطأ عمر .

حرصه على مال المسلمين

● قال محمد بن عبيد : حدثنا سفيان بن عيينة عن إبن أبي نجيح قال :

لما أُتِي عمر بتاج كسرى وسواريه جعل يقلبه بعود كان في يده ويقول : والله ان الذي أدى إلينا هذا لأمين .

فقال رجل : يا أمير المؤمنين أنت أمين الله ، يؤدون إليك ما أديت إلى الله ، فإذا رتعت رتعوا .

قال : صدقت .

● يحكى أن زوجة سيدنا عمر رضي الله عنه (أم كلثوم) بنت الامام علي وبنت فاطمة الزهراء ، بنت الرسول عليه الصلاة والسلام ، اشتهت نفسها الحلوى فقال لها : ليس لنا ما نشتري به .

فقالت : أنا أستفضل من نفقتنا في عدة أيام ما نشتري به .

فقال لها : إفعلي . ففعلت ذلك ، واجتمع لها في أيام كثيرة شيء يسير ، فلما عرفته ذلك ليشتري به الحلوى أخذه فرده إلى بيت المال . وقال : هذا يفضل من نفقتنا ، وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم ، وغرمه لبيت المال من ملك كان له .

مشتراه ظلامة أمرأة بخمسة وعشرين ديناراً

● قيل : لما رجع عمر رضي الله عنه من الشام إلى المدينة ، انفرد عن الناس ليتعرف أخبار رعيته ، فمرّ بعجوز في خِباء لها ، فقصدها فقالت :

ما فعل عمر رضي الله عنه ؟ قال : قد أقبل من الشام سالماً .

فقالت : يا هذا لا جزاه الله خيراً عني . قال : ولِمَ ؟ قالت :

لأنه ما أنالني من عطاياه منذ ولي أمر المسلمين ديناراً ولا درهماً .

فقال : وما يدري عمر بحالك ، وأنت في هذا الموضع ؟

فقالت : سبحان الله ، والله ما ظننت أن أحداً يلي على الناس ولا يدري ما بين مشرقها ومغربها . فبكى عمر رضي الله

عنه وقال : واعمراه ! كل واحد أفقه منك حتى العجائز يا عمر . ثم قال لها : يا أمة الله بكم تبيعني ظلامتك من عمر فإني أرحمه من النار ؟

فقالت : لا تهزأ بنا يرحمك الله .

فقال عمر : لست أهزأ بك ، ولم يزل بها حتى أشتري ظلامتها بخمسة وعشرين ديناراً ؛ فبينما هو كذلك إذ أقبل علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما فقالا : السلام عليك يا أمير المؤمنين . فوضعت العجوز يدها على رأسها وقالت : واسوءتاه ! شتمت أمير المؤمنين في وجهه .

فقال لها عمر رضي الله عنه : لا بأس عليك ، يرحمك الله .

ثم طلب قطعة جلد يكتب فيها فلم يجد ، فقطع قطعة من مرقعته وكتب فيها :

(بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اشترى عمر من فلانة ظلامتها منذ ولي الخلافة إلى يوم كذا وكذا بخمسة وعشرين ديناراً ، مما تدعي عليه عند وقوفه في المحشر بين يدي الله تعالى ، فعمر بَريء منه .

(شهد على ذلك . علي ، وإبن مسعود) .

ثم دفعها إلى ولده وقال : إذا أنا مُت فاجعلها في كفني ألقى بها ربي .

وفاة سيدنا عمر رضي الله عنه

توفي عمر رضي الله عنه في أواخر ذي الحجة سنة ٢٣ من الهجرة وعمره ٦٣ سنة ، ومدة خلافته ١٠ سنين وستة أشهر ، شهيداً بيد (أبي لؤلؤة عبدَ المغيرة بن شعبة) وهو غلام مجوسي اسمه (فيروز) حيث تربص له هذا الشقي حتى دخل المسجد وكبَّر للصلاة ، وكبَّر الناس وراءه ، فانقض عليه وطعنه بخنجر ، وطعن معه ثلاثة عشر رجلاً ، مات منهم سبعة ، ولما قبضوا عليه نحر نفسه ، فقال رضي الله عنه حين أدركه النزف : قولوا لعبد الرحمن بن عوف فليصل بالناس ، ثم غلب على عمر النزف حتى غُشي عليه .

فكان موت سيدنا عمر بهذه الكيفية الوحشية أول مصيبة وأعظم خطب حلَّ بالمسلمين بعد موت الرسول ﷺ .

ودفن عمر بالروضة الشريفة التي بها قبر النبي ﷺ .

سيدنا عمر والشورى في الخلافة

سيدنا عمر رضي الله عنه أول من أمر بالتشاور لانتخاب الخليفة ، وأما قبله فكانت توليته بالاستخلاف .

قدَّم النبي ﷺ أبا بكر للصلاة ، فرضي به المسلمون لأمر دنياهم ، كما رضيه النبي ﷺ لأمر دينهم .

ثم استخلف أبو بكر عمر رضوان الله عليهما .

فلما حدث حادث أبي لؤلؤة لم يرد عمر الاستخلاف ؛ بل أراد أن لا يتحمل تبعتها ميتاً كما تحملها حياً ، فلم يعهد بها إلى شخص بعينه وجعلها شورى في النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، فدعى علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأمرهم أن يتشاوروا في أمر الخلافة ، وقال لهم : انتظروا أخاكم طلحة بن عبيد الله ثلاثاً فإن جاء وإلاَّ فاقضوا أمركم ، وليشهدكم عبد الله بن عمر ، وليس له من الأمر شيء . قوموا فتشاوروا ، وليصل بالناس صهيب .

ثم قال لأبي طلحة الأنصاري : يا أبا طلحة إن الله أعزَّ بكم الإسلام فاختر خمسين رجلاً من الأنصار ، وكونوا مع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم .

وقال للمقداد بن الأسود : إذا وضعتموني في حفرتي ، فاجمع هؤلاء الرهط وقم على رؤوسهم ، فإن اجتمع خمسة على رأي واحد ، وأبى واحد فاشدخ رأسه (كسِّرْ) بالسيف ، وإن اجتمع أربعة ورضوا ، وأبى الاثنان فاضرب رأسهما ، فإن رضي ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً ، فحكموا عبد الله بن عمر ، فإن لم يرضوا بعبد الله ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس .

نبذ من حكمه

من كتم سرَّه كان الخيار في يده .
أعقل الناس أعذرهم للناس .
ما الخمر صرفاً بأذهب لعقول الرجال من الطمع .
لو أن الشكر والصبر بعيران لما باليت أيهما أركب .
اتقوا من تبغضه قلوبكم .
أخيفوا الهوام قبل أن تخيفكم .
اقتصاد في سُنّة ، خير من اجتهاد في بدعة .
أشقى الولاة من شقيت به رعيته .
لا يكن حبك كلفاً ، ولا بغضك تلفاً .
مروا ذوي القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا .
من لا يعرف الشر كان أجدر به أن يقع فيه .
من اتقى الله لم يشف غيظه ، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد .
ولولا القيامة لكان غير ما ترون .

نبذ من كلامه

كان رضي الله عنه يقول : اللّهم ارزقني شهادة في سبيلك ، واجعل موتي في بلد رسول الله ﷺ .

ولما احتضر كانت رأسه في حجر ولده عبد الله فقال له : يا ولدي ضع رأسي على الأرض ؟ فقال له عبد الله : وما عليك إن كانت على فخذي ، أم على الأرض . فقال : ضعها على الأرض . فوضع عبد الله رأسه على الأرض ، فقال ، ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي ! ثم قال : وددت أن أخرج من الدنيا كما دخلت لا أجر ولا وزر عليّ .

ومن كلامه أيضاً : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أهون عليكم من الحساب غداً .

شذرات من خطب عمر بن الخطاب

أول خطبة لعمر

بعد أن بويع عمر بالخلافة بعد وفاة أبي بكر ، صعد المنبر فقال كلمة قصيرة اشتملت على سياسته التي اعتزم أن يسوس بها الناس .

فقال ، بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله :

« إنما مثل العرب كمثل جمل أنف (ذلول) اتبع قائده ، فلينظر قائدُه أين يقوده ؟ أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق » .

وقد أراد بالطريق ، الطريق الأقوم الذي لا اعوجاج فيه .

خطبته رضي الله عنه لما ولى الخلافة

لما دفن أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، صعد عمر المنبر فجلس ، ثم قام ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إني داع فأمّنوا ، اللّهم اني شديد فألني لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وأرزقني الشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق ، من غير ظلم مني لهم ، ولا اعتداء عليهم .

اللّهم إني شحيح فسخني في نوائب المعروف قصداً من غير سرف ولا تبذير ، ولا رياء ، ولا سمعة ، واجعلني أبتغي بذلك وجهك ، والدار الآخرة .

اللهم أرزقني خفض الجناح ، ولين الجانب للمؤمنين .

اللّهم إني كثير الغفلة والنسيان ، فألهمني ذكرك على كل حال ، وذكر الموت في كل حين .

اللهم أني ضعيف عن العمل بطاعتك ، فارزقني النشاط فيها ، والقوة عليها ، بالنية الحسنة التي لا تكون إلاّ بفضلك وتوفيقك .

اللّهم ثبتني باليقين والبرِّ والتقوى ، وذكر المقام بين يديك والحياء منك ، وأرزقني الخشوع فيما يرضيك عني ،

والمحاسبة لِنفسي ، وإصلاح الساعات ، والحذر من الشبهات .

اللّهم أرزقني التفكر والتدبر ، لما يتلوه لساني من كتابك ، والفهم له والمعرفة بمعانيه ، والنظر في عجائبه ، والعمل بذلك ما بقيت إنك على كل شيء قدير .

من خطبة لـه

ما كان الله ليراني أن أرى نفسي أهلاً لمجلس أبي بكر .

فنزل مرقاة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أقرأوا القرآن تعرفوا به ، واعملوا به ، تكونوا من أهله ، وزنوا به أنفسكم قبل أن توزنوا وترتبوا للعرض الأكبر ، يوم تعرضون على الله لا تخفي منكم خافية ، انه لم يبلغ حق حق ذي حق أن يطاع في معصية الله ، ألا وإني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة وليّ اليتيم ، إن استغْنيتُ عففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف » .

ومن خطبة أخرى له

بعد أن حمد الله وأثنى عليه قال :

يأيها الناس إني قد وليت عليكم ، ولولا رجاء أن أكون

خيركم لكم ، وأقواكم عليكم ، وأشدكم استصلاحاً بما ينوب عن مهم أموركم ما توليت ذلك منكم .

ولكفى عمر مهماً محزناً موافقة الحساب بأخذ حقوقكم ، كيف آخذها ؟ ووضعها ، أين أضعها ؟ وبالسير فيكم ، كيف أسير ؟ فربي المستعان .

فإن عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة ، إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته ، وعونه ، وتأييده » .

ومن خطبة أخرى

بعد أن حمد الله وأثنى عليه قال :

« يا أيها الناس إني قد وليت عليكم ، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم ، وأقواكم عليكم ، وأشدكم استصلاحاً بما ينوب عن مهم أموركم ما توليت ذلك منكم .

ولكفى عمر مهما محزناً موافقة الحساب بأخذ حقوقكم ، كيف آخذها ؟ ووضعها ، أين أضعها ؟ وبالسير فيكم ، كيف أسير ؟ فربي المستعان .

فإن عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة ، إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته ، وعونه ، وتأييده » .

من خطبة له في الحثّ على حسن معاملة الرعية

« يا أيها الناس ، إني والله ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ؛ ولكني أرسلهم إليكم ليُعلموكم دينكم ، وسنتكم ، ويقضوا بينكم بالحق ، ويحكموا بينكم بالعدل ، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليّ ، فوالذي نفس عمر بيده لأُقِصنّهُ منه » .

فوثب عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين ، أرأيت إن كان رجلٍ من أمراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته إنك لتُقِصُّه منه ؟

قال : إي والذي نفس عمر بيده ، إذن لأقصنّه منه ، وكيف لا أقِصُّه منه ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقتص من نفسه ؟

ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تجمّروهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم » .

* * *

وكان عمر إذا بلغه عن عامل من عماله ريبة في معصية لم يمهله أن يعزله ؛ لأن استصلاح الرعية بضرره بالعزل خير من الإبقاء عليه مع ضرر الرعية .

من خطبة له في الحثّ على السعي

لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللّهم أرزقني ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، والله تعالى إنما يرزق الناس بعضهم من بعض ، فقد قال تعالى :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ الجمعة .

من خطبة له في الوعظ

أيها الناس انه أتى عليّ حين وأنا أحسب أن من يقرأ القرآن أنه إنما يريد به الله وما عنده . ألا وقد خيِّل إليّ أن أقواماً يقرءون القرآن يريدون به ما عند الناس ، ألا فأريدوا الله بقراءتكم ، وأريدوه بأعمالكم ، فإنا كنا نعرفكم إذ الوحي ينزل ، وإذ النبي ﷺ بين أظهرنا ، فقد رفع الوحي ، وذهب النبي صلوات الله تعالى عليه ، فإنما نعرفكم بما أقول لكم .

ألا فمن أظهر لنا خيراً ظننا به خيراً وأثنينا به عليه ، ومن أظهر لنا شراً ظننا به شراً ، وأبغضناه عليه .

إقدعوا (كفوا) هذه النفوس عن شهواتها فإنها طلعة ، فإنكم إلّا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية .

إن هذا الحق ثقيل مريء ، وإن الباطل خفيف وبيء ،

وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ، وربَّ نظرة زرعت شهوة ، وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً .

خطبة له في الوعظ أيضاً

إنما الدنيا أمل مخترم (منتقص) وأجل منتقضْ ، وبلاغ إلى دار غيرها ، وسير إلى الموت ليس فيه تعريج ، فرحم الله إمرءاً فكر في أمره ، ونصح لنفسه ، وراقب ربه ، واستقال ذنبه .

بئس الجار الغني يأخذك بما لا يعطيك من نفسه ، فإن أبيت لم يعذرك إياكم والبطنة ، فإنها مكسلة للصلاة ، ومفسدة للجسم ، ومؤدية إلى السقم ، وعليكم بالقصد في قوتكم ، فهو أبعد من السرف ، وأصح للبدن ، وأقوى على العبادة ، وإن العبد لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه .

بعض كتبه

كتب إلى عامله بالبصرة ينصحه

أما بعد ، فقد أصبحت أميراً تقول فيسمع لك ، وتأمر فينفذ أمرك . فيا لها من نعمة إن لم ترفعك فوق قدرك ، وتطغيك على من دونك ، فاحترس من النعمة أشد من احتراسك من المصيبة ، وإياك أن تسقط سقطة لا شَوَى لها (لا بقية لها) وتعثر عثرة لالعاً لها (لا أقامه الله) .

كتب إلى أبي موسى الأشعري ينصحه

أما بعد ، فإن للناس نفرة عن سلطانهم ، فأعوذ بالله أن تدركني وإياك عمياء مجهولة ، وضغائن محمولة ، وأهواء متبعة ، ودنيا مؤثرة ، فأقم الحدود ولو ساعةً من النهار ، وباشر أمور المسلمين ، وافتح بابك لهم ، فإنما أنت رجل منهم ، غير أن الله جعلك أثقلهم حملاً .

وقد بلغ أمير المؤمنين أنه فشت لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ، ومركبك ، ليس للمسلمين مثلها .

فإياك يا عبد الله أن تكون كالبهيمة ، همُّها في السمن ، والسمن حتفها ، واعلم أن للعامل مردًّا إلى الله فإذا زاغ زاغت رعيته ، وأن أشقى الناس من شقيت به رعيته (وأسعد الناس من سعدت به الناس) والسلام .

كتب إلى معاوية ينصحه

أما بعد ، فإني لم آلك في كتابي إليك ونفسي خيراً . إياك والاحتجاب دون الناس ، وأذن للضعيف وأدنه ، حتى تبسط لسانه ، وتجرىء قلبه وتعهد الغريب ، فإنه إذا طال حبسه ، وضاق إذنه ، ترك حقه ، وضعف قلبه . وإنما ترك حقه من حبسه ، وأحرص على الصلح بين الناس ما لم يستبن لك القضاء ، وإذا حضرك الخصمان بالبينة العادلة والإيمان القاطعة فأمض الحكم .

كتب إلى إبنه ينصحه

أما بعد ، فإنه من إتّقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن شكر له زاده ، ومن أقرضه (أي تصدق على الفقراء) جزاه .

فاجعل التقوى عماد قلبك ، وجلاء بصرك ، فإنه لا عمل لمن لا نية له (إنما الأعمال بالنيات) ولا أجر لمن لا حسنة له ، ولا جديد لمن لا خلق له .

أولاد عمر رضي الله عنه

وأما أولاده رضي الله عنه فثلاثة عشر ولداً : تسعة بنين ، وأربع بنات .

أما البنون فهم : عبد الله ويكنى أبا عبد الرحمن ، وعبد الرحمن الأكبر شقيقه ، وأمهما زينب بنت مظعون الجمحي .

وزيد الأكبر ، وأمه أم كلثوم بنت الامام علي كرم الله وجهه وعاصم ، وأمه جميلة بنت عاصم بن ثابت .

وعياض ، وأمه عاتكة بنت زيد .

وزيد الأصغر ، وعبيد الله وأمهما مليكة بنت جرول الخزاعية .

وعبد الرحمن الأوسط ، وعبد الرحمن الأصغر ، ويكنى أبا شحمة وهو الذي ضربه عمر في الحد حتى مات .

وأما البنات الأربع فهن : حفصة زوج النبي ﷺ ؛ ورقية وهي شقيقة زيد الأكبر ؛ وفاطمة أمها أم حكيم بنت الحرث ؛ وزينب أمها فكيهة .

كلمة عامة عن عمر بن الخطاب

إن فَخرَ الإسلام بعد رسول الله ﷺ بأحد ، فإنما يفخر بعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، هذا الرجل العظيم الذي كان قبل إسلامه حرباً على الإسلام ، فأصبح بعد إسلامه نعمةً ورحمةً على الإسلام .

وكان في شخصيته بالغ الذروة ، ظاهر العظمة ، وفي عهد خلافته صاحب فضل كبير جداً في تثبيت دعائم الاسلام ، وقوته ، وانتشاره ؛ ولذا قال الرسول ﷺ : « اللّهم أعز الإسلام بعمر » .

وكان في دخوله في الإسلام ازدياد وقوة للمسلمين ، وكانت له في زمن النبي ﷺ ، وفي عهد أبي بكر الصديق ، المواقف الخطيرة ، والآراء الصائبة .

ولما ولي الخلافة سار فيها سيراً محموداً ، وتم في زمنه فتح أقطار الشام ، وفلسطين ، ومصر ، والعراق ، وانتهاء حكم دولتين عظيمتين في هذه الأقطار ، وهما دولتا الفرس والروم ، وتأسيس الملك العربي الإسلامي تأسيساً حقيقياً .

وكانت الخطط التي انتصرت فيها جيوش المسلمين بتدبيره ، وحسن رأيه . ولم يكن عهده قاصراً على

الفتوحات ؛ بل بدأ بوضع الأساسات التنظيمية لحسن إدارة البلاد ، وتدبير شؤونها ، ويرجع ذلك إلى الصفات السامية التي كان متحلياً بها ، من عزم ، وحزم ، وشدة وحنكة ، وحسن تدبير ، وإلى الرجال العظام الذين قادوا الجيوش ، وولوا إدارة الأقطار ، فكانوا أحسن مثال للعزم ، والشجاعة ، والعدل ، والادارة الصالحة أيضاً ، كخالد بن الوليد ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وعَمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وسعد بن أبي وقاص ، والأحنف بن قيس ، وأمثالهم .

وكان عمر يحب رعيته حباً جماً ، ويحب ما يصلحها ، ويكره ما يفسدها ساسها بسياسة تقربه إلى القلوب ، فكان عفيفاً عن أموالهم ، عادلاً بينهم ، مسوياً بين الناس ، لم يكن قويّ يطمع أن يأخذ أكثر مما له ، ولا ضعيف يخاف أن يضيع منه ماله .

كان رضي الله عنه حكيماً يضع الشيء في موضعه ، يشتد حيناً ، ويلين حيناً ، حسبما توحي إليه الأحوال التي هو فيها .

عرف العرب معرفة تامة ، وعرف ما يصلح أنفسها ، فسيرها في الطريق الذي لا تألم فيه ، فصيرها أمة حرة لا تستطيع أن تنظر إلى خسف يلحقها من أي إنسان .

ولذلك أتعب عمر من بعده ، فإن النفوس التي تحتمل للعرب ما احتمله عمر قليلة في الدنيا بأسرها ، وإلاّ فأين ذلك الرجل الذي يفني في مصلحة رعيته ؟ ولا يرى لنفسه من الحقوق إلاّ كما لأدناهم ، مع تحمله مشقات الحياة وأتعابها

وكان عمر رضي الله عنه متشدداً في صالح المسلمين ، رؤوفاً بالرعية متبصراً بحقوقهم ، بعيداً عن كل أبهة وزخرف ، شديداً على عماله ، لا يتساهل في صغيرة ولا كبيرة ، ولا يسمح لأحد من عماله أن يكون مستبداً ، خارجاً عن جادة العدل والحق في سيرته العامة والخاصة ، عفيفاً عن أموال المسلمين عفةً تامة ، فترك بسيرته وعدله وصفاته أحسن المثل ، وصار علماً من أعلام التاريخ الإسلامي عامة ، والعربي خاصة .

ومما يؤثر عنه ، أنه خطب مرة فقال : من رأى فيّ اعوجاجاً فليقومه ، فقام إليه أعرابي وقال له : والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا ،

فقال عمر : الحمد لله على أن وجد من يقوم اعوجاجي .

وكفاه شرفاً وفخراً قول النبي صلى الله عليه وسلم فيه : إن الله جعل الحق على لسان عمر .

سلسلة مختارات اسلامية

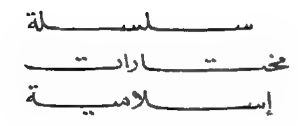
١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلاميّة

عثمان بن عفان

ثالث الخلفاء الراشدين

دار الفكر اللبناني


سلسلة
مختارات
إسلامية

عثمان بن عفّان

الناشر: دَار الفكر اللبناني
تلفون: ٢٣٧٠٩٥ - ٢٥٦٤١٨ - ٢٥٥٥٤٩
تلكس: ٢٣٦٤٨ - ص.ب ٤٦٩٩ - بيروت - لبنان



عثمان بن عفان رضي الله عنه

هو عثمان بن عفان ، بن أبي العاص ، بن أمية ، بن عبد شمس ، بن عبد مناف ، بن قصيّ ، بن كلاب ، بن مرة ، بن كعب ، ابن لؤى ، بن غالب القرشي الأموي ، ويجتمع مع النبي ﷺ في جده الخامس عبد مناف . وأمه (أروى) بنت كريز ، بن ربيعة ، بن عبد شمس ، بن عبد مناف ، وأمها البيضاء أم حكيم ، بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ .

يكنى أبا عبد الله ، وأبا عمرو ، كنيتان مشهورتان له وأبو عمرو أشهرهما .

ولد في السنة السادسة بعد عام الفيل ، من ميلاد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان من السابقين الأولين في الاسلام ، وأول المهاجرين ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة .

نشأته

كان سيدنا عثمان رضي الله عنه تاجراً بزازاً ، موفقاً في تجارته ، فاتسعت ثروته ، وكثر ماله ، وكان غنياً كريماً ، حسن الشيمة ، شبَّ على كرم الأخلاق ، وحسن السيرة ، حييّاً عفيفاً ، ولذا كان محبباً في قومه ، مأموناً عندهم ، محترماً لديهم ، مبجلاً فيهم .

إسلامه ، وصحبته لرسول الله ﷺ

لما بعث الله محمداً ﷺ نبياً ، كان سيدنا عثمان رضي الله عنه من السابقين الى الاسلام على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وزوجه عليه السلام بنته (السيدة رقية) .

فلما آذى المشركون المسلمين ، هاجر رضي الله عنه مع زوجه الى بلاد الحبشة ، فكان أول من هاجر .

روى أنس قال : أول من هاجر الى الحبشة بأهله عثمان بن عفان فقال النبي ﷺ : صحبهما الله ، ان عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط .

ثم رجع الى مكة قبل الهجرة النبوية الى المدينة .

فلما أذن الله له بها ، هاجر اليها هو وزوجه ، وحضر مع

رسول الله ﷺ كل غزواته ومشاهده ، ولكنه لم يحضر غزوة (بدر) لأنه كان مشغولاً بتمريض زوجه (السيدة رقية) التي توفيت في تلك المدة عقب انتصار المسلمين في تلك الغزوة ، وأسهم له رسول الله ﷺ في غنيمتها ، ثم زوجه بنته الثانية (السيدة أم كلثوم) وتلك منقبة عظيمة لم تعرف لغيره من الناس قاطبةً ، ولذا سمي عثمان (بذي النورين) رضي الله عنه .

وكان سخي اليد بماله الوفير ، جواداً في طاعة الله ، وإعلاء شأن الاسلام .

مبايعته بالخلافة

بعد وفاة سيدنا عمر بثلاث ليال كان الناس يجتمعون في تلك الأيام الى عبد الرحمن بن عوف يشاورونه ويناجونه ، فلا يخلو به رجل ذو رأي فيعدل بعثمان أحداً . ولما جلس عبد الرحمن للمبايعة وعليه عمامته التي عمَّمه بها رسول الله ﷺ متقلداً سيفه ، ثم صعد المنبر ، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال :

أيها الناس إني سألتكم سراً وجهراً عن إمامكم ، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين : إما علي ، وإما عثمان ،

وقال لعلي : قم يا علي ، فقام علي ، فوقف تحت المنبر ، وأخذ عبد الرحمن بن عوف بيده وقال : هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ، وفعل أبي بكر وعمرو ؟ فقال علي : اللهم لا ؛ ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي ، فأرسل يده . ثم نادى : قم يا عثمان .

فقام ، فأخذ بيده وقال : أبايعك ، فهل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر ؟. فقال عثمان : اللهم نعم . فرفع رأسه الى سقف المسجد وقال :

اللّم اسمع ، قد خلعت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان . فازدحم الناس يبايعون عثمان ، وقعد عبد الرحمن مقعد النبي ﷺ من المنبر ، وقعد عثمان في الدرجة الثانية تحته ، فجعل الناس يبايعونه بالخلافة ، وذلك في مفتتح سنة ٢٤ هـ وكان سنه فوق السبعين ، وسار فيها بالعدل والانصاف .

بدء أعماله في الخلافة

ومن أعماله أنه ولي سعيد بن العاص (الكوفة) وأمره بفتح بقية بلاد العجم ، ووالاه بالامدادات حتى فتحها وشتت جيوشها ، وقتل الأحنف قائد جيش المسلمين ملكها (يزدجرد) وبقتله انتهت دولة الفرس ، واستجاب الله دعوة نبيه عليه

الصلاة والسلام حين مزق كُسرى كتابه وهي : (اللّم مزق ملكه كل ممزق) .

وبذلك استتب الاسلام في تلك البقاع ؛ ثم أمر الجيش بالمسير الى (أرمينية) ففتحها أيضاً .

ومن أعماله أنه أمر سيدنا معاوية عامله على الشام بانشاء سفن قوية عظيمة ، لتحمل جيوش المسلمين الى ما تريد من الجهات ، فكان ما أمره . وبها تمكن من فتح جزائر البحر الأبيض المتوسط كقبرص ، وكريد ، ورودس ، وغيرها .

ومن أعماله أنه أمر عبد الله بن أبي السرح الذي ولّاه على مصر بفتح طرابلس ، وأفريقية ، فسيَّر لها جيشاً تحت قيادة (الزبير بن العوام) ففتحها ، وغنم منها أموالاً كثيرة . وبذلك صارت مملكة العرب من جهة الشرق الى الهند ، ومن جهة الغرب الى المحيط الأطلسي ، ومن جهة الشمال الى البحر الأبيض المتوسط ، ومن جهة الجنوب الى بحر الهند والنوبة .

وباتصال تلك القرى بعضها ببعض عظمت الدولة ، ونمت الثروة ، ونفذت الكلمة ، وتجسمت الهيبة في قلوب الأعداء .

ومن مآثره الجميلة ترتيب الطعام في شهر رمضان لأهل المدينة ، وإقامة دور للضيافات في الكوفة .

ومن مآثره إقطاعه الأرضين التي جلا أهلها عنها للعرب ،

لكي يقيموا فيها ، ويعمروها ضناً بها أن تهمل ، وتخسر ثمرتها الدولة والناس .

ومن مآثره اتخاذ دار القضاء بعد أن كان يقام في المسجد .

ومن أعظم آثاره (رضي الله عنه وجزاه عن المسلمين خير الجزاء) أنه رتب السُّوَر القرآنية على النمط المعروف ، الذي نقرؤه الآن باجماع من الصحابة والحفاظ ، وجمع الصحف التي كانت عند حفصة في مصحف واحد ، وجمع الناس على مصحف واحد ، بعد أن تعددت القراآت واختلف فيها أهل الأمصار ، وأمر بنسخ المصاحف منه ، فكتبوا أربعة وقيل خمسة ، وأرسل لكل قطر مصحفاً ، وصار العمل على ذلك الى الآن ، وهو ما يسمى (بالمصحف العثماني) نسبة اليه رضي الله عنه .

صفات سيدنا عثمان الخلقية

كان أبيض اللون ، وقيل أسمر ، رقيق البشرة ، كثير شعر لرأس ، عظيم اللحية ، وكان ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير ، حسن الوجه ، ضخم الكراديس (جمع كردوسة وهي كل عظم تكردس اللحم عليه) بعيد ما بين المنكبين ، وكان يصفر لحيته ، ويشد أسنانه بالذهب .

عن عبد الله بن حزم المازني قال :

رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه فما رأيت قط ذكراً ولا أنثى أحسن وجهاً منه .

وكان نقش خاتمه : آمنت بالله مخلصاً .

وقيل : آمنت بالذي خلق فسوى .

صفاته الخُلقية ومناقبـــه

أدبـــه

أخرج ابن عساكر عن ابن عيينة أنه قال : قال عثمان بن عفان : ما تغنيت ، ولا تمنيت ، ولا شربت خمراً في جاهلية ولا إسلام ، ولا مَسست فرجي بيميني منذ بايعت رسول الله ﷺ .

« وقوله : ولا مَسست الخ غاية في الأدب مع الرسول ﷺ والاحترام ليده الشريفة التي مسَّ بها يده » .

ليس بعجيب صدوره عن عثمان بن عفان ، مع ما عرف به من حبِّ الرسول ﷺ واحترامه له ، وبذل ماله في سبيل مرضاته ، فرضى الله عنه وأرضاه .

تأديبه لنفسه

قيل : كان لعثمان عبد فقال له : إني كنت عركت أذنك فاقتص مني ، فأخذ بأذنه ، ثم قال عثمان : آشدد ، يا حبذا قصاص في الدنيا ، لاقصاص في الآخرة .

وهذه مكانة من كرم الأخلاق ، وخفض الجناح والتقوى ، وإعطاء الحق ، لا يبلغها إلاَّ أولئك الصحابة الكرام ، الذين تخلقوا بخلق نبيهم عليه الصلاة والسلام .

تأديبه للمسلمين

قيل : إن رجلاً من ثقيف جُلد في الشراب في خلافة عثمان بن عفان ، وكان لذلك الرجل مكان من عثمان ، ومجلس في خلوته ، فلما جُلد أراد ذلك المجلس فمنعه إياه ، وقال :

لا تعود إلى مجلسك أبداً إلاَّ ومعنا ثالث .

واختصم عثمان هو وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، فقال أبو عبيدة : يا عثمان ، تخرج على في الكلام ، وأنا أفضل منك بثلاث . فقال عثمان : وما هي ؟ قال : الأولى إني كنت يوم البيعة حاضراً وأنت غائب ، والثانية شهدت بدراً ولم تشهده ، والثالثة كنت ممن ثبت يوم أحد ، ولم تثبت أنت .

فقال عثمان : صدقت ، أما يوم البيعة فإن رسول الله ﷺ

بعثني في حاجة ومدَّ يده عني ، وقال : هذه يد عثمان بن عفان ، وكانت يده الشريفة خيراً من يدي ؛ وأما يوم بدر فإن رسول الله ﷺ استخلفني على المدينة ، ولم يمكنني مخالفته ، وكانت ابنته (رقية) مريضة ، فاشتغلت بخدمتها حتى ماتت ودفنتها .

وأما انهزامي يوم أحد ، فإن الله عفا عني ، وأضاف فعلي إلى الشيطان ، فقال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ آل عمران .

فغلبه عثمان بهذه الأجوبة السديدة .

كرمه وبذله العظيم في سبيل الله ورسوله

● يروى أنه لما أراد رسول الله ﷺ محاربة الروم في غزوة (تبوك) بين المدينة والشام ، كان المسلمون في عسر وضيق ، قد أجهدهم الحر ، ولذلك سمي جيشها (جيش العسرة) فظهر كرم عثمان ، وتبرع رضي الله عنه بتجهيز غالبه من ماله ، فجهز ألف بعير وسبعين فرساً ، وصرف عشرة آلاف دينار ، فدعا له الرسول وقال : لا يضر عثمان ما عمل بعدها ، وتبرع أيضاً أبو بكر وعمر بما قدرا عليه .

● وكانت توجد بئر بالمدينة تسمى (بئر رومة) لرجل يهودي من بني غفار لا يصلح للشرب غير مائها ، ولذا كان صاحبها يبيع منها القربة بمُد[1] فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم بعينها عين في الجنة ، فأبى لأنه لم يكن له غيرها ، ولم يكن أسلم وقتئذ ، فاشتراها منه سيدنا عثمان بعشرين ألف درهم ، ووقفها على المسلمين ، وكان رشاؤه فيها كرشاء واحد منهم ، وقد قال عليه السلام (من حفر بئر رومة فله الجنة) .

وزاد عثمان في مسجد المدينة بالحجارة ووسعه ، وكان يعتق في كل جمعة عبداً .

وبالجملة فقد كان عثمان رضي الله عنه جليل الأعمال ، كريم الخصال ، جميل الصحبة ، حريصاً على رضا النبي ﷺ ، بذولاً للمال فيما يرضيه وينفع المسلمين .

لهذا أجل النبي ﷺ قدره ، ونوّه بذكره في أحاديث كثيرة .

مثال من تصدقه ، وحبه لفعل الخير

أصاب الناس قحط في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فلما اشتد بهم الأمر جاءوا إلى أبي بكر وقالوا : يا خليفة

---

(١) المد « مكيال ، وهو رطلان عند أهل العراق ، ورطل وثلث عند أهل الحجاز ، وفي الشام صاع ونصف » .

رسول الله إن السماء لم تمطر ، والأرض لم تنبت ، وقد توقع الناس الهلاك فما نصنع ؟

فقال لهم : انصرفوا ، واصبروا ، فإني أرجو الله أن لا تمسوا حتى يفرج الله عنكم .

فلما كان آخر النهار ورد الخبر بأن عيراً لعثمان جاءت من الشام وتصبح بالمدينة . فلما جاءت خرج الناس يتلقونها ، فإذا هي ألف بعير موسوقة بُرّاً ، وزيتاً ، وزبيباً ، فأناخت بباب عثمان رضي الله عنه ، فلما جعلها في داره جاء التجار فقال لهم: ما تريدون ؟ قالوا : انك لتعلم ما نريد ، بعنا من هذا الذي وصل إليك ، فإنك تعلم ضرورة الناس ،

قال : حباً وكرامة ، كم تربحوني على شرائي ؟ قالوا : الدرهم درهمين .

قال : أعطيت أكثر من هذا .

قالوا : يا أبا عمر ما بقي في المدينة تجار غيرنا ، وما سبقنا أحد ، فمن ذا الذي أعطاك ؟

قال : إن الله أعطاني بكل درهم عشرة ، أعندكم زيادة ؟ قالوا : لا .

قال : فإني أشهد الله أني جعلت ما حملت هذه البعير صدقةً لله على المساكين والفقراء .

سياسته في رعيته

كان عثمان رضي الله عنه لين الجانب ، رؤوف القلب ، محسناً إلى الرعية ، فكان إحسانه إليهم ، ولينه معهم ، سبب إساءتهم إليه ، وافتراقهم في مذاهب الاختلاف عنه ، والدليل على ذلك ما قاله إبن عساكر في تاريخه :

لما ولي عثمان حجَّ سنواته كلها إلى آخر حجة حجها ، وحج بأزواج النبي ﷺ ، معه كما كان يصنع عمر ، فكان عبد الرحمن إبن عوف في موضعه ، وجعل في موضع نفسه سعيد بن زياد ، هذا في مؤخر القطار ، وهذا في مقدمته ، وأمر الناس ، فكتب في الأمصار أن توافيه العمال في كل موسم ، ومن يشكوهم ، وكتب إلى الناس والأمصار : أن ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، ولا يذل المؤمن نفسه ، فإني مع الضعيف عى القوى ، ما دام مظلوماً ، إن شاء الله .

فكان الناس كذلك ، فجر ذلك إلى أن اتخذه أقوام وسيلة إلى تفريق الأمة (أي بحجة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) .

وجرّت هذه السياسة ، سياسة اللين ، والرأفة ، والعدل ، على عثمان الخطر والبلاء ، والفتن ، والجرأة على الخروج على الخليفة ، وضرّاً بالخلافة .

عـــدلــه

روي أن عثمان رضي الله عنه اشترى من رجل أرضاً فأبطأ عليه ، فقال : ما منعك من قبض مالك ؟ قال : إنك غبنتني ، فما ألقى من الناس أحداً إلاّ وهو يلومني .

قال : أذلك يمنعك ؟ قال : نعم . قال : فاختر بين أرضك ومالك ثم قال : قال رسول الله ﷺ :

« أدخل الله الجنة رجلاً كان سهلاً مشترياً أو بائعاً وقاضياً مقتضياً » .

تفقده لحال رعيتـه

روي أن سيدنا عثمان كان يخرج يوم الجمعة وعليه ثوبان أصفران ، فيجلس على المنبر فيؤذن المؤذن ، وهو يتحدث يسأل الناس عن أسفارهم ، وعن أخبارهم ، وعن مرضاهم ، وهذا يدل على أنه كان دائم التفقد لحال الرعية والسؤال عنهم .

تواضعــه

كانت أخلاق سيدنا عثمان رضي الله عنه كلها فضائل ، اتشح بردائها ، وأخذ نفسه بها ، فهو من المكانة العليا من

الأخلاق البارزة ، والشيم الجميلة ، وأخصها التقوى والكرم ، والحياد ، والتواضع ، فمما جاء من أخبار تواضعه ما أخرجه إبن عساكر في تاريخه عن الحسن قال :

رأيت عثمان نائماً في المسجد ، ورداؤه تحت رأسه ، فيجيء الرجل فيجلس إليه ، ثم يجيء الرجل فيجلس إليه ، ويجيء الرجل فيجلس إليه كأنه أحدهم .

وروي عن الحسن أيضاً : أنه سُئل عن القائلة في المسجد ، فقال : رأيت عثمان بن عفان وهو يومئذ خليفة يقيل في المسجد ، ويقوم وأثر الحصا بجنبيه ، فقيل : هذا أمير المؤمنين ، هذا أمير المؤمنين .

وروي أن عثمان كان يلي وضوء الليل بنفسه ، فقيل له : لو أمرت بعض الخدم فيكفيك . قال : لا . الليل لهم يستريحون فيه .

وعن الزبير بن عبد الله قال : حدثتني جدتي أن عثمان كان لا يوقظ أحداً من أهله إذا قام في الليل إلاّ أن يجده يقظان ، فيدعوه فيتناوله الوضوء ، وكان يصوم الدهر .

حياؤه

كان عثمان رضي الله عنه مشهوراً بشدة الحياء ، وهو خلق جميل ، وأدب نفسي يزيد المرء رفعةً إذا توسطه ولم يفرط فيه .

ومما جاء من أخباره في الحياء ، ما رواه إبن عساكر قال :

ذكر عند الحسن حياء عثمان ، فقال الحسن : إن كان ليكون جوف البيت ـ والباب عليه مغلق ـ فيضع ثوبه ليفيض عليه الماء فيمنعه الحياء أن يرفع صلبه » .

كرمــه وجوده

كان عثمان رضي الله عنه أكرم الناس ، ولم ينحصر كرمه في ذوي قرابته ، بل تعداه إلى غيرهم أيضاً .

ومما يروى عن كرمه ، ما أخرجه إبن عساكر عن إبن سعيد قال :

إنطلقت وأنا غلام في الظهيرة ومعي طيراً أرسله من المسجد والمسجد بيننا ، فإذا شيخ جميل حسن الوجه ، نائم وتحت رأسه لبنة (طوبة) أو بعض لبنة ، فقمت أنظر إليه أتعجب من جماله ، ففتح عينيه فقال : مَن أنت يا غلام ؟ فأخبرته . فنادى،

غلاماً قريباً منه ، فقال لي : ادعُه فدعوته فأمره بشيء وقال : أقعد .

قال : فذهب الغلام فجاء بحُلة ، وجاء بألف درهم ، فنزع ثوبي وألبسني الحُلة ، وجعل الألف الدرهم فيها ، فرجعت إلى أبي ، فأخبرته ، فقال : يا بني من فعل هذا بك ؟ فقلت : لا أدري ، إلاّ أنه رجل في المسجد نائم ، لم أر قط أحسن منه . قال : ذلك أمير المؤمنين عثمان .

وروى إبن عساكر عن أبي اسحق السراج قال : قال لي أبو اسحاق القرشي يوماً : مَن أكرم الناس بعد رسول الله ﷺ ؟ قلت عثمان بن عفان . قال : كيف رفعت عثمان من بين الناس ؟ قلت : لأني رأيت الكرم في شيئين : في المال ، والروح ، فوجدت عثمان جاد بماله على رسول الله ﷺ ، ثم جاد بروحه على أقاربه .

قال : لله درك .

وكان لعثمان على طلحة بن عبيد الله خمسون ألفاً ، فقال له يوماً : قد تهيأ مالك فاقبضه ، قال عثمان : هو لَك معونة على مُروءتك .

هديته للنبي ﷺ

توجه سيدنا عثمان إلى بيت النبي ﷺ يسأل عنه ، فوجده خرج في طلب الرزق ، فذهب عثمان ، وبعث لهم دقيقاً وتمراً وغيره ، وكان العرب يعتمدون كثيراً على الغذاء من التمر (البلح الجاف) ؛ ثم رجع سيدنا عثمان ، وقال لأهل بيت النبي ﷺ : هذا يبطىء عليكم ، فأرسل لهم خبزاً ، ولحماً مشوياً .

فلما جاء النبي ﷺ ، وعلم بما فعله عثمان رضي الله عنه ، دعا له بخير ، وما فعله عثمان مع النبي ﷺ يعتبر هديةً ، لا صدقةً .

صلاحه وتقواه

كان سيدنا عثمان رضي الله عنه كثير التقوى والقنوت ، كثير الصلاة ، كثير قراءة القرآن ، شديد الولع به ، والاستظهار له .

روى إبن عساكر ، وأخرج عن إسرائيل بن موسى ، قال : سمعت الحسن يقول : قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، لو أن قلوبنا طهرت ، ما شبعنا من كلام ربنا ، إني أكره أن يأتي عليَّ يوم لا أنظر في المصحف .

وروى إبن عساكر من طرق كثيرة ، أن عثمان كثيراً ما رُؤ ي

في المقام يصلي من أول الليل إلى بزوغ الفجر .

الأحاديث الواردة في فضله

أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها « أن النبي ﷺ جمع ثيابه حين دخل عثمان وقال : ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة ؟ » .

وأخرج البخاري عن أبي عبد الرحمن السلمى أن عثمان حين حوصر أشرف عليهم ، فقال : أنشدكم بالله ، ولا أنشد إلاَّ أصحاب النبي ﷺ ، ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : من جَهَّز جيش العسرة فله الجنة ؟ فجهزتهم .

ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : من حفر بئر رومة فله الجنة ؟ فحفرتها . فصدقوه بما قال .

وأخرج الترمذي عن أنس والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن سمرة قال :

جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار حين جهز جيش العسرة « وهو جيش غزوة (تبوك) وسمى بذلك لأنه ندب الناس إلى الغزو في شدة القيظ فعسر ذلك عليهم » فنثرها في حجره ، فجعل رسول الله ﷺ يقلبها ويقول : ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم (قالها مرتين) .

وأخرج التُرمذي عن أنس قال : لما أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رسول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أهل مكة ، فبايع الناس ، فقال النبي ﷺ :

إن عثمان بن عفان في حاجة الله ، وحاجة رسوله ، فضرب بإحدى يديه على الأخرى ، فكانت يد رسول الله ﷺ وسلم لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم .

وأخرج إبن عساكر عن علي رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول لعثمان : لو أن لي أربعين إبنة زوجتك واحدة بعد واحدة ، حتى لا يبقى منهن واحدة .

وأخرج إبن عساكر عن زيد بن ثابت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : مرّ بي عثمان ، وعندي ملك من الملائكة ، فقال : شهيد يقتله قومه إنا نستحي منه .

وأخرج أبو يعلى عن إبن عمر « أن النبي ﷺ قال : ان الملائكة لتسْتحي من عثمان كما تستحي من الله ورسوله » .

نبذ من كتبه

كتب إلى أمراء الجنود في الثغور

أما بعد ، فإنكم حماةُ المسلمين وذادتهم (المدافعون عنهم) وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا ، بل كان عن ملأٍ منّا . ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل ، فيغير الله ما بكم ، ويستبدل بكم غيركم ، فانظروا كيف تكونون ، فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه .

كتب إلى عمال الخراج

أما بعد ، فإن الله خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل إلاّ الحقَّ ، خذوا الحق ، وأعطوا الحق ، والأمانة الأمانة ، قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يسلبها ، فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما أكتسبتم ، والوفاء الوفاء ، لا تظلموا اليتيم ، ولا المعاهد ، فإن الله خصم لمن ظلمهم .

كتب إلى العامة

أما بعد فإنكم إنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع ، فلا تلفتنّكم الدنيا عن أمركم ، فإن أمر هذه الدنيا صائر إلى الابتداع

بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامل النعم ، وبلوغ أولادكم من السبايا ، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن ، فإن رسول الله ﷺ قال : الكفر في العجمة ، فإن استعجم عليهم أمر تكلّفوا وابتدعوا .

كتب إلى عماله

أما بعد ، استعينوا على الناس ، وكلّ ما ينوبكم بالصبر والصلاة ، وأمرَ الله أقيموه ، ولا تدهنوا فيه ، وإياكم والعجلة فيما سوى ذلك ، وأرضوا من الشرِّ بأيسره ، فإن قليل الشر كثير ، واعلموا أن الذي ألّف بين القلوب هو الذي يفرّقها ، ويباعد بعضها من بعض ، سيروا سيرة قوم يريدون الله لئلا تكون لهم على الله حجة (إبن عساكر) .

وكتب إليهم

إن الله ألّف بين قلوب المسلمين على طاعته ، وقال سبحانه وتعالى :

﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ الأنفال .

وهو مفرقها على معصيته ، ولا تعجلوا على أحد بحدٍ قبل

استيجابه ، فإن الله تعالى قال :

﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ إلاَّ مَنْ تَوَلَّى وكفَرَ ﴾ الغاشية .

من كفر داويناه بدوائه ، ومن تولى عن الجماعة أنصفناه وأعطيناه حتى يقطع حجته وعذره إن شاء الله (إبن عساكر) .

نبذ من خطبه

خطبته بعدما بويع الخلافة

صعد المنبر وخطب الناس فقال : أيها الناس ، الحمد لله ، اتّقوا الله فإن الدنيا كما أخبر الله لعب ، ولهو ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الأموال والأولاد ، فخير البلاد فيها من عصم واعتصم بالله وكتابه .

وقد وكلت من أمركم لعظيم ، لا أرجو العون عليه إلاَّ من الله ، فإنه لا يوفق للخير إلاَّ هو ، وما توفيقي إلاّ بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .

أول خطبة خطبها

أما بعد ، فإني قد حُمِلتُ ، وقد قبلت ، ألا وأني متبع ، ولست بمبتدع ، ألا وان لكم عليّ بعد كتاب الله عزّ وجل ،

وسنة نبيه ﷺ ثلاثاً : اتباعَ من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم ، وسنَّ سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملأٍ ؛ والكفَّ عنكم إلاَّ فيما استوجبتم ، ألا وإن الدنيا خَضرة قد شُهيت إلى الناس ، ومال إليها كثير منهم ، فلا تركنوا إلى الدنيا ولا تثقوا بها ، فإنها ليست بثقةٍ ، واعلموا أنها غير تاركةٍ إلاَّ من تركها .

من خطبة له

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

أيها الناس ، اتقوا الله ، فإن تقوى الله غُنم ، وإنَّ أكيسَ الناس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، واكتسب من نور الله ، نوراً لظُلمة القبور ، وليخش عبد أن يحشره الله أعمى ، وقد كان بصيراً ، وقد يكفي الحكيم جوامع الكلام ، والأصم ينادي من مكان بعيد ، واعلموا أن من كان الله معه لم يخف شيئاً ، ومن كان الله عليه فمن يرجو بعده (إبن عساكر) .

وخطب مرة فقال :

إن الناس يبلغني عنهم هنات وهنات (شرور وفساد) وإني والله لا أكون أول من فتح بابها ، ولا أدار رحاها ، ألاَ وإني زامٌ نفسي بزمام ، ومُلجمها بلجام ،فأقودها بزمامها وأكبحها (أمنعها) بلجامها ، ومناولكم طرف الحبل ، فمن اتبعني

حملته على الأمر الذي يعرف ، ومن لم يتبعني ففي الله خلف منه ، وعزاء عنه .

ألاَ وان لكل نفس يوم القيامة سائقاً وشاهداً ، سائق يسوقها على أمر الله ، وشاهد يشهد عليها بعملها ، فمن كان يريد الله بشيء فليُبشر ، ومن كان آثماً يريد الدنيا فقد خسر (إبن عساكر) .

آخر خطبة له

أما بعد ، إن الله عزّ وجل إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ، ولم يُعطكموها لتركنوا إليها ، إن الدنيا تفنى ، والآخرة تبقى ، فلا تُبطرنكم الفانية ، ولا تشغلنكم عن الباقية ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى ، فإن الدنيا منقطعة ، وأن المصير إلى الله .

اتّقوا الله عز وجل ، فإن تقواه جُنَّة (وقاية) من بأسه ، ووسيلة عنده ، واحذروا من الله الغير ، والزموا جماعتكم لا تصيروا أحزاباً .

﴿ وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ كُنْتُمْ أعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخْوَاناً ﴾ آل عمران .

من كلامـــه

ما يَزع الله بالسلطانِ أكثر مما يزع بالقرآن .

الهدية من العامل إذا عزل ، مثلها منه إذا عمل .

أنتم إلى إمام فعّال ، أحوج منكم إلى إمام قوّال .

وقال يوم قتل : لأن أقتل قبل الدماء أحبُّ إليّ من أن أقتل بعد الدماء .

وفاته ، وسبب مقتله رضي الله عنه

بعد أن فتح المسلمون تلك الأقاليم ، واطمأنوا وكثرت عندهم الخيرات والأموال ، أخذوا ينقمون على الخليفة ، حيث رأى من الصالح للأمة عزل بعض الولاة فعزلهم ، وولى من فيه الكفاية من أقاربه وذوي رحمه ، فظنَّ الناس به ظنوناً وهو بريء منها ، وفشت الفتنة واستفحل أمرها ، حتى حضرت وفود من الكوفة ، والبصرة ومصر ، في وقت واحد ، طالبين تولية غير عثمان ، أو عزل من ولاهم على الأمصار .

وأخيراً استقر الحال على إجابتهم لما طلبوا من عزل بعض العمال وعلى ذلك اختار أهل مصر أن يولي عليهم (محمد بن أبي بكر الصديق) فكتب عثمان لهم بذلك عهداً ، ورحلوا من المدينة مع واليهم الجديد .

وبينما هم ذاهبون رأوا عبداً من عبيد الخليفة على راحلة من إبله يستحثها فأوقفوه وفتشوه ، فوجدوا معه كتاباً مختوماً بختم الخليفة لعبد الله إبن أبي السرح مضمونه :

(إذا قدم عليك إبن أبي بكر ومن معه فاحتل في قتلهم) .

فأخذ الكتاب ، ورجعوا إلى المدينة ، وأطلعوا الخليفة عليه ، فأقسم لهم إنه ما فعل ولا أمر ولا علم ، فقالوا : هذا أشد ، يؤخذ خاتمك ، وبعير من إبلك ، وعبد من عبيدك ، وأنت لا تعلم ، ما أنت إلاّ مغلوب على أمرك ، فطلبوا منه الاعتزال ، أو تسليم الكاتب ، فأبى ، فأجمعوا على محاصرته ، فحاصروه في داره ، ومنعوا عنه الزاد والماء أياماً عديدة ، وهاجت الثوار ، وكثر القيل والقال ، فطلب منه بعض الصحابة الإذن بالمدافعة عنه ، فلم يقبل ، ولم يأذن لأحد ، حتى أنه قال لعبيده الذين هبوا للدفاع عنه : (من أغمد منكم سيفه فهو حرّ) استسلاماً للقضاء ، فتسلق بعض الأشرار الدار ، ودخلوا عليه وقتلوه ، والمصحف بين يديه يتلو فيه سورة البقرة فنزلت قطرة من دمه على « فَسَيَكْفِيكَهُمُ الله » وكان يومئذ صائماً .

وكان ذلك في الثاني عشر من ذي الحجة سنة ٣٥ هجرية ، وعمره ٨٢ سنة ، ومدة خلافته ثلاث عشرة سنة إلاّ اثني عشر يوماً رضي الله عنه .

أولاد سيدنا عثمان رضي الله عنه

أولاد سيدنا عثمان رضي الله عنه ستة عشر : تسعة ذكور ، وسبع بنات ، وهي مذكورة في كتاب نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار ، وفي كتاب أشهر مشاهير الإسلام ، نكتفي بالإشارة إليها .

أولياتــه

أول من أقطع القطائع . وأول من حمى الحمى . وأول من خفض صوته بالتكبير . وأول من خلّق (نقش) المسجد وطلاه . وأول من أمر بالأذان الأول في الجمعة . وأول من رزق المؤذنين . وأول من أرتج عليه من الخلفاء في الخطبة . وأول من قدم الخطبة في العيد على الصلاة . وأول من فوض إلى الناس إخراج زكاتهم . وأول من ولى الخلافة في حياة أمه . وأول من اتخذ صاحب شرطة . وأول من اتخذ في الإسلام داراً للقضاء ، وقد كان الخليفتان قبله يجلسان للقضاء في المسجد . وأول من اتخذ المقصورة في المسجد . وأول ما وقع الاختلاف في زمانه بين الأمة فخطأ بعضهم بعضاً في أشياء نقموها عليه ، وكانوا قبل ذلك يختلفون في الفقه ولا يخطىء بعضهم بعضاً . وأول من هاجر إلى الله بأهله من هذه الأمة . وأول من جمع الناس على حرف واحد في القراءة .

وصيتـه

لما قتل سيدنا عثمان رضي الله عنه ، فتشوا خزائنه ، فوجدوا فيها صندوقاً مقفلاً ، ففتحوه ، فوجدوا فيه حقة ، فيها ورقة مكتوب فيها :

« هذه وصية عثمان بن عفان : يشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنّة حق ، وأن النار حق ، وأن الله يبعث مَن في القبور ، ليوم لا ريب فيه ، إن الله لا يخلف الميعاد ، عليها نحيا ، وعليها نموت ، وعليها نبعث إن شاء الله من الآمنين » .

عثمان بن عفان في كلمات

كان سيدنا عثمان بن عفان من السابقين الأولين في الإسلام ، تحمل الأذى ، وبذل الأموال الكثيرة في سبيل الدعوة إلى الدين .

وكان أكثر ليناً وتسامحاً من عمر بن الخطاب ، فكان ذلك سبباً من أسباب اتساع الفتنة المشئومة ، فقد غلبه على أمره أقاربه ، وبنوع خاص (مروان بن الحكم) فكان ذلك باعثاً على الانتقادات والتقولات ؛ ومثّبطاً لبعض كبار الصحابة عن مؤازرته والدفاع عنه .

ومما زاد ذلك توسعاً عدم كفاية بعض العمال الذين نصبهم ، فإنهم لم يحسنوا الادارة ولم يتمكنوا من منع الشغب والفساد .

وقد كانت الفتوحات في زمنه كثيرة أيضاً ؛ وإنما جاءت متممة لفتوحات عمر ، وفي زمن عثمان أنشىء أول أسطول عربي إسلامي فجمع العرب بذلك بين قوتي البحر والبر .

وفي عهد عثمان خرج كثير من كبار الصحابة ورجال العرب إلى الأقطار المفتوحة ، وأخذ العرب يسيرون في طريق العادات والحياة المدنية التي لم يكن لهم سابقة فيها .

وكان عمر يشدد في هذا الأمر ، ويحاول منع العرب عن التوسع فيه

عثمان بن عفان

قصيدة للشاعر الشيخ إسماعيل سري الدهشان

« من بعد ست لعام الفيل قد وضعت
عثمان (أروى) فيا أهـلاً بعثمان »
« حَسبي أبا عمرو ما زكاك من نسب
فأنتَ والمصطفى من نسل عَدنان »
« في ظهـر عبد منـاف أنتما غيب
وبـالشهـادة في الإسـلام إلفـان »
« فضل لأروى أبوها من قُصيّ أتى
وأمهـا عمـة المختـار فضـلان »

حرفته ، ومنزلته في قريش :

« لَـكَ التـلاد عن الآبـاء خـالِصـةً
فسـرتَ تتجر من نجـد لحـوران »
« والمـرء إن بـاركَ الـرزاق سلعتـه
فـلاتَبـابَ[1] ولا عَـوْد بخسـران »
« تجـارة في قريش شـأنهـا عَجب
وأنتَ فيهم عداها باذخ[2] الشان »

---

(1) تباب : هلاك وخسران

(2) باذخ : عظيم شأنه .

« ترعى الجوارَ وتُقرى الضيف عن كرم
يُثرى المُقل ويَكسو كلَّ عريان »
« مذلّل السمع للعافي تُعاونه
ممهد القلب تأوى كل لهفان »
« قد أغرموا بك حباً إذ رأفت بهم
والحب يجذب لم يجذب باشطان[1] »
« يُعظمونك لا خوفاً وقد وردوا
هيباً[2] فأصدرتهم ربي[3] بإحسان »
« فكل بذل قليل في محبتهم
إياك والحب لا يشرى بأثمان »
« في الجاهلية لما تلتمس قدحاً
وفي التحنف لا حاس[4] ولا زاني »
« فيك الحياء ترد الطرف هيبته
من الجلال ونور الوجه ربّاني »

---

(١) باشطان : بالتباعد عن الحق .
(٢) هيبا : حباً .
(٣) ربي : النعمة .
(٤) حاس القوم : وطئهم وأهانهم .

إسلامه

« بدعوة من أبي بكر عقدت على
حب الحنيفة العظمى بإذعان »
« صحبت طلحة في طه تبايعه
مع الزبير بتصديق وإيمان »
« فقبضة من رسول الله كان بها
بسط لكم ونبذتم دين أوثان »
« وعمك الحكم العادي عليك بما
أتيت من ترك أصنام بديان »
« يهوى رجوعك للعزى فحدت وقد
عصيته رغم كيد أي عصيان »
« فالسابقون الحوار يون أنت ومن
صحبت عشرة أشياخ وفتيان »

هجرته الأولى من أذى قريش

« من ذا يوازيك (ذا النورين) منزلة
من أهل أحمد إلاّ صهره الثاني »
« أيدته الجهد في دعواه محتملاً
أذى قريش بتسليم وتكلان »
« وحين خفت عداء القوم إذ فجروا
واستهدفوك لأحقاد وأضغان »

« هَجرت مكة مع بنت النبي إلى
أرض النجاشي لم تذعن لكفران »
« لما تحملتها طه دعا لكما
فعدتما حين لا كيد لإنسان »
« وفي صباح الهدى حمد السرى ولقد
يُنسى الأسى الطيب الرجعي لأوطان »
« وقال أحمد في زوجيك إذ قضتا
لو أن ثالثة لي يا إبن عفان »

مصير الخلافة إليه بالشورى

« قد يَمم الصحب والأنصار أفضلهم
دار بن مُخرمة والصحب قسمان »
« وباجتهاد إبن عوف بز قسمِك إذ
سعى ثلاث ليال سَعى كتمان »
« محض اجتهاد فلا ميلٌ ولا عنت
ولا مراعاة أفخاذٍ وبطنان »
« وما الخلافة إلاَّ حولها فتنٌ
والملك لله لا يبقى لإنسان »
« ما الملك في الأرض للملاَّك غير مُنى
تمر كالطيف في أوهام وسنان »

« لو شاءها المصطفى في بيته أبداً
لكـان سعيٌ علِيٌّ قبـل عثمان »
« ضلَّ الخوارج ثم الشيعة التحدث
كلاهما كـان في زيغ وطُغيـان »
« إلّا رجـالاً هـداهم ربهم رشـداً
أولاء للحق كـانـوا خـير أعـوان »

بدء أعماله في الخلافة

« يا واحد الستة الموصى بهم عمـر
والبـاذل النفس في مرضـاة رحمان »
« ولما استقر إليك الملك وانفسحت
لـك المسافـة في عـزّ وسلطان »
« زدت العطايا ووفـدت الوفـود إلى
دار الخـلافـة مـن أشتـات
« وقمت فيهم خـطيباً مُلْقياً حِكَماً
طالت على قـول لُقمان وسَحبـان »
« بعثت بـالكتب لـلأمصـار حـاملةً
هـدياً لعمـالها في حُسن تبيـان »
« فـاسـتـحـكـمـوا الـعـدل في الـذمـى وانثلجت
صـدور أولاء من هـود ونصـراني »

« فشدت للحق صرحاً غير جانبه
في كل مصر فنعم الشائد الباني »
« وخير ما جدت للإسلام من أثر
ما قد سبقت به من جمع قرآن »
« ثم التفت إلى الأمصار تلفتها
لوجه ربك عن تأليه أوثان »

انفاقه في سبيل الدين

« يَسَّرت للعسرة الشعواء غزوتها
بالخيل والعير فيها كل قرحان »
« وجئتَ بالمال في حجر النبي ولم
تكن على الملة الكبرى بمنَّان »
« ومن يعن ملة الإسلام في حرج
يَكن له الله حسباً خيرَ معوان »
« وبئر رومة قد خلَّصت ركوتها
من اليهودي تُسقي كل ظمآن »
« وكان هذا يبيع الماء من طمع
للمسلمين بمقدار وميزان »
« فكان أجرك والمختار ضامنه
عيناً من الماء في جنات رضوان »

« وزدت في مسجد المبعوث متخذاً
بديل هذا بعدن خير بنيان »
« كأن مالك مال المسلمين متى
شاءوا فلست على شيء بخزان »
فكنت عند رسول الله ناصره
يجلك العرب من قاص ومن دان

الفتنة

« وحين تم صفاء الدهر وأسفا
أتى الزمان بتكدير ونقصان »
« جنى عليك جناة ساء ظنهم
فجاء من مصر أشياع إبن حمران »
« والكوفة انتقضت والبصرة افتتنت
بمثل بشر وأتباع إبن صوحان »
« وإبن اليهودية السوداء مفسدهم
بدعوة زينت في شر آذان »
« فيمّموا البيت والشيطان قائدهم
فما رأوا ناصراً من أي عدناني »
« لكنهم في جماعات وفي عدد
والشر محتدم في كل وجدان »

« عدّوا عليك أموراً فاعتـذرت لهم
والعـذر لم يجد. ثي نـورات ضـمان »
« فأنت والشعب قد ثارت خشارته[1]
كـطالب النـور من أبصــار عميـان
هل ينفع العذر والعتب وقد حزنت »
جند العراق عن الرجعي ونجران »

الحصار

« فحاصروك وكفّوا الماء عنك عسى
تـرضى البراءة من أعبـاء سلطان »
« فكدت ترضى ولكن أين ذلك من
شيـخ على سمعـه بالـرأي ضدان »
« دسـوا عليك كتـابـاً لست كـاتبـه
أهـاج مصـر ومنـه هـاج مصـران »
« فجد جد حصـار القوم في خـطر
وأفلت الأمـر من أهـل وأخران »
« وكــان ممن وقـاك القــوم أربعــة
ببـاب دارك قامـوا خوف غشيـان »
« محــمــد ثم عـبــد الله يسـبـقــه
حــول الخليفــة للذود الحسينـان »

(١) الخشارة (الرديء من كل شيء) .

« أبعد ذلك من يرمى أمانتهم
ألاَ لقد ضل راميهم بخذلان »

القتل

« تسلقوا الدار من خلف وما حفظوا
عهداً فجادلتهم في كل برهان »

« وما ائتمرت بأمر الخلع فاتقدت
أحقادهم فرماها شر طعان »

« شلَّت يداك أيا إبن الحمق كيف ترى
ومن رميت صريعاً أيها الجاني ؟ »

« الدين والحلم والتقوى فتكت بها
والله لم ينتطح في ذاك كبشان »

« دَم الشهيد خزاك الله كيف جرى
على يديك أما تحنو على الحاني ؟ »

« أثكلت ملة إبراهيم عن سفه
وأصبح الصحب في نوح وأحزان »

سلسلة مختارات اسلامية

١ - أبو بكر الصديق
٢ - عمر بن الخطاب
٣ - عثمان بن عفان
٤ - علي بن أبي طالب
٥ - رمضانيات (١)
٦ - القدس في البال
٧ - الجيش في الإسلام
٨ - أعياد وتواريخ إسلامية
٩ - أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ - أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ - أدعية وابتهالات
١٢ - كلمات ومواقف خالدة
١٣ - تأملات في الإسلام
١٤ - رمضانيات (٢)
١٥ - معارك إسلامية (١)
١٦ - معارك إسلامية (٢)
١٧ - أحاديث رمضانية
١٨ - قصص إسلامية (١)
١٩ - قصص إسلامية (٢)
٢٠ - الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ - الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ - التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ - التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ - من قاموس الصائم
٢٥ - من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ - من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ - من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ - ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ - ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ - ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

علي بن أبي طالب

رابع الخلفاء الراشدين

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

علي بن أبي طالب

الناشر: دار الفكر اللبناني
تلفون: ٢٣٧٠٩٥ - ٢٥٦٤١٨ - ٢٥٥٥٤٩
تلكس: ٢٣٦٤٨ - ص.ب ٤٦٩٩ - بيروت - لبنان



علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه

هو أبو الحسن علي بن أبي طالب ، بن عبد المطّلب ، بن هاشم ، إبن عبد مناف ، بن قصيّ ؛ فهو إبن عم رسول الله ﷺ ، وأمه فاطمة بنت أسد ، بن هاشم ، بن عبد مناف ، وكان عليٌّ أصغر بنيها ، وهي أول هاشمية ولدت هاشمياً ، فهو أول خليفة أبواه هاشميان .

وكنّاه عليه السلام أبا تراب وذلك أنه وجده نائماً في المسجد قد سقط عنه رداؤه ، وأصاب التراب جسده ، فجاء حتى جلس عند رأسه وأيقظه ، وجعل يمسح التراب عن ظهره ، ويقول له : أجلس إنما أنت أبو تراب .

فكانت من أحب كناه إليه ، وكان يفرح إذا دعى بها .

وكان إسمه الأول الذي سمته به أمه حَيدرة باسم أبيها أسد بن هاشم والحيدرة الأسد ، فغير أبوه اسمه وسماه عليًّا .

نشأته

ولد بمكة داخل البيت الحرام في السنة الثانية والثلاثين من ميلاد النبي ﷺ وشب في بيت رسول الله ﷺ متحلّياً بمكارم الأخلاق ، مقتدياً به في أقواله وأفعاله ، فنشأ عفَّ اللسان ، قوي العزيمة ، طاهر العقيدة ، لم يتدنس بدنس الجاهلية ، ولم يعبد وثناً قط ، ولم يسجد لصنم ، ولذا قيل : علي كرّم الله وجهه .

ولما بُعث رسول الله ﷺ كان عليّ أول صبي أسلم وسنه ثمان سنين .

ولما بلغ مرتبة الرجال ، كان بحراً لا يُدرك غوره في الحلم والحكمة ، راسخ الإيمان ، سخياً جواداً ، يتصدق على الفقراء مع ضيق حاله ، أبي النفس ، شديداً على الكفار ، رحيماً على المؤمنين .

زواجه

تزوج بالسيدة فاطمة بنت الرسول ﷺ في السنة الثانية من الهجرة ، وسنها خمس عشرة سنة ، ورزق منها بالحسن ، والحسين ، وزينب ، رضي الله عنهم أجمعين ، وكان خطيباً مفوهاً ، يستولي بفصاحته على النفوس ، وكان ممن يكتبون الوحي للنبي ﷺ ، وقد قال له النبي ﷺ عندما آخى بين

المهاجرين والأنصار: « أنت أخي في الدنيا والآخرة » .

شجاعته وأخلاقه

شجاعته وإخلاصه للنبي ﷺ - في الليلة التي اعتزم فيها الكفار قتل النبي عليه الصلاة والسلام أمره الرسول أن يبيت في مكانه ، تضليلاً للكفار ، وخرج هو مع أبي بكر مهاجرين إلى المدينة ، فامتثل عليّ أمره ، وفداه بنفسه ، ونام في فراشه ، غير هيَّاب ولا وجل ، فلما دخلوا عرفوه ، وأدركوا أن النبي قد فاتهم ، وأخفقت مكيدتهم .

وقد شهد على مع الرسول ﷺ الغزوات كلها إلاَّ غزوة تبوك لأن النبي ﷺ استخلفه على المدينة ، فلما أسف على ذلك ، قال له النبي ﷺ : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى .

وكان له الآثار المحمودة ، والمواقف المشهودة ، في الغزوات ، وهو الشجاع الذي لا يصد ، والقوي الذي لا يرد ، وكان الأبطال يتفاءلون باسمه ، فكانوا يكتبونه على سيوفهم ، كأنما هو آية النصر والفوز ، ولذا سموه « سيف الله المسلول » .

أوليائه

انه أول المبارزين يوم بدر ـ وأول الثابتين يوم أحد ـ وأول الفاتحين يوم خيبر ـ وأول السابقين يوم فتح مكة .

ولـمّا توفي رسول الله ﷺ وبويع أبو بكر بايعه علي مع أنه كان يرى له حقاً في الخلافة لقرابته من رسول الله ﷺ ؛ ولكنه كان يكره الخلاف .

ولما ولي عمر بايعه عليّ كذلك ، وزوجه بنته أم كلثوم ، وكثيراً ما كان عمر يستخلفه على المدينة إذا غاب عنها .

ولما بويع عثمان بايعه أيضاً ، حتى كان آخر خلافته ، وقام عليه الثوار ، وشنعوا عليه بتوليته أقاربه ، كان علي كثيراً ما يمحص له النصح ، ويرشده إلى ما فيه النجاح والفلاح .

خلافته

بعد موت سيدنا عثمان رضي الله عنه اختلف الناس في أمر الخلافة ، وتحزبوا أحزاباً ، غير أن الحزب الأقوى كان مع سيدنا علي لتزكيته من أكابر الأنصار والمهاجرين وغالب الصحابة المعتبرين . فلما ذهبوا لمبايعته امتنع وقال لهم : « أكون وزيراً لكم خير من أن أكون أميراً ، ومن اخترتم رضيته فأنا مستقبلون أمراً له وجوه ، وله ألوان لا تقوم به القلوب ، ولا تثبت عليه العقول » .

فناشدوه الله والدين ، وألحوا عليه وقالوا : لا نعلم أحق منك ، ولا نختار غيرك ، فأبى ، فخوفوه الله في مراقبة الإسلام حتى غلبوه في ذلك فقال : قد أجبتكم ، فبويع له بالخلافة لخمس بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين هجرية ، وما تخلف عن مبايعته إلاّ نفر قليل ، منهم مروان ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد ، وعبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، والمغيرة بن شعبة ، وعبد الله بن سلام ، وقدامة بن مظعون ، وأبي سعيد الخدري ، وكعب بن مالك ، والنعمان بن بشير ، وحسان بن ثابت ، وغيرهم من بني أمية ، ولحقوا بالشام عند معاوية ، ومعهم قميص سيدنا عثمان ليطالبوا بدمه ، مع أن سيدنا علياً أخذ يسأل عن قاتله ، ويبحث ، فلم يهتد إلى الحقيقة .

ولما دخل عليّ الكوفة دخل عليه رجل من حكماء العرب فقال :

والله يا أمير المؤمنين لقد زينت الخلافة وما زانتك ، ورفعتها وما رفعتك ، وهي كانت أحوج إليك منك إليها .

أعماله في الخلافة

بدأ أعماله في الخلافة بتغيير بعض الولاة خصوصاً من كانوا سبباً في الخروج على عثمان ، ثم أخذ يرتب حكومته على ما

يرى فيه الصالح وهدوء الخاطر ، فلم يلبث أن خرج عليه طلحة وإبن عوام ، ولحقا بعائشة زوج الرسول ﷺ ، وحرضاها على المطالبة بدم عثمان ، فانضم إليهم خلق كثير ، وساروا بنحو ثلاثين ألف مقاتل إلى البَصرة ، وحاربوا واليها ، حتى هزموه وقبضوا عليه ، فلما علم سيدنا علي بذلك سار إليهم في عشرة آلاف رجل وحاربهم محاربة عنيفة أسفرت عن حزيمتهم ، وعن قتل طلحة وإبن العوام .

وكانت عائشة إذ ذاك راكبة في هودجها على جمل ، فسميت هذه الواقعةَ واقعة الجمل وعند انقضاء الحرب قابلها سيدنا علي وأكرمها وردّها معززة إلى المدينة .

ومن أعماله أيضاً أنه ترك المدينة ، واتخذ الكوفة مقراً لحكومته ، وأرسل لمعاوية بن أبي سفيان يدعوه إلى الطاعة ، والدخول فيما دخل الناس فيه ، ويقطع طمعه في الخلافة . فامتنع معاوية وقال : حتى تقتل قاتل عثمان ، ويختار المسلمون لهم إماماً .

وبعد مكاتبات كثيرة بينهما في هذا الشأن دعا معاوية نفسه بأمير المؤمنين واستعد للمحاربة .

حروبه

حين علم سيدنا عليّ كرّم الله وجهه بذلك أخذ جيشه وسار

لمحاربته بالشام ، فاجتمع الجيشان في جهة صفين (موضع في العراق بشاطىء نهر الفرات) وسميت هذه الواقعة (بواقعة صفين) .

وحينئذ طلب سيدنا عليّ من معاوية المبايعة والرجوع عن الحرب ، فأبى وأصرّ كل منهما على مطلوبه متحققاً أنه الصالح للأمة ، فنشبت الحرب بينهما بقوة وشدة مدة طويلة حتى ظهرت السآمة والضعف في جيش معاوية .

فلما رأى ذلك عزم على الفرار ، فأشار عليه عمرو بن العاص ، برفع المصاحف على أطراف الرماح ، فرفعوها طالبينَ العمل بما فيها من التحكيم ، فقبل سيدنا علي ذلك ، واختار أهل الشام عَمرو بن العاص نائباً عنهم ، واختار أهل العراق أبا موسى الأشعري وكتبوا عهداً بذلك ، وبأن الاجتماع يكون بدومة الجنْدل وهي قرية بين الشام والمدينة في يوم معلوم .

ثم رجع عليّ إلى الكوفة ، ومعاوية إلى الشام ، وفي الموعد اجتمع الحكمان وكثير من الناس ، وتفاوضا في الأمر أياماً ، وكل منهما حريص على صاحبه ، إلى أن اتفقا على أن كل واحد منهما يخلع صاحبه ، والمسلمون يبايعون من يشاؤ ون .

فقام في الناس أبو موسى الأشعري خطيباً وقال : قد اتفقت أنا وصاحبي هذا عمرو بن العاص على أمر نرجو به صلاح هذه الأمة ، وهو أن يخلع كل منا صاحبه ، ثم يختار المسلمون خليفة لهم ، وها أنا قد خلعت عليّاً ومعاوية كما أخلع سيفي هذا وأخرجه من غمده .

ثم قام عمرو بن العاص شاهراً سيفه ، وقال : أيها الناس إن صاحبي هذا الأشعري قد قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه عليّاً ، وأنا مُصدق على خلعه أيضاً ؛ ولكني أثبت صاحبي معاوية ، كما أثبت سيفي هذا وأدخله في قرابه ونزل ، فصاحت الناس ، حكم الحكمان بغير مافي كتاب الله .

وعلى ذلك انتهى الأمر ، وانصرف أهل الشام مع عمرو يهنئون معاوية بالخلافة ، وانصرف أبو موسى ، ولحق بمكة حياءً من الناس ؛ ولكن هذه الحيلة لم تكن حاسمة للأمر ، بل بقي كل على ما كان عليه ، وجرت أمور ليس هنا محل ذكرها .

وفاته وسبب مقتله

بناء على ما تقدم صارت الدولة الإسلامية حزبين متضادين ، غير أن الفتنة فشت في حزب سيدنا علي ، واستطار شررها ما بين خوارج عليه ، وشيعته ، ومحاربين معه ، ومقاتلين لأجله ، حتى كثر النزاع ، وانتشر النفاق ، واختلف

الناس ، وتفرقت قلوبهم ، ولذا لما سأله بعضهم بقوله : كيف تختلف الناس عليك ، ولم تختلف على أبي بكر وعمر ؟ قال : إنهما كانا واليين على مثلي ، وأنا اليوم والٍ على مثلك . فأخذ سيدنا علي كرّم الله وجهه في إطفاء تلك الفتنة ، ولكن كان كلما أطفأ واحدة قامت أخرى ، حتى سئم الحياة ، وصار يستغيث بالله ، ويطلب اللحاق بمن سبقه ، فاجتمع بعض الخوارج وطلبوا قتل علي ومعاوية وعَمرو بن العاص ؛ فتعهد بقتل الامام « عبد الرحمن بن مُلجم المرادي » وبقتل معاوية « البَرك بن عبد الله التميمي » ويقتل عَمرو « عمرو بن بكر التميمي » .

واتفقوا على تنفيذ ذلك كله في فجر الجمعة ١٧ من شهر رمضان سنة ٤٠ من الهجرة . فأما البَرك فذهب إلى معاوية وانتظره حتى ضربه في صلاة الصبح ضربة لم تمته ، وأمر به معاوية فقتل .

وأما عَمرو بن بكر فذهب إلى عَمرو بن العاص بمصر فلم يخرج تلك الليلة لعذر ، وأناب عنه رجلاً يدعى « خارجة بن حبيب » فضربه الخارجي زاعماً انه عَمرو بن العاص فقبض عليه وقتل ، وعلى ذلك جاء المثل المشهور (أراد عَمراً ، وأراد الله خارجة) .

وأما إبن مُلجم فأتى الكوفة وانتظر علياً حتى سمعه ينادي

للصلاة فضربه بسيفه المسموم قائلاً (الحكم لله لا لك يا علي ، ولا لأصحابك) .

فقال علي : قتلني الرجل ، لا يفوتنكم ، فلما قبضوا عليه ، قال أمير المؤمنين علي كرّم الله وجهه : النفس بالنفس ، إن هلكت فاقتلوه ، ولا تمثلوا به ، وإن بقيت رأيت فيه رأيي يا بني عبد المطلب ، ثم قتلوا الرجل بعد موت أمير المؤمنين علي كرّم الله وجهه ، وكان عمره إذ ذاك ٦٣ سنة ، ومدة خلافته خمس سنين إلّا ثلاثة أشهر ، ودفن في بلدة تسمى بالنجف في بلاد العجم .

أولاده

قد اختلف الناس في عدد أولاده ، فمنهم من أكثر ، ومنهم من أقل ، ففي كتاب الأنوار لأبي القاسم إسماعيل أن أولاده ٣٢ اثنان وثلاثون ، ستة عشر ذكراً ، وست عشرة أنثى

وفي بغية الطالب : أولاده رضي الله عنه ٣٣ ثلاثة وثلاثون ، خمسة عشر ذكراً ، وثمان عشرة أنثى بالاتفاق .

أما الذكور فهم : الحسن ، والحسين ، ومحسن ، ﴿ وأمهم فاطمة الزهراء البتول بنت الرسول ﷺ ﴾ ومحمد الأكبر (أمه خولة بنت جعفر بن قيس الحنفية) وعبيد الله ،

وأبو بكر (أمهما ليلى بنت مسعود) والعباس الأكبر ، ويلقب بالسقاء ، وعثمان ، وجعفر ، وعبد الله (أمهم بنت حزام) ومحمد الأصغر (أمه أم ولد) ويحيى ، وعوف (أمهما أسماء بنت عميس) وعمر الأكبر (أمه أم حبيب) ومحمد الأوسط (أمه إمامة بنت أبي العاص) والجميع مذكورون في كتاب نور الأبصار .

* * *

وأما البنات فهن : أم كلثوم الكبرى زوجة عمر بن الخطاب ، ورُقية ، وزينب الكبرى ، شقيقة الحسن والحسين ، ورُقية ، شقيقة عمر الأكبر ، وأم الحسن ، ورملة الكبرى (أمهما أم سعد) وأم هانىء ، وميمونة ، ورملة الصغرى ، وزينب الصغرى ، وفاطمة وامامة ، وخديجة ، وأم الخير ، وأم سلمة ، وأم جعفر ، وجمانة ، وتقية .

وجميعهن مذكورات في كتاب نور الأبصار .

وصف الإمام

كفى بشهادة الرسول ﷺ بأنه باب مدينة العلم دليلاً على مكنون السرِّ الذي فيه .

فهو أول في العلوم ، أول في الشجاعة ، وأول في السخاء ، أول في الحلم والصفح ، أول في الفصاحة ، أول

في الزهد ، أول في العبادة ، أول في التدبير والسياسة ، أشد الناس رأياً ، وأصحهم تدبيراً ، لولا تقاه لكان أدهى العرب ؛ كأنما أفرغ في كل قلب ، فهو محبوب إلى كل نفس ، ظهر من حجاب العظمة بمعاليه ، فاستولى الاضطراب على الأذهان والمدارك ، وذهب الناس فيه مذاهب خرجت بهم عن حدود العقل والشريعة ، أهل الذمة تحبه ، والفلاسفة تعظمه ، وملوك الروم تصوره في بيوتها وبيعها ، ورؤساء الجيوش تكتب إسمه على سيوفها كأنما هو فأل الخير ، وآية النصر والظفر .

وسأل معاوية إبن عباس أن يصف له علياً فقال :

كان أمير المؤمنين ، رضوان الله عليه ، غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، يدنينا إذا أتيناه ، ويجيبنا إذا دعوناه ، وكان مع تقربته إيانا وقربه منا لا نبدأه بالكلام حتى يبتسم ، فإذا هو تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، أما والله يا معاوية لقد رأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، وهو قابض على لحيته يبكي ، ويتململ تململ السليم وهو يقول :

يا دنيا إياي تغرين ؟ أمثلي تشوقين ؟ لا حان حينك ، بل زال زوالك ، قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها ، فعيشك حقير ، وعمرك قصير ، وخطرك يسير ، آه آه من بعد السفر ، ووحشة الطريق ، وقلة الزاد ! قال :

فأجهش ومن معه بالبكاء : (وقيل أن هذا مرويّ عن ضرار الصدائي) .

صفاته ومناقبه

صفاته الخَلقية : كان علي كرم الله وجهه ، شديد الأدمة ، ثقيل العينين عظيمهما ، أقرب إلى القصر من الطول ، ذا بطن كثير الشعر ، عريض اللحية ، أصلع ، أبيض الرأس واللحية .

صفاته الخُلقية :

شجاعته : علاوة على ما سبق ذكره من شجاعته ، وإخلاصه للنبي عليه الصلاة والسلام نقول :

كان لعي كرم الله وجهه في الحرب مواقف مشهودة يضرب بها الأمثال ، فهو الشجاع الذي ما فرط قط ، ولا ارتاع من كتيبة ، ولا بارز أحداً إلاّ قتله .

وقد شهد الغزوات كلها مع النبي ﷺ إلاّ غزوة (تبوك) فقد خلفه على أهله حين خرج لقتال الروم في جيش جرار : وأبلى عليٌّ في نصرة رسول الله ما لم يبله أحد .

وكان رضي الله عنه قوياً جداً ، فهو الذي قلع باب خيبر واجتمع عليه عصبة من الناس ليقلبوه فلم يقدروا . قال

جابر بن عبد الله : حمل عليٌّ الباب على ظهره يوم خيبر حتى صعد المسلمون عليه ففتحوها ، وأنهم جرُّوه بعد ذلك فلم يحمله إلاّ أربعون رجلاً (أخرجه إبن عساكر) .

وهو الذي اقتلع هُبَل « صنم كبير كانت قريش تعبده » من أعلى الكعبة ، وكان عظيماً كبيراً فألقاه على الأرض .

حلمه وعفوهُ

كان رضي الله عنه أحلم الناس عن مذنب ، وأصفحهم عن مسيء ، يشهد بذلك أنه ظفر يوم واقعة الجمل بمروان بن الحكم ، وكان أعدى الناس له ، وأشدهم بغضاً ، فصفح عنه وكان عبد الله بن الزبير يشتمه ويسبه على رؤوس الأشهاد ، وخطب يوم البصرة فقال : قد أتاكم الوغد (اللئيم) علي بن أبي طالب ، فظفر به يوم الجمل فأخذه أسيراً وصفح عنه ، وقال له : إذهب فلا أرينك ، ولَم يزده على ذلك . وظفر بسعيد بن العاص بعد واقعة الجمل بمكة ، وكان له عدواً ، فأعرض عنه ، ولم يقل شيئاً ، وتمت له الغلبة على السيدة عائشة رضي الله عنها يوم الجمل ، فكانت عاقبة أمرها معه أن جهزها بكل ما ينبغي لها من مركب وزاد ومتاع ، واختار لها أربعين أمرأة من نساء أهل البصرة المعروفات ، وردها إلى المدينة مكرمة محترمة ، وحاربه أهل البصرة وسبوه ، ولعنوه ، فلما ظفر بهم رفع السيف عنهم .

ولما ملك عسكر معاوية عليه الماء ، وأحاطوا بشريعة الفرات ، وقال رؤساء الشام له : اقتلهم بالعطش كما قتلوا عثمان عطشاً ، سألهم علي وأصحابه أن يسوغوا له شرب الماء ، فقالوا : لا والله ، ولا قطرة حتى تموت ظمأً كما مات عثمان بن عفان .

فلما رأى أن الموت لا محالة منه تقدم بأصحابه ، وهجم على عسكر معاوية حملات كثيفة ، حتى أزالهم عن مراكزهم ، بعد قتل ذريع ، وملكوا عليهم الماء ، وصار أصحاب معاوية في الفلاة بلا ماء ، فقال له أصحابه وشيعته : إمنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك ولا تسقهم قطرة ، واقتلهم بسيوف العطش ، وخذهم قبضاً بالأيدي فلا حاجة لك إلى الحرب .

فقال رضي الله عنه : لا والله لا أكافئهم بمثل فعلهم ، افسحوا لهم عن بعض الشريعة ، ففي حد السيف ما يغني عن ذلك .

تواضعه

كان يواسي الضعفاء ، ويجالس الفقراء ، ويساعدهم ، وكان يشتري طعامه بنفسه ويحمله ، فإذا أراد أحد أتباعه حمله عنه ، قال : أبو العيال أحق بحمله ، ولنضرب لكم مثلاً من تواضعه .

حكي سيدنا علي عن نفسه قال : جعت بالمدينة جوعاً شديداً فخرجت أطلب العمل في عوالي المدينة موضع قريب من المدينة فإذا أنا بأمرأة قد جمعت مدراً (حصى) فظننتها تريد بلّة لتعمله طيناً ، هي في حاجة إليه ، فأتيتها فعاطيتها كل دلو بتمرة ، فمددت ستة عشر ذنوباً دلواً حتى محلت يدي . ثم أتيتها فقلت بكلتا يدي : هكذا بين يديها وبسط يديه جميعاً فعدّت لي ست عشرة تمرة ، فأتيت النبي ﷺ ، فأخبرته فأكل معي ، وقال لي خيراً ، ودعا لي .

فانظروا إلى أي حد تواضع سيدنا علي حتى اشتغل للمرأة بالأجر وكيف خدمها ؟ ولم يعتمد على أحد في الحصول على التمر منها ، لعلمه أن الانسان ينبغي ألاّ يأكل إلاّ من عرق جبينه ، وأن يجتهد في العمل للحصول على نفقاته .

عبادته وتقواه

كان رضي الله عنه ، أول من آمن من الصبيان ، فلم يتورط فيما تورطت فيه قريش من العكوف على عبادة الأوثان ، ولم يسجد لصنم قط ، ولذا يدعى له وكرم الله وجهه كما تقدم وأقبل على عبادة ربه بقلب يملؤه الإيمان الخالص ، ويعمره الولاء المحض ، فكان إماماً في العبادة ، والورع ، والتقوى .

زهده

وكان رضي الله عنه سيد الزهّاد في الدنيا ، الجانحين عن الاغترار بزخارفها ، والانخداع بباطلها ، وكان أخشن الناس مأكلاً وملبساً ، طلق الدنيا ، وكانت الأموال تجيء إليه من جميع بلاد الإسلام .

حدثنا أبو حاتم قال : حدثنا الأصمعي قال :

لما أتى علي عليه السلام بالمال أقعد بين يديه الوزان والنقاد ، فكوّم كومة من ذهب ، وكومة من فضة ، وقال : يا حمراء ،. ويا بيضاء ، احمري وابيضي ، وغُرّي غيري ، وأنشد :

« هــذا جَـنَــايَ وخيــارُه فيــه
إذ كــل جــانٍ يــدُه إلى فيــه »

رأيه وتدبيره

كان رضي الله عنه، من أحسن الناس رأياً ، وأصحهم تدبيراً ، يفزع إلى مشورته الخلفاء إذا أشكل عليهم الأمر ؛ ألا ترى أن عمر بن الخطاب ، وقد عزم أن يتوجه بنفسه لغزو الفرس ، استشار الإمام علياً ، لما يعرفه من حصافة رأيه ، وثقوب فكره ، فأشار عليه بالرأي السديد ، وكان ما قاله له : إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه ، بكثرة ولا قلة ، وهو

دين الله الذي أظهره ، وجنده الذي أعده ، وأمده حتى بلغ ما بلغ ، وطلع حينما طلع ، ونحن على موعود من الله ، والله منجز وعده ، وناصر جنده .

والعرب اليوم ، وإن كانوا قليلاً ، فهم كثيرون بالإسلام ، عزيزون بالاجتماع . فكن قطباً ، واستدر الرحى بالعرب ، وأصلهمْ دونك نار الحرب الخ .

ولقد أشار على سيدنا عثمان بأمور كان فيها خلاصة ، ولو قبلها لم يحدث له ما حدث .

يأسه

كان رضي الله عنه صَلباً في الحق ، لا تلين قناته هوادة ، ولا تأخذه فيه مراعاة ، وهو يربأ بنفسه أن يستوي الأفئدة بالمداجاة والمقاربة ، وبذل العطاء ، كما كان يفعل سواه ، ثم هو يرى أن حيدته عن خطته تلك تنكب عن منهاج الشرع القويم ، وانتقاص لدينه ، وكان من جراء ذلك أن انفض من حوله أمسُّ الناس رحماً به ، كأخيه عقيل ، وإبن عمه عبد الله بن عباس ، وكان مسلكه ذلك أحد أسباب إخفاقه ولنذكر مثلاً يؤيد ذلك :

رووا أن عقيلاً لزمه دين ؛ فقدم عَلَى عليٍّ بالكوفة فأنزله وأمر ابنه الحسن ، فكساه ، فلما أمسى دعا بعشائه ، فإذا هو

خبز وملح ، وبقل ، فقال عقيل : ما هو إلاّ ما أرى ؟

قال : لا . قال : فتقضي ديني . قال : وكم دينك ؟ قال : أربعون ألفاً ، قال : ما هي عندي . ولكن اصبر حتى يخرج عطائي فإنه أربعة آلاف فأدفعه إليك ، فقال : بيوت المال بيدك ، وأنت تسوفني بعطائك قال : أتأمرني أن أدفع إليك أموال المسلمين ، وقد ائتمنوني عليها ؟ قال : فإني آت معاوية . فأذن له ، فأتى معاوية وكان معاوية زوج خالته فاطمة بنت عتبة بن ربيعة .

غاضب عقيل أخاه ، وهجره إلى معاوية ، فأكرمه وقربه ، وقضى حوائجه ، وأدى عنه دينه ، وقد قال له معاوية يوماً : هذا أبو يزيد ، لولا أنه علم أني خير له من أخيه لما أقام عندنا وتركه ، فقال له عقيل : أخي خير لي في ديني ، وأنت خير لي في دنياي ، وقد آثرت دنياي ، أسأل الله خاتمة خير . وقال له معاوية : أبا يزيد ، أنا لك خير من أخيك علي . قال : صدقت ، إن أخي آثر دينه على دنياه ، وأنت آثرت دنياك على دينك ، فأنت خير من أخي ، وأخي خير لنفسه منك .

تصدقه وإحسانه

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : صليت مع رسول الله ﷺ يوماً من الأيام الظهر ، فسأل سائل في المسجد ، فلم

يُعطه أحد شيئاً ، فرفع السائل يديه إلى السماء ، وقال : اللَّهم أشهد ، إني سألت في مسجد نبيك محمد ﷺ فلم يُعطني أحد شيئاً ، وكان علي رضي الله عنه في الصلاة راكعاً ، فأومأ إليه بخنصره اليمنى ، وفيه خاتم من فضة ، فأقبل السائل ، فأخذ الخاتم من خنصره ، وذلك بمرأى من النبي ﷺ ، وهو في المسجد ، فرفع رسول الله ﷺ طرفه إلى السماء ، وقال : اللَّهم إنَّ أخي موسى سألك فقال :

﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي واجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ طه . (فأنزلت عليه قرآناً) .

﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ القصص .

اللَّهم وإني محمد نبيك وصفيك ، اللَّهم إشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أشدد به ظهري .

قال أبو ذر رضي الله عنه : فما استتم دعاءه حتى نزل جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل وقال : يا محمد اقرأ ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ

الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ المَائدة . (نقَلها أبو اسحق أحمد البقلي في تفسيره) .

ونقل الواحدي في تفسيره يرفعه بسنده إلى إبن عباس رضي الله عنهما قال : كان مع علي رضي الله عنه أربعة دراهم لا يملك غيرها فتصدق بدرهم ليلاً ، وبدرهم نهاراً ، وبدرهم سرّاً ، وبدرهم علانيةً ، فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ باللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ولاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحزَنُونَ ﴾ البقرة .

وعن إبن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات أُولَئِك هُمْ خَيْرُ الْبرِيَّةِ ﴾ البينة .

قال النبي ﷺ لعلي : أنت وشيعتك تأتي يوم القيامة أنت وهم راضين مرضيين ، ويأتي أعداؤك غضاباً مقمحين .

من مآثره

حصل لسيدنا علي رضي الله عنه وأهله جوع ، فأخذ من يهودي صوفاً لتغزله السيدة فاطمة زوجته بالأجر ، ثم اشترى بأجرها ثلاثة أقداح من الشعير ، وفي اليوم طحنوا قدحاً وخبزوه أقراصاً ، ومن عادة العرب أن يطحنوا ويخبزوا في ساعة واحدة .

فلما أرادوا الأكل طرق بابهم مسكين وقال : السلام عليكم يا أهل بيت النبوة . أنا مسكين من مساكين أمة محمد ﷺ ، أطعموني شيئاً لله ، فأعطوه الأقراص .

وفي ثاني يوم جاءهم يتيم وقال مثل ذلك ، وفي ثالث يوم جاءهم أسير وقال لهم مثل ذلك أيضاً ، ثم باتوا على الماء (أي لم يأكلوا شيئاً) بل كانوا يشربون الماء فقط ، فجاع سيدنا الحسن والحسين جوعاً شديداً فخرج سيدنا علي إلى النبي ﷺ وأخبره بذلك ، فأعطاه سُلَّة وقال له : إذهب بها إلى تلك النخلة ، فرزقهم الله تعالى رطباً جنياً ، فأكلوا حتى شبعوا وفيهم يقول الله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ الدهر .

علمـه

أما علمه كرّم الله وجهه ، فمما لا جدال فيه ، يشهد بذلك قوله ﷺ أنا مدينة العلم وعلي بابها وهذا حديث حسن أخرجه الترمذي ، وتشهد بذلك آثاره من وعظ ، وخطب ، ونثر ، ونظم ، وبدائع وحكم ، كلها مدونة في كتبه المشهورة المنشورة بين الأمم مثل نهج البلاغة وغيره .

وهو أول من ابتدع علم النحو وأنشأه ، وأملى على أبي الأسود الدؤلي قواعده وأصوله ، وقال له أنح هذا النحو يا

أبا الأسود ، وكان أفصح الفصحاء ، وأبلغ البلغاء ، وأخطب الخطباء .

وكان رضي الله عنه أبرع الصحابة في علوم الدين ، إماماً ثَبتاً في الفقه والتفسير ، حجة في الفتوى ، وليس أدل على ذلك من أن عمر إبن الخطاب رضي الله عنه رجع إليه في كثير من المسائل التي أشكلت عليه وعلى غيره من الصحابة ، وقال غير مرة : لولا علي لَهلك عمر ، وقال : لا يفتين أحد في المسجد وعليٌّ حاضر ، وقال : اللّهم لا تبقني لمعضلة ليس لها أبو الحسن ، والدليل على ذلك القصة الآتية التي تدل على حذقه وعلمه :

روى أن رجلاً أتى به إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان صدر منه أن قال لجماعة من الناس وقد سألوه ، كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت أحب الفتنة ، وأكره الحق ، وأصدق اليهود والنصارى ، وأؤمن بمن لا أدري ، وأقر بما لم يُخلق .

فأرسل عمر إلى علي رضي الله عنهما : فلما جاءه وأخبره بمقالة الرجل فقال : صدق .

١ ـ يحب الفتنة لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُم وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ التغابن .

٢ ـ ويكره الحق ، يعني الموت لقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ ق .

٣ ـ ويصدق اليهود والنصارى لقوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ البقرة .

٤ ـ ويؤمن بما لم يره ، أي يؤمن الله عز وجل .

٥ ـ ويقر بما لم يُخلق يعني الساعة .

فقال عمر رضي الله عنه : أعوذ بالله من معضلة لا علي بها .

حكمه وقضاؤه

قال علي رضي الله عنه : بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقلت : يا رسول الله بعثتني وأنا شاب أقضي بينهم ، ولا أدري ما القضاء ؟ فضرب صدري ثم قال : اللّهم أهد قلبه ، وثبت لسانه ، فوالذي فلق الحبة ، ما شككت في قضاء بين اثنين .

وقال عليه الصلاة والسلام : أقضاكم علي .

والسبب في ذلك ما روي أن النبي ﷺ كان جالساً مع جماعة من الصحابة فجاءه خصمان ، فقال أحدهما : يا رسول الله إن لي حماراً ، وإن لهذا بقرة ، وإن بقرته قتلت حماري .

فبدأ رجل من الحاضرين ، فقال : لا ضمان على البهائم .

فقال ﷺ : اقض بينهما يا علي .

فقال علي لهما : هل كانا مرسلين أم مشدودين ؟ أم أحدهما مشدود والآخر مرسل ؟

فقالا : كان الحمار مشدوداً ، والبقرة مرسلة ، وصاحبها معها .

فقال علي : على صاحب البقرة ضمان الحمار .

فأقر ﷺ حكمه ، وأمضى قضاءه .

شفقه وعدله

يحكى أن سيدنا علياً جاء إلى أصحاب التمر ، فوجد جارية تبكي عند التمار وكان الخليفة وقتئذ فلما رأى هذه الجارية تبكي أراد أن يعلم سبب بكائها ، فجاء إليها وقال لها : ما شأنك ؟ فقالت الجارية : باعني التمار بدرهم ، فردّه مولاي (سيدي) ولم يقبله . فقال سيدنا علي : يا صاحب التمر خذ تمرك وأعطها درهم فإنها خادم ، وليس لها أمر (يريد أن البيع لا يلزمها لأن سيدها هو صاحب الشأن) .

فدفع التمار سيدنا علياً ، وكان بعض الناس حاضراً .

فقال المسلمون للتمار : أتدري مَن دفعت ؟ أي هل تعلم مَن الذي دفعته بيدك ؟

فقال الرجل : لا . قالوا : هو أمير المؤمنين .

فصب الرجل تمرها ، وأعطاها درهمها ، وأراد أن يعتذر لسيدنا علي ، لأنه أخطأ في دفعه ، وكان عليه أن يقبل منه كلامه في أول الأمر فجاء لسيدنا علي ، وقال : أحب أن ترضى عنه .

فقال علي رضي الله عنه : ما أرضاني عنك إذا وفيت الناس حقوقهم فاعتذر الرجل لسيدنا علي عما كان منه .

أمانتـــه

كان رضي الله عنه أميناً على مال الأمة : فمما يؤثر عنه ، أنه كان في بيت المال عقد لؤلؤ ، فطلبته ابنته من الخازن ، واستعارته لتتجمل به يوم عيد الأضحى ، فأرسلها إليها عارية مضمونة ، ترد لبيت المال بعد ثلاثة أيام ، فرآه سيدنا علي في عنق ابنته يوم العيد ، فعرفه فسألها من أين جاء إليها ؟

فقالت : استعرته من خازن بيت المال ، لأترين به في العيد ، ثم أرده ، فبعث إليه سيدنا علي وويخه على إعارته العقد لبنته بغير إذنه ، وبغير رضا المسلمين . فقال له

الخازن : إنها إبنتك ، وطلبته مني عارية مردودة ترده سالماً إلى موضعه ، فأمره سيدنا علي بأن يرده من يومه وحذّره بألاّ يعود لمثل ذلك .

ثم وبّخ إبنته على ذلك ، فقالت له : وكانت تظن أنه يوافقها

يا أمير المؤمنين ، أنا إبنتك ، وبضعة منك ، فمن أحق بلبسه مني ؟

فقال لها : أكل نساء المهاجرين ، والأنصار ، يتزيّن في مثل هذا العيد بمثل هذا ؟ (يريد أنها لا حق لها في ذلك) .

ثم إمر برده ، فأعادته إلى بيت المال .

فمن هذه القصة نعلم مقدار حب سيدنا علي للحق ، والعدل ، والانصاف ، وشدة أمانته ، وحرصه على مال المسلمين ، وأنه كان لا يحب أن تكون أسرته أحسن من باقي أسر المسلمين .

وقيل : انه كان يكنس بيت المال ثم يصلي فيه رجاء أن يشهد له أنه لم يحبس فيه المال عن المسلمين .

الأحاديث الواردة في فضله

قد وردت أحاديث كثيرة تدل على فضل الإمام علي كرّم الله وجهه وحب رسول الله له نذكر بعضها :

● قال الإمام أحمد بن حنبل : ما ورد لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ من الفضائل ما ورد لعلي رضي الله عنه .
(أخرجه الحاكم)

● وأخرج الشيخان عن سعد بن أبي وقاص « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خلف علي بن أبي طالب في غزوة تبوك فقال : يا رسول الله تخلفني في النساء والصبيان ، فقال : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هرون من موسى ؟ غير أنه لا نبي بعدي » .

● وأخرج الشيخان عن سهل بن سعد « أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، فبات الناس يدركون أي يخوضون ويتحدثون ليلتهم أيهم يعطاها ؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال : أين علي بن أبي طالب ؟ فقيل : هو يشتكي عينيه ، قال : فأرسلوا إليه ، فأتي به ، فبصق رسول

الله صلى الله عليه واله وسلم في عينيه ، ودعا له فبرىء ، حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية .

● وأخرج مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال : لما نزلت هذه الآية : « ندع أبناءنا وأبناءكم » دعا رسول الله ﷺ عليّاً ، وفاطمة ، وحسناً ، وحسيناً فقال : اللّهم هؤلاء أهلي .

● وأخرج الترمذي ، والحاكم ، وصححه عن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله أمرني بحب أربعة ، وأخبرني أنه يحبهم ، قيل : يا رسول الله سمهم لنا ، قال : عليّ منهم (يقول : ذلك ثلاثاً) وأبو ذر ، والمقداد ، وسلمان .

● وأخرج الترمذي والنسائي وإبن ماجة عن حبشي بن جنادة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « علي مني وأنا من علي » .

● وأخرج التُرمذي عن إبن عمر قال : آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه ، فجاء علي تدمع عيناه فقال : يا رسول الله آخيت بين أصحابك ، ولم تؤاخ بيني وبين أحد ؟ فقال رسول الله ﷺ : أنت أخي في الدنيا والآخرة .

وأخرج مسلم عن علي قال : والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة انه لعهد النبي الأميّ إليّ أنه لا يحبني إلاّ مؤمن ، ولا يبغضني إلاّ منافق .

● وأخرج الترمذي والحاكم عن علي قال : قال رسول الله ﷺ (أنا مدينة العلم وعليّ بابها) هذا حديث حسن على الصواب ، وسبق ذكره في علمه .

● وأخرج الحاكم وصححه عن علي قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقلت : يا رسول الله بعثتني وأنا شاب أقضي بينهم ، ولا أدري ما القضاء ؟ فضرب صدري بيده ثم قال : اللّهم إهد قلبه ، وثبت لسانه ، فوالذي فلق الحبة ما شككت في قضاء بين اثنين ، وسبق ذكره في قضائه .

● وأخرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال عمر بن الخطاب : عليّ أقضانا .

● وأخرج إبن عساكر عن إبن مسعود قال : .أفرض أهل المدينة وأقضاهم علي بن أبي طالب .

● وقال عبد الله بن عيّاش بن أبي ربيعة : كان لعلي ما شئت من حرس قاطع في العلم ، وكان له البسطة في العشيرة ، والقدم في الإسلام ، والعهد برسول الله ﷺ ، والفقه في السنة ، والنجدة في الحرب ، والجود في المال .

● وأخرج أبو يعلى عن أبي هريرة قال : قال عمر بن الخطاب : لقد أعطى على ثلاث خصال ، لأن تكون لي خصلة منها أحب إليّ من أن أعطي حمر النعم . فسئل ، وما

هن ؟ قال : تَزَوُّجه ابنته فاطمة وسكناه المسجد ، لا يحل لي فيه ما يحل له ، والراية يوم خيبر .

● وأخرج أبو يعلى ، والبراز عن سعد بن أبي وقاص قال : قال رسول الله ﷺ : من آذى علياً فقد آذاني .

وأخرج الطبراني بسند صحيح عن أم سلمة عن رسول الله ﷺ قال : من أحبَّ علياً فقد أحبني ، ومَن أحبني فقد أحبَّ الله ، ومن أبغض علياً فقد أبغضني ، ومن أبغضني فقد أبغض الله .

● وأخرج أحمد ، والحاكم وصححه عن أم سلمة سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سبّ علياً فقد سبني » .

● وأخرج الطبراني عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « علي مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا على الحوض » .

آثاره

نبذ من كلامه ، وحكمه ، ووصاياه

النثر

عن إبن عباس رضي الله عنهما قال : ما انتفعت بكلام بعد رسول الله ﷺ كانتفاعي بكتاب كتبه إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فإنه كتب إلي :

أما بعد فإن المرء يسوءه فوت ما لم يكن ليدركه ، ويسره إدراك ما لم يكن ليفوته ، فليكم سرورك بما نلت من آخرتك ، وليكن أسفك على ما فات منها ، وما نلت من دنياك ، فلا تكن به فرحاً ، وما فاتك منها فلا تأس عليه ، وليكن همُّك لما بعد الموت والسلام .

وأخرج إبن عساكر عن ربيعة قال : قال عليّ : كونوا في الناس كالنحلة في الطير ، إنه ليس في الطير شيء إلاّ وهو يستضعفها ، ولو يعلم الطير ما في أجوافها من البركة لم يفعلوا ذلك بها .

خالِطوا الناس بألسنتكم وأجسادكم ، وزايلوهم بأعمالكم وقلوبكم ، فإن للمرء ما اكتسب وهو يوم القيامة مع من أحبّ .

وأخرج إبن يحيى بن جعدة قال : قال علي بن أبي طالب : يا حملة القرآن اعملوا به ، فإنما العالم من علم ، ثم عمل بما علم ، ووافق علمه عمله ، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم ، وتخالف سريرتهم علانيتهم ويخالف عملهم علمهم ، يجلسون حلقاً فيباهي بعضهم بعضاً ، حتى أن الرجل يغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ، ويدعه أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله .

وقال رضي الله عنه يخاطب سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن أردت أن تلحق بصاحبيك ، فاقصر الأمل ، وكل دون الشبع ، وارقع القميص ، وألبس الأزرار ، واخصف النعمل تلحق بهما .

وقال رضي الله عنه : الشيء شيئان : شيء قصر عني لم أرزقه فيما مضى ، ولا أرجوه فيما بقي ، وشيء لا أناله دون وقته ، ولو استعنت عليه بقوة أهل السموات والأرض .

فما أعجب الانسان ليسره درك ما لم يكن ليفوته ، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه ، ولو أنه فكر لأبصر ، ولعلم أنه مدبر ، وآقتصر على ما تيسر ، ولم يتعرض لما تعسر ، واستراح قلبه مما استوعر .

فكونوا أقل ما تكونون في الباطن آمالاً ، وأحسن ما تكونون

في الظاهر أعمالاً ، فإن الله تعالى أدب عباده المؤمنين أدباً حسناً ، فقال عز من قائل :

﴿ يَحْسَبُهُمْ الجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعفُّف تَعْرِفُهُمْ بِسيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إلْحِافاً ﴾ البقرة .

ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء ، طلباً لما عند الله تعالى ! وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكالاً على الله .

ومن كلامه : التوفيق خير قائد ، وحسن الخلق خير قرين ، والعقل خير صاحب ، والأدب خير ميراث ، ولا وحشة أشد من العجب .

ومن كلامه رضي الله عنه : لا تكون غنياً حتى تكون عفيفاً ، ولا تكون زاهداً حتى تكون متواضعاً ، ولا تكون متواضعاً حتى تكون حليماً ، ولا يسلم قلبك حتى تحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، وكفى بالمرء جهلاً أن يرتكب ما عنه نهي ، وكفى به عقلاً أن يسلم الناس من شره ، وأعرض عن الجهل وأهله وأكفف عن الناس ما تحب أن يكف الناس عنك ، وأكرم من صافاك ، وأحسن مجاورة من جاورك ، وإن جانبك .

واكفف الأذى ، واصفح عن سوء الأخلاق ، ولتكن يدك العليا إن استطعت ، ووطن نفسك على الصبر على ما أصابك ، وألهم نفسك القناعة ، وأكثر الدعاء تسلم من ثورة

الشيطان ، ولا تنافس على الدنيا ، ولا تتبع الهوى ، وعليك بالشيم العالية ، تقهر من يناويك .

وعنه أيضاً : قل عند كل شدة : لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم تكف ، وقل عند كل نعمة : الحمد لله ، تزد منها .

وإذا أبطأت عليك الأرزاق ، فاستغفر الله يوسع عليك . مفتاح الجنة الصبر ، ومفتاح الشرف التواضع ، ومفتاح الكرم التقوى .

نصحه لإبنه الحسن

يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك ، فأحب لغيرك ما تحب لنفسك ، واكره له ما تكره لها ، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم ، وأحسن كما تحب أن يحسن إليك ، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك ، وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك ، ولا تقل ما لا تعلم ، وإن قلّ ما تعلم ، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك ، ولا تكن عبد غيرك ، وقد جعلك الله حرّاً .

واعلم أن حفظ ما في يديك ، أحَب إليَّ من طلب ما في يد غيرك ، ولا تأكل من طعام ليس لك فيه حق ، فبئس الطعام الحرام ، وجدّ في الحصول على معاشك ، وإياك والاتكال

على المنى ، فإنها بضائع الموتى والحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور .

● يا بُني سل عن الرفيق قبل الطريق ، وعن الجار قبل الدار ، وإياك أن تذكر في الكلام ما كان مُضحكاً ، وإن حكيت ذلك عن غيرك ، وأكرم عشيرتك ، فإنهم جناحك الذي به تطير ، وأصلك الذي إليه تصير ، ويدك التي بها تصول ، ولسانك الذي به تقول ، ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك ، ولا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان ، وليس جزاء من سرّك أن تسوءه .

● يا بني إبذل لصديقك كل المودة ، ولا تطمئن إليه كل الطمأنينة ، وأعطه كل المواساة ، ولا تفش له كل الأسرار .

● وكتب إلى إبنه الحسن ينصحه : أحي قلبك بالموعظة ، ونوِّره بالحكمة . وذلله بذكر الموت ، وقوِّه بالغنى عن الناس ، وحذره صولة الدهر وتقلب الأيام والليالي ، واعرض عليه أخبار الماضين ، وسر في ديارهم وآثارهم فانظر فيما فعلوه ، وأين حلوا ونزلوا ، فإنك تجدهم قد انتقلوا عن الأحبة ، وحلوا ديار الغربة ، وكأنك عن قليل قد صرت كأحدهم ، فأصلح مثواك ، ولا تبع آخرتك بدنياك ، ودع القول فيما لا تعرف ، والخطاب فيما لا تكلف ، وأمسك عن طريق إذا خفت

ضلالته ، وأْمر بالمعروف بيدك ولسانك ، ولا تأخذك في الحق لومة لائم ، وتفقه في الدين ، وعوّد نفسك الصبر على المكروه .

● وقال يعظه أيضاً : يا بني أحفظ عني أربعاً وأربعاً لا يضرك ما عملت معهن : أغنى الغنى العقل ؛ وأكبر الفقر الحمق ، وأوحش الوحشة العجب ؛ وأكرم الحسب حسن الخلق .

يا بني إياك ومصادقة الأحمق ، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، وإياك ومصادقة البخيل ، فإنه يبعد عنك أحوج ما تكون إليه ، وإياك ومصادقة الفاجر فإنه يبيعك بالتافه ، وإياك ومصادقة الكذاب ، فإنه كالسراب ، يقرب إليك البعيد ، ويبعد عنك القريب .

وصيته لأولاده

يا بني ، عاشروا الناس عشرة إن غبتم حنوا إليكم ، وإن فقدتم بكوا عليكم .

يا بَني ، إن القلوب جنود مجنّدةٌ تتلاحظ بالمودة ، وتتناجى بها ، وكذلك هي في البغض ؛ فإذا أحببتم الرجل من غير حق سبق منه إليكم فأرجوه ؛ وإذا أبغضتم الرجل من غير سوء سبق منه إليكم فاحذروه .

نبذ من كتبه

● كتب إلى معاوية ينصحه : اتق الله فيما لديك ، وانظر في حقه عليك ، وارجع إلى معرفة ما لا تعذر بجهالته ، فإن للطاعة أعلاماً واضحة ، وسبلاً نيرة ، ومحجة نهجة ، وغاية مطلوبة ، يردها الأكياس ، ويخالفها الأنكاس ، من نكب عنها جار عن الحق ، وخبط في التيه ، وغير الله نعمته ، وأحل به نقمته ، فنفسك نفسك ، فقد بين الله لك سبيلك ، وحيث تناهت بك أمورك ، فقد أجريت إلى غاية خسر ، ومنزلة كفر .

● وكتب إلى عامله على البَصرة ينصحه : دع الإسراف مقتصداً ، واذكر في اليوم غداً ، وأمسك من المال بقدر ضرورتك ، وقدم الفضل ليوم حاجتك .

أترجو أن يعطيك الله أجر المتواضعين ، وأنت عنده من المتكبرين ؟ وتطمع وأنت متمرغ في النعيم ، تُمنعه الضعيف والأرملة ، أن يوجب لك ثواب المتصدقين ؟ وإنما المرء مجزى بما أسلف ، وقادم على ما قدم ، والسلام .

● كتب عليّ كرّم الله وجهه إلى عثمان بن حنيف عامله على البصرة وكان بلغه أنه دعي إلى وليمة فمضى إليها ، قال رحمه الله :

أما بعد يا إبن حنيف فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البَصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان ، وتنقل إليك الجفان ، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مَجفو ، وغنيهم مَدعو ، فانظر إلى ما تقضمه ، فما أشتبه عليك علمه فالفظه ، وما أيقنت بطيب وجهه فنل منه ؛ ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ، ويستضيء بنور علمه ، ألا وإن أمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه الإزرار والرداء ومن طعامه بقرصيه ، ألا وأنكم لا تقدرون على ذلك ، ولكن أعينوني بورع واجتهاد ، وعفه وسداد ، فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً ، ولا ادخرت من غنائمها وفراً ، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً ، ولا حزت من أرضها شبراً ، ولا أخذت منه إلا كقوت أتاني دَبره ، ولهي في عيني أدهي وأوهي من عصفة مقِره (أي مُرَّة) .

نبذ من أمثاله

● خير إخوانك من واساك ، وخير منه من كفاك .
خير مالك ما أعانك على حاجتك .
من كان في النعمة جهل قدر البلية .
السؤال مذلة ، والعطاء محبة .
صحبة الأشرار ثورت سوء الظن بالأخيار .
الحرُّ حر ولو مسه الضر .
ما ضل من استرشد ، ولا خاب من استشاره .

المودة بين الآباء صلة بين الأبناء .
جودة الكلام في الاختصار .
خير الكلام ما قل ودل ، ولم يطل فيمل .
جليس المرء مثله .
خف الله تأمن غيره ، خالف نفسك تسترح .
خير الأصحاب من يدلك على الخير .
دليل عقل المرء فعله ، ودليل علمه قوله .
دوام السرور برؤية الاخوان .
رفاهة العيش في الأمن .
دم على كظم الغيظ تحمد عواقبك .
زينة الباطن خير من زينة الظاهر .

شذرات من خطبه

خطبته بعد البيعة له بالخلافة

لما تمت بيعة علي برضا معظم أهل المدينة صعد رضي الله عنه المنبر وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

● أيها الناس ، إن الله تعالى أنزل كتاباً هادياً يبين فيه الخير والشر ، فخذوا بالخير ، ودعوا الشر ، الفرائض الفرائض أدوها إلى الله تعالى تؤدكم إلى الجنة ، إن الله حرم حرمات

غير مجهولة ، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها ، وشدّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها . فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلاّ بالحق . لا يحل أذى المسلم إلاّ بما يجب . بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم وهو. الموت ، فإن الناس أمامكم ، وإنما خلفكم الساعة تحدوكم فخففوا تلحقوا ، فإنما منتظر بالناس اخر هم .

اتقوا الله عباد الله في بلاده ، وعباده ، فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم وأطيعوا الله ولا تعصوه ، وإذا رأيتم الخير فخذوا به ، وإذا رأيتم الشر فأعرضوا عنه ، واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض . ثم نزل .

من خطبة له في الوعظ

● رحم الله أمرءاً سمع حكماً فوعى ، ودعى إلى رشاد فدنا ، وأخذ بحجزة هاد فنجا ، راقب ربه ، وخاف ذنبه ، قدم خالصاً ، وعمل صالحاً ، اكتسب مذخوراً ، واجتنب محذوراً ، رمي غرضاً ، واحرز عِوَضاً . كابر هواه ، وكذب مناه ، جعل الصبر مطية نجاته ، والتقوى عُدة وفاته ، ركب الطريقة الغَراء ، ولزم المحجة البَيضاء ، اغتنم المَهل ، وبادر الأجل ، وتزوّد من العمل .

● أعجب ما في الانسان قلبه ، وله مواد في الحكم وأضداد

من خلافها ، فإن سنح (ظهر) له الرجاء أذله الطمع ، وإن هاجه الطمع أهلكه الحرص ، وإن ملكه اليأس قتله الأسف ، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ ، وان أسعد بالرضا نسى التحفظ ، وإن أتاه الخوف شغله الحذر ، وإن اتسع له الأمن استلبته العزة ، وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع ، وإن استفاد مالاً أطغاه الغنى ، وإن عضته فاقة بلغ به البلاء ، وإن جهده الجوع قعد به الضعف ، وإن أفرط في الشبع كظته (ملأته) البطنة ، فكل تقصير به مضر ، وكل إفراط له قاتل .

ومن خطبة له في التقوى

حمد الله وأثنى ثم قال : أوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله ، ولزوم طاعته ، وتقديم العمل ، وترك الأمل ، فإنه من فرط في عمله لم ينتفع بشيء من أمله .

أين التعب بالليل والنهار ، المقتحم ببحج البحار ، ومفاوز القفار ، يسير من وراء الجبال ، وعالج الرّمال . يصل الغدوّ بالرواح ، والمساء بالصباح ، في طلب محقرات الأرباح ، هجمت عليه منيته فعظمت بنفسه رزيته ، فصار ما جمع بوراً ، وما اكتسب غروراً ، ووافى القيامة محسوراً .

أيها اللاّهي الغار بنفسه كأني بك ، وقد أتاك رسول ربك ، لا يقرع لك باباً ، ولا يهاب لك حجاباً ، ولا يقبل منك بديلاً ،

ولا يأخذ منك كفيلاً ، ولا يرحم لك صغيراً ، ولا يوقر فيك كبيراً ، حتى يؤديك إلى قعر مظلمة ، أرجاؤها موحشة ، كفعله بالأمم الخالية ، والقرون الماضية .

أين من سعى واجتهد ، وجمع وعدد ، وبنى وشيّد ، وزخرف ونجد ، وبالقليل لم يقنع ، وبالكثير لم يُمتّع ؟

أين من قاد الجنود ، ونشر البنود ؟ أضحوا رفاتاً ، تحت الثرى أمواتاً ، وأنتم بكأسهم شاربون ، ولسبيلهم سالكون .

عباد الله ، فاتقوا الله ، وراقبوه ، واعملوا لليوم الذي تسير فيه الجبال وتشقق السماء بالغمام ، وتتطاير الكتب عن الإيمان والشمائل ، فأيّ رجل يومئذ تراك ؟ أقائل : هاؤم أقرءوا كتابيه ، أم يا ليتني لم أوت كتابيه نسأل من وعدنا بإقامة الشعائر جنته أن يقينا سخطه .

إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظةِ كتابُ الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

كلمة عامـة

نشأ علي ـ كرّم الله وجهه ـ في الإسلام منذ صباه ، فلم تمازجه عادات الوثنية والجاهلية ، وقد ترعرع في حضن النبي ﷺ ، وكان ملازماً له ، وفي سبيله مستميتاً ، فكانت له المواقف الخطيرة بين يديه ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يعطف عليه ، ويحبه كثيراً كما ذكر في أحاديثه ، وقد اشتهر رضي الله عنه بالشدة ، والورع ، وعدم المداجاة .

فلما ولِّى الخلافة سار فيها بهذه الأخلاق الفاضلة ، وكان العرب قد ابتعدوا قليلاً عن حياة السذاجة ، فلم تكن الشدة تقع لديهم موقعاً مرضياً شأنها في عهد عمر . ولم يتساهل علي رضي الله عنه مع معاوية وغيره ، فاتسعت دائرة الفتنة ، وحدث ما حدث من الحروب الداخلية .

وكان العرب من جهة ثانية قد شعروا بالحياة الناعمة ، والرفاهية ، وأخذ حب الجاه والمركز يقوي في نفوس بعض رجالهم ، فكان ذلك أيضاً سبباً من أسباب كثرة الخلاف .

وكان عليٌّ ممتازاً بخصال قلما اجتمعت لغيره وهي : الشجاعة ، والفقه ، والفصاحة .

١ ـ فأما الشجاعة فقد كان محله منها لا يجهل ، وقف

المواقف المشهودة المعهودة ، وخاض غمرات الموت ، لا يبالي أوقع على الموت ، أم وقع الموت عليه ؟ وأول ما عرف من شجاعته مبيته موضع رسول الله ﷺ ليلة الهجرة ، وهو يعلم أن قوماً يترصدونه ، حتى إذا خرج قتلوه ، فلم يكن ذلك مما يضعف قلبه أو يؤثر في نفسه .

ثم في واقعة بدر ، وما بعدها من المشاهد ، كان علماً خفاقاً لا يخفي مكانه ، يبارز الأقران فلا يقفون له ، ويفرق الجماعات بشدة هجماته ، وقد آتاه الله من قوة العضل ، وثبات الجنان ، القسط الأوفر ، أغمد سيفه مدة أربع وعشرين سنة ، حتى إذا جاءت خلافته جرده على مخالفيه ، ففعل الأفاعيل ، وكان الناس يهابون مواقفه ، ويخشون مبارزته ، لما يعلمون من شدة صولته ، وقوة ضربته .

٢ ـ وأما الفقه فلم يكن مقامه فيه مجهولاً ، صحب رسول الله ﷺ منذ صباه ، وأخذ عنه القرآن الكريم ، وكان يكتب له مع ما أوتيه من ذكاء بني عبد مناف ثم بني هاشم ، ولم يزل معه إلى أن توفي عليه السلام . كل هذا أكسبه قوة في استنباط الأحكام الدينية ، فكان الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان يستشيرونه في الأحكام ، ويرجعون إلى رأيه إذا خالفهم في بعض الأحيان ، وأكثر من عرف ذلك عنه عمر بن الخطاب .

٣ ـ وأما الفصاحة ، فيعرف مقداره فيها من خطبه ، ومكاتباته .

وبالجملة فإن حياة هذا البطل تظهر لنا مواطن العبقرية في أرفع الأبطال الذين أنجبهم الشرق الإسلامي ، وتظهر لنا مناحي البطولة في نفسه الرفيعة الأنوف ، وتشرح لنا سر المأساة التي انتهت بالرجل إلى أن يموت بالسيف وهو صاحب القلم والسيف .

فما كان الرجل في حياته بضعة من الأرض فحسب ؛ بل روح من العلا اتخذها الله من أشرف ذريات آدم عليه السلام ، وأماض عليها النور في فجر الإسلام المجيد ، فكانت أجمل صورة يرتسم فيها جلال المؤمن ، أو الإنسان المؤمن ، أو الإنسان الكامل .

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

معارك إسلامية

(١)

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

مَعَارِكُ إِسْلَامِيَّة

(١)

دار الفكر اللبناني



حصار القسطنطينية

ما كادت معركة اليرموك تقضي على هرقل قيصر بزنطة بالجلاء عن سورية حتى اخذ العرب يتتبعون ما بقي من الحصون الرومية ممتنعا عليهم فاقتحموه بلدا بعد بلد فدانت لهم ارض الشام باجمعها . ثم قادتهم سواحلها الى مصر فافريقية فسلخوهما عن جسم الامبراطورية اليونانية . وخرج الروم منهما كما خرجوا من سورية عاجزين عن الدفاع لما هم عليه من ضعف وتفسخ واختلاف .

ومات هرقل سنة ٦٤١ فصار العرش بعده الى حفيده قنسطان الثاني فكان معظم همه ان يحمي الدرب (طورس) ويمنع المسلمين من اجتيازه ، ولكنه لم يستطع دفعهم عنه ، لانهم اخذوا يخرجون كل سنة الى ما وراء ثغورهم فيقطعون سلسلة الجبال ، ويخترقون آسيا الصغرى غازين مدنها وقراها ، مهددين عاصمة القياصرة .

الصائفة

وجعلوا لغزوها جيشا مخصوصا يسمونه الصائفة لانهم كانوا يغزونها في الصيف لاشتداد الصقيع في شتائها ، الا انهم كانوا يضطرون احيانا الى تمضية فصل الامطار هناك ، على ما يعانون من وقع الزمهرير وهم ابناء الصحراء اللافحة . لذلك اعتمد الامويون في غزو الروم على اهل الشام والجزيرة لانهم اكثر احتمالا للاقاليم الباردة ، ثم لما هم عليه من كره لبزنطة التي كانت تضطهدهم وترذل آرائهم في الدين .

قال البلاذري : « كانت بنو امية تغزو الروم باهل الشام والجزيرة صائفة وشاتية ». ولم يقتصر تهديد المسلمين لبزنطة وعاصمتها على البر وحده ، بل تناول البحر ايضا فراحت سفن معاوية تشق عباب المتوسط فتحتل جزر اليونان ، وتهدد عاصمة الامبراطورية الشرقية .

توسيع الامارة

وكانت ولاية دمشق والاردن قد انتهت الى معاوية بعد موت اخيه يزيد ، اقره عليها عمر بن الخطاب ، فوجه نشاطه الى توسيع امارته بالفتوح ، ورمى بانظاره الى المتوسط وما فيه من الجزر القريبة ، ورأى ما في السواحل اللبنانية والفلسطينية من

صناعة للسفن وبحارة ماهرين فعهد اليهم في بناء اسطوله وتقديم لوازمه من رجال وعتاد . وكتب الى عمر بن الخطاب يستأذنه في فتح قبرس ويقول له : « ان قرية من قرى حمص يسمع اهلها نباح كلاب قبرس وصياح ديوكها » .

يريد بذلك ان يبين له قربها من الشواطىء السورية ، فمال عمر الى فتحها ، ولكن العرب كانوا يومئذ يخشون البحر ولا يعرفون شيئا عنه ، وهم ابناء البادية العطشى الى الماء .

البحر والصحراء

فكتب الخليفة الى عمرو بن العاص ، وكان قد فتح مصر بطريق البر واستعمله عمر عليها ، فطلب منه ان يصف له البحر وراكبه لان نفسه تنازعه اليه . فكتب اليه عمرو : « اني رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ليس الا السماء والماء ، ان ركن اقلق القلوب وان تحرك ازاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، وراكبه دود على عود ان مال غرق ، وان نجا برق » . فلما بلغت هذه الرسالة عمر كتب الى معاوية يقول : « والذي بعث محمدا بالحق لا احمل فيه مسلما ابدا » . فتوقف معاوية عن عمله العظيم ، ولكن لم يصرفه عن خاطره .

التطوع للبحر

فلما توفي عمر وصارت الخلافة الى عثمان بن عفان ، عاد معاوية الى مشروعه يحاول تحقيقه ، فألح على الخليفة نسيبه في غزو البحر وفتح قبرس ، فاذن له مشترطا ان لا يكره مسلما على ركوب البحر بل ياخذهم تطوعا واختيارا . فأعد له بحارة السواحل السفن ، فركب من عكا ومعه جماعة من الصحابة ، فساروا الى قبرس ودخلوها صلحا (٢٨هـ ـ ٦٤٨م) فكانت اول غزوة غزاها العرب في البحر وحالفهم التوفيق .

واما في البر فان معاوية تابع غزو الروم بالصوائف والشواتي حتى اقلق بها راحة القيصر قنسطان ، ففي سنة ٢٥هـ (٦٤٥م) توغل في آسيا الصغرى حتى بلغ قاعدتها عمورية ثم عاد ظافرا غانما .

فلما غلب القيصر على امره وعجز عن حماية الدرب ودفع المسلمين عن اجتيازه عقد معاهدة مع معاوية من شروطها ان يؤدي مالا معينا كل سنة . فارتضى به معاوية موقتا .

عاصمة الروم

ولكن الامير الاموي الذي اعدته الاقدار لتأسيس المملكة العربية الاولى كان يفكر في امر عظيم ، وربما كان يفكر فيه معه

سواد الصحابة والمسلمين ، وهو الجهاد المتواصل لفتح عاصمة الروم ، كما فتحت عاصمة الفرس . فلماذا لا تسقط القسطنطينية وقد سقطت قبلها المدائن ؟ فالدعوة للدين الجديد يجب ان تشمل ارض بزنطة كما شملت ارض ساسان .

فلما انقضت المعاهدة حشد معاوية جيشا كبيرا (٣٢هـ ٦٥٣ م) وقطع به الدرب وسار يخترق بلاد الروم حتى بلغ شمالها ووقف عند خليج البوسفور .

وتوالت الحملات البرية والبحرية حتى كانت سنة ٤٩هـ ٦٦٩ م) والخلافة لمعاوية فقاد الجيش ابنه يزيد حتى بلغ القسطنطينية وسار بالاسطول بسر بن ابي ارطاة فعبر الدرنيل ، وانزل الجيش في الشاطىء الاوروبي ، فاشتد الحصار على العاصمة الرومية ، وهاجمها المسلمون برا وبحرا .

نشأة المدفع

فهب البزنطيون للدفاع عنها بما لديهم من شتى الوسائل ، ولا سيما النار اليونانية فانها كانت اعظم اداة للدفاع عندهم ، ولا يعرف يومئذ سر تركيبها غيرهم ، فكانوا يمطرون الاسطول والجيش بقذائفها واسهمها المشتعلة ، او يرشقونها بالاواني من اعالي الحصون والاسوار ، او يبعثونها من انابيب مستطيلة ، تنقذف عنها بالضغط كما تنقذف حجارة المنجنيق .

ويقول ستيفان رنسمان صاحب كتاب المدنية البزنطية : انهم ربما ادخلوا ملح البارود على تركيبها الكيماوي ليستطيع ان يدفع لهيبا من الانابيب الى الاهداف البعيدة . وكان يخرج لقذائفها ازيز ودوي ، ولا سيما عندما تنفجر في ملامستها للسفن ، فتسيل عليها النيران ملتهمة سريعة الاندلاع ، لا يقوى الماء على اطفائها ، وليس الا الخل والرمل والبول .

فتضايق منها الجيش والاسطول معا ، واصابتهما بتلف عظيم . وكانت الى ذلك حصون القسطنطينية واسوارها منيعة جدا ، وقد دافع البزنطيون مستميتين ، متحدي القلوب لا يفسدها اختلاف العقائد كما افسدها في سورية ومصر . فقد كانوا في كثرتهم من اتباع الكنيسة الملكانية ، وليس لليعقوبية عندهم صوت مرفوع .

الحصار سبع سنوات متقطعة

على ان العرب لم يفتروا عن تشديد الحصار والهجوم مع ما لقوا من المصاعب والاهوال ، ولم يدب اليأس والفشل في نفوسهم مع ما نالهم من خسارة في الارواح والسفن . فكانوا اذا ادركهم الشتاء بقرّه ، وآذاهم احتمال الصقيع ، رفعوا الحصار ولجأوا الى الجزر القريبة حتى يذهب الشتاء ويعتدل الهواء فيعودوا الى حصارهم ومهاجماتهم .

ولبثوا زهاء سبع سنوات يضيقون الخناق على عاصمة البزنطيين وهي تدافع عن نفسها بحصونها وحراقاتها ونيرانها ، وتنزل باسطول العرب وجيشهم الاضرار البليغة . وساعدتها العواصف مرارا فاغرقت طائفة من السفن فاضعفت قوة الاسطول .

فرأى المسلمون اخيرا ان الحصار لا فائدة منه بل فيه الاذية لهم ، فقرروا الرجوع الى بلادهم ، فارتد الجيش بطريق البر وارتد الاسطول ايضا (٥٨هـ ٦٧٧م) بعد جهاد باسل لقي فيه العرب اشد العناء ، فصبروا اجمل الصبر ونشروا الهول على اسوار القسطنطينية ردحا من الزمن .

الحروب الداخلية

ولكن الصوائف ، بعد رجوعهم ، لم تنقطع تماما عن بلاد الروم حتى توفي معاوية سنة ٦٠هـ (٦٧٩م) وانتقل الملك بعده الى ابنه يزيد فكان مقتل الحسين بن علي وما تلاه من الثورات والفتن ، وقيام عبد ا الله بن الزبير يدعي الخلافة فيبايعه عليها الحجاز واليمن والعراق ومصر .

وتبقى سورية وحدها مخلصة لابنائها الامويين الذين نشأوا فيها ، وترعرعوا تحت سمائها ، واتسموا بسماتها ، فانبرت للدفاع عنهم مقدمة صدور ابنائها ، فاشتغل الناس بالحروب

الداخلية صارفين وجوههم عن ارض الروم فتعطلت الصوائف طوال ذلك العهد . فكان البزنطيون واحلافهم يغيرون على السواحل ويثخنون في العرب .

والمسلمون مشتغلون بالفتن الحزبية ولا سيما زمن عبد الملك بن مروان ، فقد اشتدت ثورات الخوارج والشيعة ، وحروب الزبيريين واحلافهم قيس عيلان ، حتى اضطر الخليفة الاموي ان يسترضي قيصر بزنطة ليتقي شره ويفرغ لشؤونه الداخلية . قال ابن خلدون : « فصالح عبد الملك صاحب قسطنطينية على ان يؤدي اليه كل يوم جمعة الف دينار خيفة منه على المسلمين » . وكان ذلك سنة ٧٠هـ (٦٨٩م) .

عودة الصوائف

فلما سكنت الفتنة او كادت بعد مقتل مصعب بن الزبير عادت الصوائف الى غاراتها السنوية تسترجع الاراضي التي استعادها الروم في اثناء الفتن ، وتجتاز الدرب غازية آسيا الصغرى ، ولكنها لا تتقدم الى القسطنطينية ولا تفكر في معاودة حصارها حتى استخلف سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦هـ (٧١٤م) فحشد جيشا عظيما يبلغ زهاء مائة وعشرين الفا على قول ابن العبري ، وجعله تحت قيادة اخيه مسلمة ، وجهز من السفن اسطولا ضخما .

فزحف الجيش مخترقا آسيا الصغرى ، ومخر الاسطول متجها الى بحر مرمرة (٩٨هـ ٧١٦م) فوصل الجيش الى البوسفور ، وعبر الاسطول مضيق الدردنيل فسد بمراكبه منافذ الارخبيل والبحر الاسود ، واحاط بالعاصمة برا وبحرا ليمنع عنها الامداد والمؤن .

الفساد والفوضى

وكانت القسطنطينية في حالة سيئة من الفوضى ، فقد حاول القيصر انسطاس ان يصلح الجيش ويعيد اليه النظام ، فثار عليه وخلعه واقام مكانه رجلا خامل الذكر توجوه باسم تيودوس الثالث ، ولم يكن اهلا لان يجابه الاخطار المحدقة بالعاصمة .

وكان البطريق لاوون قائد القواد يراقب هذه الحالة ويقلبها على وجوهها ، فرأى انه لا يمكن ان يستقيم للروم امر وهم على هذا الضعف والاختلال ، فمد يده الى العرش واستولى عليه ، ورضي به الجند فنادوا به امبراطورا باسم لاوون الثالث (٧١٧م) فنشط للدفاع عن القسطنطينية بما لديه من شجاعة وذكاء .

وهنا يخبرنا مؤرخوا العرب كيف خدع مسلمة حتى سمح له بتموين المدينة ، وامدادها بالطعام بعد ان وقع عليها الحصار ولم تكن قد تهيأت له من قبل . فيقول الطبري ان لاوون كتب الى

مسلمة يعده بتسليمه المدينة صلحا على ان يدخل اليه الطعام الذي جمعه من حولها ، ليصدق اهلها بان امره وامر مسلمة واحد فيرضوا بالاستسلام . فاغتر مسلمة بوعده وارسل اليه المؤن الكثيرة .

خديعة

ويقول ابن العبري ان لاوون وعد مسلمة ان يفتح له العاصمة ولكنه اشار عليه بان يبتعد بجيشه الى بعض النواحي لكي يطمئن اهل المدينة ، فيسمحوا بفتحها ، فارتحل مسلمة وتنحى الى بعض الرساتيق . فبادر لاوون الى اعداد السفن والرجال ، وتموين المدينة . فلما بلغ الخبر مسلمة زحف بالجيش والاسطول وهاجم القسطنطينية ونصب لها المجانيق ، ولكنها كانت منيعة الحصون والاسوار فلم تتحلحل قلاعها .

وقذف عليهم البزنطيون وابلا من الحجارة والنار اليونانية ، فاصابوا من رجالهم واسطولهم شيئا جليلا . والمسلمون لا يفتر نشاطهم ، ولا يقلعون عن الاقتحام والهجوم .

فلما رأى مسلمة عظم الخسارة ، وقلة الفائدة من المهاجمات ، رجع يلتزم خطة الحصار ولكنه نسي ان غروره بنفسه وضعف بصره في الامور تركا للاعداء وقتا كافيا لاعداد المؤونة والذخيرة .

فهل يفيد نطاق الحصار او ياتي بنتيجة سريعة ، والمدينة ملاءى بالطعام عالية الاشوار متينة الحصون ؟

العودة الى الحصار

كان مسلمة شجاعا مقداما ولكنه قليل الخبرة ، فقد عاد الى ضرب الحصار على القسطنطينية ولكن ادركهم الشتاء بصقيعه وثلوجه وكان قاسيا جدا تلك السنة ، فلم تتحمله اجسام الجنود وهم ابناء السواحل والصحاري فمات عدد كبير منهم دنقا ، وبدلا من ان ينفد الزاد عند سكان العاصمة بسبب الحصار ، كان نفاده عندهم فذبحوا خيلهم ودوابهم ل ليقتاتوا بها ، حتى فني اكثرها ، وبلغت بهم المجاعة ان اكلوا ، كما يخبرنا الطبري ، الجلود واصول الشجر والورق . ورأى الروم حالتهم هذه فاخذوا يسطون عليهم بعصب البلغار الذين استقدمهم لاوون ، فكان هؤلاء يفاجئونهم غرة ، فينالون منهم ويرجعون ، وكلما انفردوا بواحد اغتالوه ، او بفئة قليلة فتكوا بها . قال الطبري : « فلقي الجند ما لم يلق جيش حتى كان الرجل ليخاف ان يخرج من المعسكر وحده » .

المدد

ولم ياتيهم المدد الا في ربيع سنة ٩٩ وكان الخليفة سليمان قد مات فجاءتهم السفن بالمؤن والذخائر ، ولكن الجيش

والاسطول لم تبق لها تلك القوة السابقة . فاخذت حراقات اليونان تنقض على سفن المسلمين وتقذفها بالنار السائلة ، او تستولي عليها . فازدادت الحالة سوءا ولم يبق سبيل لمتابعة الحصار ، فارسل الخليفة عمر بن عبد العزيز الى مسلمة يامره بالقفول فارتد بباقي الجيش والاسطول ، وانقضى هذا الحصار العظيم الذي استغرق طوال سنة ٧١٧ الى اوائل سنة ٧١٨ .

فتح الاندلس

دخل العرب فلسطين ففتحت لهم ارض الميعاد ابواب سورية ومصر ومشت بالويتهم خفاقة من اسيا الى افريقية ، فامتد سلطانهم في القارتين حيث كان سلطان بزنطة من قبلهم ، ووقفوا على شاطىء المضيق بين المحيط والمتوسط ، ينظرون الى اوربة ، الى القارة الثالثة ، وعلى راسهم موسى بن نُصير مولى بني امية ، وبجانبه مولاه طارق بن زياد يعد حملته ليعبر بحر الزقاق ، ويخوض معركة الجزيرة فيفتح الاندلس للاسلام ، وتلقى مفاتيح اوربة الغربية الى ايدي دولة العرب الظافرة .

خضعت مصر لعمرو بن العاص فاقره عليها عمر بن الخطاب ، فلم تقف مطامحه عندها وقد عبّدت له الاسكندرية بعد استسلامها طريق شواطىء المغرب فزحف اليها بجنده مفتتحا برقة وزويلة وطرابلس الغرب .

افريقيا مغرقة

وكانت حدود افريقية في تعريف العرب يومئذ تمتد من طرابلس شرقا الى طنجة غربا فالمحيط الاطلسي . ومن المتوسط شمالا الى الرمال التي في اول بلاد السودان .

فكتب عمرو بن العاص الى الخليفة عمر بعد فتح طرابلس يقول له : « أنا قد بلغنا طرابلس وبينها وبين افريقية تسعة ايام فان رأى امير المؤمنين ان يأذن لنا بغزوها ». فنهاه عمر عن اقتحامها مشفقا على المسلمين ان يوغلوا في مجاهلها . ويزعم البلاذري انه كتب اليه يقول : « ما هي بافريقية ، ولكنها مفرقة غادرة ، مغدور بها ».

ويشرح البلاذري كلام عمر بقوله : « ان اهلها كانوا يؤدون الى ملك الروم شيئا ، فكانوا يغدرون به كثيرا . وكان ملك الاندلس قد صالحهم ثم غدر بهم ».

الامر بفتح افريقيا

فتوقف عمرو بن العاص عن غزو افريقية نزولا عند نهي الخليفة ، حتى صارت الخلافة الى عثمان بن عفان فعزل ابن العاص عن ولاية مصر والمغرب ، واستعمل مكانه عبد الله بن سعد ، اخاه من الرضاعة . ثم امره بغزو افريقية ، وامده

بجيش فيه جماعة من كبار القرشيين ، فاخذ عبد الله يبعث المسلمين في جرائد خيل فيصيبون من اطراف افريقية ثم يعودون غانمين ، حتى صالحهم بطريقها على الفي الف دينار وخمس مائة الف ، كما يقول الطبري . ويزيد الواقدي على هذه القيمة عشرين الف دينار .

ولبثت افريقية لا يتناولها الحكم العربي ، ولا تستعمل عليها الولاة حتى عهد معاوية بن ابي سفيان . فغزاها عامله على مصر والمغرب معاوية بن حُديج بعشرة الاف على رأسهم عُقبة بن نافع الفهري ، فافتتحها سنة ٥٠هـ (٦٧٠م) واختط قيروانها . فملكها المسلمون حينذاك، وصارت تابعة لولاية مصر .

السير الى طنجة

وكان على مصر في خلافة الوليد بن عبد الملك عمه عبد الله بن مروان ، فاستعمل على افريقية موسى بن نصير فسار موسى الى طنجة عاصمة المغرب الاقصى ، فافتتحها سنة ٨٩هـ (٧٠٧م) وطرد عنها الكونت جوليان اوليان كما يسميه العرب ، واخضع عصاة البربر فلم يبق في افريقية من ينازعه منهم ولا من الروم .

ثم عاد الى القيروان بعد ان جعل مولاه طارق بن زياد واليا على طنجة ، وترك عنده تسعة عشر الف فارس من البربر وكانوا

قد اسلموا . وترك معهم فئة قليلة من العرب لتعلمهم وتعلم من يسلم من ابناء جنسهم القرآن وفرائض الاسلام .

الكونت جوليان

وعني موسى ، بعد ان تم له الامر في افريقية ، بانشاء اسطول يغزو به جزر البحر المتوسط . وكان الكونت جوليان قد لجأ الى سبته بعد سقوط طنجة وجلائه عنها . فحاصرها موسى بسفنه فامتنعت عليه لشجاعة صاحبها ودهائه كما يقول المقري في نفح الطيب ، ثم لان اسبانية بعثت اليها بالامداد ، فرجع موسى عنها ولم يصب منها شيئا .

ولم تكن سبته من اعمال اسبانية ، وانما هي تابعة لافريقية متصلة بها . وما كان الكونت جوليان من عمال ملك القوط ، ولكنه عامل لقيصر بزنطة . الا ان بعده عن القسطنطينية وقربه من اسبانية حملاه على التودد إلى عاهلها غبطشة (Witiza) فصادقه هذا وصاهره .

ولما مات غيطشة وصار الملك بعده الى رودريك بن تيوفريد ويسميه العرب لذريق ، حافظ جوليان على علاقاته بالبلاط الاسباني ، والتجأ اليه ملتمسا حمايته عندما غزا موسى بن نصير افريقية وحاصر سبته ، فامده رودريك بالسفن والعساكر ورد عنه المسلمين .

التقرب من العرب

على ان جوليان ما طال به الامر بعد انتقال افريقية الى العرب ، حتى اخذ يتقرب الى المسلمين ويحسن سياسته معهم لما له من سلطة معنوية على مسيحي افريقية لا يريد ان يتخلى عنها ، فآثر ، لكي يحتفظ بها ، ان ينحاز للفاتح الجديد . ويعلل لويس برتران ، مؤلف تاريخ اسبانية ، سبب خيانته لبلاط طليطلة ان رودريك رأى تذبذب جوليان في سياسته ، فطلب منه ان يبين خطته ويختار سيده ، فاختار موسى بن نصير .

حقد جوليان

كان من عادة الاشراف في اسبانية ان يبعثوا اولادهم الى بلاط الملك الاكبر بطليطلة ، ليصيروا في خدمته ويتأدبوا بأدبه ، وينالوا من كرامته ، حتى اذا بلغوا ازوج بعضهم بعضا استئلافا لابائهم اصحاب الاراضي والاقطاعات ، فتشتد بترابطهم اواصر المملكة .

وكان للكونت جوليان ابنة ساحرة الجمال اسمها فلورندا ، فبعثها الى بلاط رودريك جريا على خطة اشراف اسبانية ليمكن علاقاته بطليطلة ، فافتتن ملك القوط الحس بالفتاة الحسناء حتى بات لا يصبر عنها ، فراح يتتبع خطاها ويراودها وهي تتفلت منه .

فاتفق مرة انها كانت تغتسل في حمامات دي لاكافا على نهر التاج ، فباغتها عارية واستمتع بها قسرا . واقسم ان يزيل ملكه .

ثم عبر بحر الزقاق ، وذهب الى طليطلة يطلب ابنته معتلا بان امها مريضة تريد ان تراها قبل موتها ، فسمح رودريك للفتاة بالذهاب واوصاها بالكتمان . ويقول المقري : ان رودريك طلب من جوليان ان يأتيه ، اذا جاء مرة اخرى ، بانشط ما عنده من الشواهين والصقور لانه يفضلها على كل ما لديه من الجوارح .

فوعده بان يدخل عليه منها ما لم يدخل مثله قط . فلم يفطن رودريك لقوله ، وانما هو يعرض له بما اضمره من السعي في ادخال المسلمين الى بلاده .

بانتظار امر الخليفة

الحالة المتردية في اسبانيا انذاك جعلت موسى بن نصير يكتب الى الخليفة يستأذنه في غزوها . فارسل اليه الوليد يقول : « لا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الاهوال » . فكتب اليه موسى انه « ليس ببحر زخار ، وانما هو خليج منه يبين للناظر ما هو خلفه » فاذن له الوليد ، على ان يخوضه اول الامر بالسرايا . فبعث

موسى مولى له من البرابرة اسمه طريف بن مالك النخعي في اربع مائة راجل ومائة فارس ، فحملتهم اربع سفن لجوليان الى جزيرة الفندال التي تسمت باسم الفنداليين الذين ابحروا منها الى افريقية ، فقيل لها فندلس ، وهي اول ارض دخلها العرب من اسبانية فحرفوا اسمها الى اندلس ، واطلقوا هذا الاسم على جميع البلدان الاسبانية التي افتتحوها . وسميت الجزيرة باسم « طريف » لنزوله فيها . واقام بها اياما ثم رجع بجيشه الى المغرب ، وقد اصابوا مالا وافرا ، وسبيا من النساء لم ير موسى واصحابه مثله حسنا .

الاندلس

ولكن ليس هذا ما كان يتوقعه الكونت جوليان ، فانما هو يرمي الى ازالة ملك رودريك ، فغزوة ورجعة لا يعقبها الا نتيجة خائبة . فعاد الى موسى يحرضه على اقتحام الاندلس وفتحها حتى اغراه بها ، فدعا مولاه طارق ابن زياد والي طنجة ، فعقد له على سبعة آلاف من البربر والعرب .

ويعود اختيار موسى للبربر الى اسباب منها انهم الكثرة الساحقة التي يتألف منها جيش طارق في طنجة . ثم لانهم يعرفون اسبانية اكثر من العرب ، لقربهم منها وحاجتهم الدائمة الى التردد عليها ، وهي مهددة ابدا بغزواتهم ، لطمعهم في خصبها وغناها وسبيها .

وقدم لهم جوليان سفنه ، فاقلتهم لخمس خلون من رجب سنة ٩٢هـ (٧١٠م) فسارت بهم تعبر بحر الزقاق من سبتة الى جزيرة الفندال ، او الجزيرة الخضراء كما ينعتها العرب لخصبها . وكانت تاتي بهم دفعات متفاصلة لكي لا يتنبه لهم الاسبانيون حتى اكتمل عددهم . وجعلوا جبل كلبه نقطة الزحف فقيل له جبل الفتح او جبل طارق . وسمي بحر الزقاق مضيق جبل طارق .

تجمع الاسباب

وكان اول من قاومهم حاكم الجزيرة ، ولكنه لم يصبر امامهم طويلا بل انهزم الى اشبيلية . وارسل الى عاهله رودريك يخبره بغارة المسلمين ، وخيانة جوليان . فحشد رودريك الجيوش ، وكتب الى اولاد غيطشة يدعوهم الى الاجتماع معه على حرب الغزاة ، ويحذرهم من القعود .

فلم يجدوا بداً من اجابته ، فحشدوا انصارهم من القوط ، وقدموا عليه ، ولكن على نية خذله والغدر به . فولى احدهم ميمنته والآخر ميسرته لما لهم من المنزلة في نفوس القوط ، ولانه لم يخطر له في بال ان ملوكا مثلهم يخذلونه .

ولم يناحر اولا غيطشة العرب الا للتخلص من رودريك ولاعتقادهم ان العرب انفسهم لم يكونوا موطنين النفس على البقاء في اسبانية عندما اقتحمها طارق بجيوشه .

فلما انتهت الخلافة الى عمر بن عبد العزيز اراد ان يجلي المسلمين عن اسبانية ، لبعدهم عن اخوانهم في الشرق ، ولانهم محاطون بشعوب غريبة تدين بغير دينهم . ولم يرجع عن رايه الا بعد ان اقنعوه بان المسلمين اقوياء في الاندلس ، وانهم منتشرون في كل مكان .

السير الى المعركة

وسار رودريك بجيشه للقاء طارق بن زياد ، قال ابن خلدون انه يبلغ اربعين الفا ، وقال ابن خلكان انه سبعون الفا ، ويجعله المقري مائة الف . ويقول كليمان هيوار : « ان جيش الاسبانيين كاد يكون خلوا من الفرسان ، وان اغلب سلاحه العصي والمقاليع ». زد على ذلك حالته المعنوية ، فمن قواد كاولاد غيطشة يريدون الغدر برودريك ، الى قلوب غير متحدة لما بين القوط واليهود والروم من النفور والتباغض .

وكتب ابناء غيطشة الى طارق يخبرونه بانهم سيناصرونه في الحرب للايقاع برودريك المغتصب ملك ابيهم ، على ان يحفظ لهم طارق ضياع والدهم ، فتسلم اليهم آمنة اذا ظفر ، وكانت ثلاثة آلاف ضيعة نفائس مختارة كما يقول صاحب نفح الطيب . فاجابهم الى ذلك وعاقدهم عليه .

امدادات جديدة

وكان طارق قد استنجد موسى بن نصير عندما بلغه زحف روذريك ، فامده بخمسة آلاف من البربر فبلغ جيشه اثني عشر الفا ، سلاحهم حسن ، وقلوبهم متحدة على الغزو واقتسام الغنائم .

وهنا لا بد لنا من الاشارة الى ان طارقا امر باحراق السفن قبل ان يباشر الحرب ، وخطب في جيشه خطبته الشهيرة التي يقول في اولها : « ايها الناس ، اين المفر ؟ والبحر من ورائكم والعدو امامكم فليس لكم ، والله ، الا الصدق والصبر .

وبعد ان تلقى طارق الامداد تقدم بجيشه ومعهم الكونت جوليان في حشده يدلهم على المواقع الضعيفة ويتجسس لهم الاخبار .

المعركة

وتقدم روذريك في جيشه يحمي القلب ، وعلى الجناحين ابناء الملك السالف ، فالتقى الفريقان على ضفاف وادي بكة من الجزيرة الخضراء ، فالتحموا في معركة حامية دامية ، واذا بيمنة روذريك وميسرته تتاخران ثم تنهزمان ، وفي مقدمتها ابناء

غيطشة ، فانكشف القلب من جانبية ، ولبث رودريك يقاوم حتى اثقلته الجراح فانهزم لا يلوي على شيء ، والقى بنفسه الى النهر طلبا للنجاة ، فاختطفته المياه المتدفقة وغابت به الى حيث لم يعثر له على اثر ، الا جواده الابيض الغارق في الطين ، وعليه سرج من ذهب مكلل بالياقوت والزبرجد ، والا احد خفية الحذاء ، وكان من ذهب مكللا بالدر والياقوت والزبرجد ، على حد قول المقري وابن الاثير .

وانهزم في اثره جيش القوط بعد قتال ثمانية ايام ، فتم النصر العظيم للمسلمين في رمضان من السنة نفسها .

موقعة اليرموك

على ضفاف نهر اليرموك ، جنوبي بحيرة طبرية ، في وادي الياقوصة وسهلها ، كانت الموقعة الفاصلة بين العرب والروم . تحطمت فيها جيوش هرقل ، فذهبت اشتاتا لا تلتم لها فلول الا لتذوب امام قلعة او مدينة ، فيدخلها العرب الفاتحون صلحا او عنوة حتى وقعت سورية باجمعها في ايديهم ، وتقلص عنها ظل بزنطة الى ما وراء جبال طوروس .

وترك هرقل انطاكية قافلا الى القسطنطينية وعيناه عالقتان بتلك الأرض التي وداع الأبد . وصارت دمشق ولاية عربية طوال عهد الخلفاء الراشدين لتصبح بعد حين عاصمة الدولة الأموية ، مملكة العرب الأولى في الاسلام .

فقد خرج الغزاة من البادية يغيرون على سواد العراق ممهدين لمعركة القادسية الحاسمة . وخرجوا في الوقت نفسه يغيرون على انحاء فلسطين ليضربوا الضربة القاضية في اليرموك .

الحملة على سوريا

بينما خالد بن الوليد يفتتح ارض العراق ، ومعه المثنى بن حارثة ، كان ابو بكر يتجه بانظاره الى سورية ، ترافقه انظار القبائل العربية من بدو وحضر ، طامحة كلها الى غزو تلك البلاد الغنية العامرة . فما كاد يستنفر للجهاد اهل مكة والطائف واليمن ، واعراب الحجاز ونجد ، ويرغبهم في غنائم الروم ، حتى سارع اليه الناس ما بين طائع لله ، وطامع في الدنيا . فعقد ثلاثة الوية ، لواء ليزيد بن ابي سفيان مكان الصحابي خالد بن سعيد ، عاملا برأي عمر بن الخطاب . ولواء لشرحبيل بن حسنة . والتحق خالد بن سعيد بجيش شرحبيل تطوعاً للجهاد . ولواء ثالثا لعمرو بن العاص . وجعل كل لواء ثلاثة آلاف مقاتل . ثم امدهم بالنجدات فبلغ اللواء سبعة الاف وخمسمئة .

وامر عمرو بن العاص ان يسلك طريق شاطىء البحر الاحمر الى أيلة (العقبة) ويزيد وشرحبيلا ان يسلكا طريق تبوك فالبلقاء . واستعمل كل قائد اميرا على ارض ترغيبا له في

الغزو . ودفعا لاحتمال وقوع الخلاف . فولى عمرا فلسطين وشرحبيلا شرقي الاردن ويزيد دمشق . وكان بدء الحملة في اواخر سنة ١٢هـ (٦٣٣م) . فقد ذكر الطبري ان ابا بكر لما قفل من الحج سنة اثنتي عشرة جهز الجيوش الى الشام .

فسار يزيد الى تبوك . ومنها قصد جنوبي البحر الميت مشرفا على وادي العربة ، فتصدى له سرجيوس بطريق قيسارية (قيصرية) فهزمه يزيد . فلجأ البطريق بجيشه الى غزة . ثم انكسر في موقعة داثن وقتل وتمزقت قواه ، فتمكنت الجيوش العربية ان تحتل بلدان فلسطين بسهولة ، عدا المدن المحصنة ، من غزة في الجنوب الى جبال حوران في الشمال .

استعدادات الروم

ولما وصل الخبر الى هرقل قيصر بزنطة ، امر الجيوش الجاهزة لديه بالمسير الى سورية ، ووضعها تحت قيادة اخيه تيودور ، ويسميه العرب « تذارق » فصاروا الى اجنادين وهي بلد من فلسطين بين بيت جبرين والرملة . وكان المسلمون قد تلقوا مددا جديداً سبعة الاف بقيادة ابي عبيدة بن الجراح .

ولكن عمرو بن العاص رأى قوة الروم عظيمة فكتب الى ابي بكر يطلعه على الامر ويطلب اليه ان يمدهم بالعساكر . فاستدعى ابو بكر خالد بن الوليد من العراق وامره ان يلتحق

بجيوش الشام ، فسار خالد بعشرة الاف على رواية الطبري ، وبثمانمائة او اقل على رواية البلاذري ، ومشى صعدا بجانب الفرات غازيا الى ما وراء قرقيسية . ثم اجتاز بادية تدمر من الشمال الى الجنوب ، وجد مسرعا نحو دمشق فغزا في طريقه قرى للغساسنة حتى جاء قيصرية في حوران واتصل بالقواد الثلاثة ابي عبيدة ويزيد وشرحبيل . فخفوا جميعا الى العربة لاحقين بعمرو بن العاص . (١٣هـ ٦٣٤م).

الزحف الى اجنادين

وزحفت الجيوش العربية الى اجنادين ، قاصدة جيوش الروم ، فنشبت بينهم المعركة في ٢٨ جمادي الاولى سنة ١٣هـ (٣٠ تموز ٦٣٤). ويقول البلاذري ان عدد الروم يوم اجنادين كان زهاء مائة الف . وفي فتوح الشام المنسوب للواقدي ان جيش المسلمين كان يومئذ اثنين وثلاثين الفاً . وظهر فضل خالد بن الوليد في هذه الوقعة على سائر القواد ، فقد ابلى فيها خير بلاء حتى انتهت بانكسار الجيش اليوناني وهزيمته فلجأت فلوله الى دمشق ، وهرب تيودور الى حمص وكان فيها هرقل اخوه جاءها من القسطنطينية ليشرف على المعركة بنفسه . فلما شهد انهزام اخيه ، وانهيار جيشه ، سارع الى انطاكية ليجهز جيشا جديدا .

سقوط فلسطين بيد العرب

واصبحت فلسطين وجنوبي سورية بعد واقعة اجنادين في

ايدي العرب الفاتحين . وعبثا حاولت فلول تيودور ان تستأنف القتال في بيسان (٢٨ ذي القعدة ١٣هـ ، ٢٣ كانون الثاني ٦٣٥م)، فان المسلمين ساروا اليهم حتى نزلوا فحل ، وهو مكان في الجنوب الشرقي من بحيرة طبرية ، فبثق البزنطيون سدود وادي الاردن ، فامتلأت الارض ماء واوحالا ، فلم يستطع العرب الوصول اليهم ، ولكن الروم عبروا الاردن وبيوتهم ليلا فقاتلهم المسلمون ، وكان قائدهم شرحبيل بن حسنة شديد الحذر يبيت على تعبية ، ويصبح على تعبية ، فلم يؤخذوا على حين غرة ، واستمر العراك طوال ليلتهم حتى ليل اليوم الثاني ، فانهزم البزنطيون ، ووحلت خيولهم ، وكذلك لقي المسلمون عناء كبيرا من الوحول والمياه . واستسلمت بيسان بعد هذه الموقعة .

فباعته العرب للروم

وسار خالد بن سعيد بتجريدة الى مرج الصفر على بعد يوم من دمشق للراجل الماشي . ففاجأه جيش يوناني ، يعد اربعة آلاف محارب ، فقاتله العرب مستبسلين ، ولكنهم خسروا في هذه المعركة خسارة جسيمة ، وقتل قائدهم خالد . ثم ارتد عنهم البزنطيون الى دمشق ليحاصروا فيها ، لان جيوش المسلمين كانت زاحفة الى عاصمة سورية وعلى راسها خالد بن الوليد .

وكان العرب قبل مجيء خالد من العراق يحاربون متساندين كل جيش واميره لا تجمعهم قيادة واحدة . فدعا خالد الامراء الى توحيد رئاسة الجيش على ان تنتقل فيهم واحدا بعد واحد لئلا يثير الحسد في نفوسهم ، فاستحسنوا رأيه وجعلوه اميرا عليهم . فكان في معركة اجنادين ابرز القوات واظهرهم شفعيا . ورأى الامراء ما عنده من البأس والخبرة وحسن الطالع والتوفيق ، فتركوا له القيادة العليا في كل حرب يباشرونها .

ولكن الواقدي والبلاذري يذكران في جملة الروايات ان ابا بكر جعله اميرا على الامراء في الحرب . ولذلك نجده يسير على رأس الجيوش الى دمشق لمحاربة البزنطيين . وكان الجيش القيصري قد استعصم باسوار دمشق ، وغلق ابوابها . فحاصرها خالد ستة اشهر من محرم الى رجب ؛ ١٤هـ ، ٦٣٥م) حتى تضايق اهلها ويئسوا من ارسال الامداد اليهم ففتحوا الابواب مستسلمين ، وقيل انها فتحت صلحا من جهة ، وعنوة من جهة اخرى ، فأمضيت كلها على الصلح .

ويروي البلاذري ان اسقف الدير الذي كان خالد معسكرا بقربه هو الذي فاوضه على صلح دمشق ، وسهل له اهل الدير دخولها . ويعلل المستشرق كليمان هيوار ذلك بقوله ان رجال الدين في العاصمة كانوا مستائين من الانظمة التي فرضها عليهم هرقل ليضع حدا للمجادلات اللاهوتية فساعدوا على تسليم القلاع للمسلمين .

هرقل يعاود الكرة

وما كان يهون على هرقل ان يتخلى عن سورية للعرب الفاتحين ، وفيه بقية امل تحفزه للدفاع عنها . فليس الجيش البزنطي الذي تشتت في اجنادين وبيسان الا جزءا يسيراً من قوات الامبراطورية ، مجموعا من الحاميات الجاهزة في الثغور . فلم يكن انهياره واحتلال دمشق ليفت في عضد القيصر ، فبادر الى حشد جيش عظيم في حمص وجعل على رأسه تيودور ، ولكنه كان خليطاً من البزنطيين والارمن والعرب المتنصرة .

وكان على الأرمن قائد يقال له فاهان ، وعلى العرب جبلة بن الايهم الغساني ، وقد استرضاه هرقل بعد ان دفع له جعالاته السنوية التي كانت مقطوعة عنه . ويقول البلاذري ان جيش الروم بلغ زهاء مئتي الف ، يرتفع به الى اكثر من ثمانين الفاً . وكان الجيش العربي اربعة وعشرين الفا على رواية البلاذري .

تراجع ستراتيجي

وتحركت القوات البزنطية من حمص في شباط ٦٣٦ (بدء سنة ١٥هـ) فبلغ خبرها خالد بن الوليد ، فاستعظم هذا الجيش الذي لم يعهدوا مثله في سوابق حروبهم مع الروم ، فامر الجنود العربية

بالتراجع عن سورية فجلوا عن دمشق وسواها من المدن المحتلة ، وانقلبوا الى ناحية الاردن ليتمكنوا من الرجوع الى البادية ان لم يكتب لهم التوفيق ، فرابطوا في الجنوب الشرقي من نهر اليرموك الذي يصب في الاردن جنوبي بحيرة طبرية ، وجعلوا الصحراء وراءهم .

وكان الجيش البزنطي يسير ببطء لكثرة عدده اولا ، ثم لما وقع بين رجاله خلال الزحف من الانتفاضات والمشاحنات ، حتى ان الارمن ثاروا ونادوا بقائدهم فاهان امبراطورا كما يقول كليمان هيوار . لذلك لم يبلغوا الاردن الا في آب ، فعبروه ، وعسكروا شرقيه في وادي الياقوصة .

تعبية ضخمة

وفي ٢٠ آب - ١٢ رجب خرج الروم للقتال في تعبية لم ير الراؤ ون مثلها على حد تعبير الطبري . وخرج خالد في تعبية لم تعبّها العرب قبل ذلك . فقد رأى جيش الروم لا يحارب صفا صفا كما يفعل المسلمون منذ عهد النبوة ، وانما يتألف فرقا فرقا في القلب والميمنة والميسرة . ففعل مثلهم وخرج في ستة وثلاثين كردوسا الى الاربعين . ووزع هذه الفرق على الجناحين والقلب . وجعل على كل كردوس قائدا ينظمه ويديره .

ثم حملت الروم حملة واحدة فـازالت المسلمين عن

مراكزهم . فتدارك خالد جيشه بدرايته ، فشدد قواه ولمه ، وزحف به على العدو حتى تصافحوا بالسيوف . ثم اخذ يطارد قواد الروم ، فاستخذى اليه احدهم ، واسمه جرجه ، فاسلم على يده ، وانضم الى العرب . ثم انضم اليهم جبلة بن الايهم بمن معه من الغساسنة والفافهم من العرب المتنصرة . فانكشف جيش بزنطة ، وانثغرت جبهته ، ثم هبت ريح عاصفة ، هي الريح الجنوبية ، او الجنوبية الشرقية المعروفة بالخمسين ، كما يقول كليمان هيوار ، فاثارت من الغبار غماما عميت به ابصار جيوش القيصر ، فتضايقوا في قتالهم ! وارتبكوا .

ثم نهد خالد بالقلب فصدعه مخترقا خطوط الدفاع . والتف عليهم بفرسانه من الجانب الغربي ، فاحتل الجسر وقطع عنهم طريق الرجعة . فتضعضع اليونان وخرجت خيولهم لاجئة بفرسانها الى الاماكن المحصنة ، فافرج لها العرب فمرت ولم يحرجوها . ثم اقبل خالد بفرسانه على المشاة ، فاعملوا فيهم السيوف فكانت لهم مجزرة مخيفة فُني فيها خلق كثير منهم بين قتيل وغريق ألقى بنفسه إلى النهر .

سوريا كوني بسلام

قال البلاذري : « قتل من الروم زهاء سبعين الفا وهرب فلّهم فلحقوا بفلسطين وانطاكية وحلب والجزيرة وارمينية » .

وهلك تيودور في المعركة بعد ان تبدد جيشه ، وتصدع القلب عنه .

فلما بلغ هرقل نبأ اليرموك واضمحلال جيشه ، ترك انطاكية يائسا وقفل الى القسطنطينية ، فلما جاوز الدرب قال : « سوزه سورية » وسوزه كلمة يونانية معناها كوني بسلام .

واستعاد المسلمون بعد اليرموك جميع البلاد التي جلوا عنها ، وتم لهم الاستيلاء على سورية كلها بعد سقوط قلعة قيسارية جنوبي عكا سنة ١٩هـ (٦٤٠م) فأزالوا آخر سلطان لليونان على ربوع الشام ، فكانت واقعة اليرموك كارثة قاضية على امبراطورية بزنطة في الاراضي السورية .

وغير عجيب ان تصيبها هذه النكبة والمسلمون يندفعون الى الجهاد بقوة واتحاد ورغبة في الدين والدنيا . ولم تكن حالة بزنطة في سياستها وجندها وادارتها ، يوم دخل العرب سورية ، احسن من حالة الفرس يوم اجتاز المسلمون ارض العراق . فقد رأينا الجيش البزنطي منقسما على نفسه . فالارمن يشغبون وينادون بقائدهم امبراطورا . وجبلة بن الايهم وجرجه ينضمان بالعرب المسيحيين الى صفوف المسلمين ، فيقاتلون معهم ، فتصدع بخروجهم جيش الروم واصابه الشلل . فقد هربت فرسانه ، وتمزقت مشاته . واكثر البلدان السورية لم تنشط للدفاع عن ارضها بل فتحت ابوابها للعرب فدخلوها صلحا .

ولما ترك المسلمون دمشق ليقاتلوا في اليرموك ودعهم اهلها بحزن شديد لأنهم كانوا يكرهون حكم البزنطيين ففضلوا حكم الفاتح الجديد . والبلاد التي حاربت العرب بشدة هي التي تكاثر فيها العنصر اليوناني ، او كان فيها قوة من الجيش البزنطي . حتى اذا اضمحل هذا الجيش لم يبق لهرقل من امل في سورية لانه يعلم كرهها لسلطانه ولا يتوقع م منها معونة ودفاعا مخلصا ، فتركها وارتد الى عاصمته .

اسباب انهزام اليونانيين

وهذا الكره يعود الى اسباب دينية وسياسية ، فان السوريين كانوا في كثرتهم من اتباع الكنيسة اليعقوبية التي تقول ان اللاهوتية والناسوتية تؤلفان طبيعة واحدة هي المسيح . وكان الى جانبها الكنيسة الملكانية التي تميز في المسيح بين طبيعتين ، الطبيعة الالهية والطبيعة البشرية . والملكانية هي الكنيسة الرسمية التي يتبع عقائدها قياصرة بزنطة ، ويرون في عقائد اليعقوبية بدعة في الدين لا يصح السكوت عن مقاومتها .

فبلغت المجادلات البزنطية حدها في عهد هرقل حتى أصبح عامة الشعب يجادلون في اللاهوت ، فتقع المشاحنات بين اصحاب المذهبين في الاسواق والمجتمعات . فرأى هرقل ان يضع حدا لهذه المناقشات ، على ان يخسر صداقة اليعقوبيين ،

فلجأ الى تسوية لاهوتية ، تقول بان المسيح فيه قوة واحدة ، او ارادة واحـدة . فلقي هـذا التـوحيـد بعض النجـاح في القسطنطينية ، وسكت عنه البابا اونوريوس الاول ، الا انه لم يرض اليعقوبيين ، ولم يمح حقدهم على المجمع الخلقيدوني ، الذي اعتبرهم ملاحدة ، وانكر عقائدهم .

وفي سنة ٦٣٦ وقع القيصر النظام الذي يبين طريقة الايمان الجديد ، فثارت عليه اليعقوبية ، وحدثت لاجله معركة كان من شانها ان تبعد سورية عن بزنطة الى الابد ، كما يقول ستيفان رنسمان مؤلف كتاب « المدنية البزنطية ».

ولما غزا الفرس سورية سنة ٦١٤ ودخلوا ارضها ، تصدى لهم هرقل بجيوشه فوقعت بينهم حروب طاحنة طويلة انتهت بانكسار الفرس سنة ٦٢٨ ، ولكنها كلفت القيصر غاليا ، وتألم منها خصوصا سكان الولايات القائلة بالطبيعة الـواحدة ، لانهم ، مع ما نالهم من ويلات الحرب ، وضعت عليهم الضرائب الثقيلة ، لتسد ما اصاب بيت المال من عجز ونقصان . وقطعت الجعالات السنوية عن قبائل العرب التي كانت تحرس الحدود وترد غزاة البادية . والغساسنة اعظم هذه القبائل واشدها خطرا . فلا غرو ان ينحاز جبلة بن الايهم الى العرب حمية مع ابناء جنسه وكرها للبزنطيين الذين قطعوا الجعالة عنه وعن آبائه ، واضطهدوا ابناء مذهبه اصحاب الطبيعة الواحدة .

هذه الاسباب ، اجتمعت كلها فجعلت سورية عونا على البزنطيين بدلا من ان تكون عونا لهم ، فتنكرت لاربابها الاقدمين ، وولتهم ظهرها ناقمة ، وفتحت صدرها مرحبة بالعرب الغزاة وبمملكة الامويين .

موقعة القادسية

خرج العرب من قلب البادية واطرافها ، فاجتازوا حدود العراق ثم توغلوا في سواده ، يفتتحون البلاد ارضا ارضا ، ويخضعون السكان شعبا شعبا . على السنتهم ثلاث كلمات يرددونها في مسامع اعدائهم قبل ان يباشروا القتال : الاسلام ، واما الجزية او الحرب ! . . . ثلاث كلمات لهم فيها غنيمتان . فالكلمة الاولى تدعو الناس الى الدين الجديد . واصحاب الدعوة يرجون بها غنيمة الآخرة . والكلمة الثانية تضرب عليهم الجزية ان لم يجيبوا دعوة الاسلام . وفيها غنيمة المال تستقيم به أمور المسلمين في حياتهم المادية . ثم الكلمة الثالثة ، وهي الحرب جهادا في سبيل الدين ، وفتحا لكنوز الدنيا . فيها غنيمة الارض وغنيمة السماء .

فكان يجيب الدعوة الاولى قوم فينضمون اليهم ، واصلين حظهم بحظهم . ويرضى بالثانية غيرهم ، فيؤدون الجزية عن يد صاغرين . ويرغب في الحرب اكثرهم فما ينتفعون بها ، لانها كانت وبالا عليهم ، تتساقط فيها بلدانهم تباعا ، فيدخلها الغزاة

ظافرين مكبرين . حتى كانت موقعة القادسية ، فقررت في خلال اربعة ايام مصير دولة الشرق العظمى ، تاج ملك الملوك وايوان كسرى . وحظت بدولة العرب ممتدة الفتوح في الامصار الغربية بعد ان كانوا منقبضين في شبه جزيرتهم لا ينهضون لمحاربة شعب خارج حدودهم .

العالم الجديد

تلك الموقعة جديرة بان تكون عبرة التاريخ لانها خاتمة عصر وفاتحة عصر . رفعت مملكة فتية على انقاض مملكة عجوز فغيرت وجه الشرق القديم ، وابدلته دينا بدين .

وكان ملك المناذرة قد تضعضع في العراق بعد مقتل النعمان ابي قابوس ، وصارت ولاية الحيرة الى اياس بن قبيصة الطائي . ولكن حكومة الفرس رأت ان تدير انحاء السواد بنفسها ، فارسلت اليها المرازبة والحكام . والسواد هي سهول بابل المنبسطة بجانب الفرات ، اطلق العرب عليها هذا الاسم ، لما فيها من الزرع والشجر والنخيل ، وهي متاخمة لشبه جزيرتهم الجرداء . فاذا خرجوا من ارضهم بدت لهم سهول العراق سوداء بزروعها واشجارها ، فسموها السواد . ولطالما طمعوا في مائها وعشبها يسلبون قراها ومزارعها ، ويعودون الى ديارهم غانمين . واشد العرب جرأة على الحدود الفارسية في السواد ، بنو ربيعة لنزولهم في اطرافه ، ولا سيما بعد ان اصاب البكريون

نصرا محليا على الفرس في يوم ذي قار . فتاهوا به على الدنيا فخرا وتغنت بامجاده شعراؤهم دهرا .

الاغارات الاولية

فلما صارت الخلافة الى ابي بكر بعد موت النبي ﷺ ، واخذ العرب يقدمون على حدود الروم في سورية ، وحدود الفرس في العراق ، كان احد فرسان بني بكر واسمه المثنى بن حارثة الشيباني ، يغير على السواد في رجال من قومه ، فبلغ خبره الى الخليفة الاول ، فدعاه اليه فاستعمله على السواد وكتب له بذلك عهدا ، فاسلم المثنى واسلم قومه معه .

ثم انطلق يوالي الغارات على اسفل الفرات . وزاده طمعا في دولة الفرس ان حالتها سيئة من سياستها الداخلية ، ولا قدرة لها على حماية الحدود . فاصاب في غزواته نجاحا سريعا نبّه خاطر الخليفة ، فأمر القائد خالد بن الوليد أن يسير إلى العراق . وكتب الى المثنى بان ينضم اليه ، ويعمل بامره . فاخترق خالد حدود العراق والتحق به المثنى بن حارثة ، فجاء الحيرة فدخلها صلحا ، ورضي اهلها بدفع الجزية ، وان يكونوا عيونا للعرب على الفرس موالاة لابناء جنسهم .

موت مملكة

وكان المالك على الفرس يوم دخل خالد ارض العراق (١٢هـ ـ ٦٣٣م) يزدجرد الثالث ، صعد الى العرش سنة ٦٣٢ ليشهد انهيار مملكة الساسانيين بعد ان استولى عليها الضعف ، وحان اجلها المحتوم .

وكان يحكم في تلك النواحي قائد من الفرس اسمه هرمز ، فلما انتهى اليه خبر خالد جمع جيشا والتقى العرب في كاظمة على مسافة يومين من الموضع الذي بنيت فيه البصرة في خلافة عمر بن الخطاب . فاقتتلوا في اليوم الاول ، وبارز هرمز خالدا في اليوم التالي ، فسطا عليه خالد وارداه . ثم التحم الجيشان فدارت الدائرة على الفرس فانهزموا تاركين اسلابهم للمسلمين . فاخذ خالد قلنسوة هرمز ، وهي من القلانس التي يلبسها ابناء البيوتات في فارس . قيل انها كانت محلاة بالجواهر ، وتبلغ قيمتها مائة الف درهم . وسميت هذه الواقعة بذات السلاسل لان جماعة من جنود الفرس اقترن بعضهم الى بعض بالسلاسل متعاهدين ان لا يركنوا الى الفرار .

وتابع خالد غاراته ففتح الانبار وعين التمر . ولكنه لم يلبث ان استدعي الى سورية لمحاربة الروم فاستخلف المثنى بن حارثة

على الفرات ، واخذ قسما كبيرا من الجيش وصار الى بلاد الشام .

النصر للعرب

ثم بعث يزدجرد جيشا لقتال المثنى ، فهزمه العرب في خرائب بابل . فاستدعى الملك رستم بن فروخ هرمزذ قائد القواد ، وحاكم خراسان . وهو الذي ساعد يزدجرد على بلوغ العرش انتقاما من المملكة آزرميدخت التي قتلت اباه . فاضطر المثنى ان يرتد بجيشه الصغير امام الكتائب الفارسية .

وكان ابو بكر قد توفي وصارت الخلافة بعده الى عمر بن الخطاب صاحب العزيمة الفولاذية ، فلما جاءه نبأ المثنى ، لم يغفل ساعة عن تلافي الخطب ، بل عقد لابي عبيد بن مسعود الثقفي ، وامره ان يذهب بتجريدة الى العراق ، فخالف التوفيق ابا عبيد في معاركه الاولى ، فانتصر على قائدين من قواد رستم هما جابان ونرسي ، فكسر الاول في ناحية الحيرة ، والثاني في كسكر جنوبي بابل .

موتوا او تظفروا

ولكن القوات الفارسية ما لبثت ان تجمعت فصعد ابو عبيد الى الشمال يتلقاها ليقطع عليها طريق الحيرة . فخطر له ان يعبر

الجسر بجيشه الى ضفة الفرات اليسرى تاركا النهر وراءه ، فعارضه بعض قواده فلم ينتصح . فاقبلت عليهم جيوش الفرس يقودها بهمن ، ومعها الافيال تطأ الرجال باقدامها وتلفهم بخراطيمها . فتضايق المسلمون وقصر عليهم المجال ، فتاخروا وبان النصر للفرس . ثم تلقى فيل من الافيال ابا عبيد فاقتلعه بخرطومه عن ظهر جواده وخبط به الارض وداسه بيديه .

فلما رأى العرب ما نزل بقائدهم دب الذعر في نفوسهم ، فهموا بالفرار فسبقهم الى النهر رجل من ثقيف ، وقد رأى ما اصاب ابن عمه ابا عبيد ، فقطع الجسر وقال لهم : « موتوا او تظفروا » . وقيل بان قطعه ابو عبيد بعد عبوره منعا للفرار . ثم اخذتهم سيوف الفرس وحرابهم فتبعثروا امامهم متبددين يلقي بعضهم بنفسه الى الفرات ، ويُقتل اخرون ، حتى ذهب منهم نحو اربعة آلاف بين قتيل وغريق .

ولو لم يقف المثنى بن حارثة على رأس بني بكر يحمي ظهور الهاربين ، لكانت الخسارة اعظم . ولكنه لبث في قومه يقاتل الفرس ويدافعهم حتى عقد الجسر ثانية وعبر المسلمون عليه فعبر هو وبنو بكر بعدهم مخضبا دامي الجراح .

واقعة الجسر

ووفدت فلول الهاربين الى المدينة تحمل خبر واقعة الجسر وتنعي ابا عبيد . فتنشط عمر الى ارسال النجدات غير متوان ،

يخطب في الناس ويحضهم على الجهاد . وجعل الجيش هذه المرة تحت قيادة المثنى .

وكان بهمن قد استدعي الى المدائن عاصمة الفرس ليقمع شغبا داخليا . فخلفه على الجيش مهران الهمذاني احد ابناء البيوتات .

ورابط المثنى في البويب قرب الحيرة ينتظر قدوم مهران بعساكره حتى اقبلوا وعبروا الجسر فالتقتهم جموع المسلمين تتلاحق بهم النجدات من جهات مختلفة وفيهم نصارى من النمر وتغلب جاؤوا يقاتلون العجم حمية مع ابناء قومهم ، فرجحت كفة العرب ، واستطالوا على الفرس .

فاسرع المثنى الى الجسر فقطعه ليمنع العدو من الفرار ، فحارب الاعجام مستميتين حتى تقطعت جيوشهم ، وهلك قائدهم مهران (١٤هـ ٦٣٥م) .

وخلا الجو للعرب بعد تشتت العساكر الفارسية فاكتسحوا جزيرة الفرات ودجلة ، وملكوا جميع ما بين النهرين .

التعبئة في المدائن

ثم علم المثنى ان رستم يعبيء الجحافل في المدائن وانه اتفق مع خصمه الفيرزان احد عظماء الفرس . فاسرع الى المدينة يطلع الخليفة على الامر ، فامده عمر بقوات كبيرة .

وجعل القيادة لسعد بن ابي وقاص احد الصحابة القدماء ، لخطورة الموقف ، ولما لاصحاب النبي من التاثير في نفوس المسلمين . على ان سعدا عرف نصيحة المثنى وسداد رأيه حين اوصاه بان ينتظر قدوم الفرس بدلا من ان يزحف الى لقائهم في ارضهم .

ولم يكن المثنى قد شفي بعد من جراحه التي اصابته يوم الجسر ، لانه لم يعطها الراحة الكافية لتندمل ، فانتقضت عليه فاودت بحياة هذا الفارس الشجاع الذي جاهد في سبيل الاسلام ثلاث سنوات متواليات ، وفتح له على الفرات الفتح المبين . مات قبل ان يشهد واقعة القادسية ، وسقوط المدائن وعرش ساسان .

في القادسية

اما رستم فسار بجيشه نحو الحيرة (١٦هـ-٦٣٧ م) وكان المسلمون قد جلوا عنها لما علموا باقترابه . فعسكر القائد الفارسي في القادسية على مقربة منها . وعسكر المسلمون بين القادسية والعذيب كما اشار عليهم المثنى قبل وفاته .

واختلف المؤرخون في عدد الجيش العربي الذي شهد القادسية ، ولكن يؤخذ من كلام المسعودي وابن خلدون انه كان بين الستين والثمانين الفا . واتفقوا على ان جيش الفرس عدده مائة وعشرون الفا معهم ثلاثون فيلا ، الا ان ابن خلدون يجعل عدده ستين الفا .

مفاوضات سلمية

وحاول رستم في بدء الامر ان يصرف العرب عن بلاده بالمفاوضات السلمية ، وكانه كره محاربتهم بعد ان رأى تفسخ جيشه وضعفه في المعارك السابقة ، فكتب الى سعد يسأله توجيه بعض اصحابه اليه . فبعث جماعة من اصحاب الرأي بينهم المغيرة بن شعبة . فهددهم رستم وتوعدهم ليبعث الهيبة في نفوسهم . ثم وعدهم بان يعطيهم ما يرضيهم اذا انصرفوا الى بلادهم ، فاصروا على كلماتهم الثلاث : الاسلام ! واما الجزية او الحرب . فغضب رستم من جرأتهم ، وامر باخراجهم .

وكان قد مضى على قدومه اربعة اشهر وهو لا يباشر حربا . فلما انقطعت المفاوضات التحم الجيشان بعد ظهر ذات يوم ، وحمي القتال .

معركة الفيلة

ودارت المعركة اربعة ايام ، فتميز اليوم الاول منها برشق النبال ، وعراك الافيال . فان الفرس اطلقوها على ميمنة الجيش العربي وميسرته كما تطلق الدبابات اليوم ، فتلقاها الرماة بالسهام ، ولكنها كانت شديدة الوطأة فتباعدت عنها الخيل وتضايق منها المقاتلون ولا سيما بنو بجيلة ، فارسل سعد الى بني اسد بان يسندوا بجيلة . فثبت بنو اسد ودافعوا

دفاع الابطال فدارت الرحى عليهم . وتشبهت بهم بنو كندة فاقتحمت وعلى راسها الاشعث بن قيس . ثم ارسل سعد الى عاصم بن عمرو سيد بني تميم ان يتدبر حيلة لهذه الافيال . وكان صاحب رأي . فاشار على الرماة بان يشاغلوا راكبيها بالسهام ، وبعث جماعة جاؤوها من خلفها وقطعوا حُزمها ، فتساقط اصحابها عن ظهورها وتساقطت صناديقها فنفرت عارية تدوس من وقع تحت اقدامها ، فتنفس بنو اسد وانفرجت بجيلة .

نجدات من سورية

وفي اليوم الثاني جاءت النجدات من سورية ، بعد اندحار الروم في اليرموك ، يتقدمها القعقاع بن عمرو ، فازداد العرب نشاطا وحمية . وامتاز القعقاع في هذا اليوم بشجاعته وسداد رأيه . فانه بارز جماعة من فرسان الاعاجم فقتلهم واحدا واحدا . واشار بان توضع البراقع على وجوه الابل وسيرها بركابها عشرة عشرة ، تدفعها الفرسان بجيادها ، فاندفعت على خيول الاعداء هادرة هائجة فبددت شملها وبعثرتها . ولم يخرج الفرس هذا النهار افيالهم لان صناديقها تكسرت ، فكابدوا من وطأة الابل اعظم مما كابد المسلمون من الافيال في اليوم الفائت .

واستمر العراك دائرا حتى انتصاف الليل . قال الطبري وابن خلدون : « كانت خسارة المسلمين الفين بين قتيل وجريح ، وكانت خسارة المشركين عشرة آلاف » .

مخطط جديد

وبات القعقاع ليلته يوصي اصحابه اذا طلعت الشمس بان يقبلوا مائة مائة يريد ان يجدد بذلك رجاء الناس ، وينشط قواهم . فلما اسفر الصبح اقبل اصحاب القعقاع مائة بعد مائة ، ففرح المسلمون وقالوا جاء المدد ، وارتفع تكبيرهم .

ثم لحق بهم هاشم بن عتبة باصحابه ، يبعثهم سبعين سبعين مقتديا بالقعقاع . وفيهم قيس بن المكشوح المرادي من الفرسان المعدودين . فاغتبط المسلمون لهذه الامداد ، واشتدت عزائمهم .

واما الفرس فانهم نظموا صفوفهم واعادوا الصناديق على ظهور الافيال ، واقاموا رجالا حولها يمنعون تقطيع حُزمها وخلفهم فرسان يحمون ظهورهم . والظاهر ان خيل المسلمين تعودت مرآها فلم تنفر منها هذه المرة .

يوم هائل

وكان اليوم الثالث عظيم الهول ، التحم فيه الجيشان على السواء . وابلى قيس بن المكشوح وعمرو بن معدي كرب

فارس زبيد ، بلاء حسنا شهدت لهما به الفرسان . وزحفت الافيال تفرق الكتائب وتبددها ، وفيها فيلان احدهما ابيض والآخر اجرب كانا اشدها وطأة واعظمها بطشا . فارسل سعد إلى القعقاع وعاصم أبي عمرو أن يتدبرا أمر هذين الفيلين . فحملا على الأبيض برمحين لينين ، ووضعاهما في عينيه فقتل الفيل وراكبه . ثم حملا على الأجرب ، ففقئت عينه وقطع خرطومه ، فمر بين الفرسان شارداً حائراً فاتبعته الأفيال خارقة صفوف الأعاجم ، متجهة نحو المدائن ، وهلك جميع ركابها .

واحتدم القتال فوصل الليل بالنهار . ويسمي العرب هذه الليلة بليلة الهرير لشدة ما ارتفع فيها من الصياح والجلبة ووقع الحديد على الحديد .

الى رستم

وخاف سعد ان يؤتى المسلمون ليلا من ورائهم بطريق مخاضة اسفل السكر فبعث اليها جماعة من الفرسان تحميها ، فاجتازها بعضهم والتفوا على الاعاجم من خلفهم فارتاع هؤلاء لهذه المباغتة . ثم زاحفهم القعقاع وقومه ، ثم حمل بنو اسد فالنخع فبجيلة فكندة . وكبر سعد ثلاثا فتلاحق المسلمون ، واختلط الجمع بالجمع فما كان الا صليل السلاح .

وانقطعت الاخبار والاصوات عن سعد حتى منتصف الليل فسمع صوت القعقاع في جماعة من الرؤساء يتنادون : الى رستم . وما اشرق صباح اليوم الرابع حتى كان القعقاع وعمرو ابن معدي كرب وطليحة بن خويلد الأسدي وهلال بن علتفة وسواهم من الابطال يشقون قلب الجيش الى رستم ، فقاتلهم عنه الفيرزان والهرمران ، ثم انفرج القلب عن قائد القواد .

وكان رستم جالسا على سرير ومعه جماعة من اهل مشورته ، وفوقه طيارة (مظلة) ترد عنه الشمس . فهبت ريح عاصفة فقلبت الطيارة عن السرير فقام عنه يستظل بظل بغل عليه حمل ، فتناولته سيوف فرسان العرب ورماحهم فوقع الى الارض وقد امتلأ بدنه طعنا وضربا .

سقوط الراية العظمى

تضعضعت جيوش الفرس بعد مقتل قائدها وانهزمت شر هزيمة ، وسقطت في ايدي المسلمين ، الرابة العظمى ، رمز المملكة المقدس ، تلك الراية التي يتذكر بها الفرس تحرير بلادهم على يد بطلهم الاسطوري افريدون ، راية الحداد كاوي « درفشي كاويغاني » وهي غنيمة كبرى لانها كانت محلاة بالجواهر الكريمة .

وانتهت معركة القادسية بانهيار كتائب الفرس ، لتنهار بعدها

مملكة الا كاسرة . وطبيعي ان يستهين العرب بالعجم بعد هذا الانتصار العظيم الذي ما كانوا يحلمون به في جاهليتهم . فنبعوهم الى عاصمتهم المدائن وهي عبارة عن سبع مدن قائمة على ضفتي دجلة . فخاف يزدجرد على نفسه ، فترك العاصمة الى حلوان يحتمي بقلعتها . فلما بلغ العرب المدائن وعاينوا الايوان كبروا وقالوا : هذا ابيض كسرى . هذا ما وعد الله . فحاصروها ثلاثة اشهر ثم اقتحموها خائضين دجلة بخيولهم واستولوا عليها سنة ٦٣٧م بعدما جلا عنها الجيش والسكان . فدخل سعد القصر الابيض ، وصلى في الايوان .

ثم جمع ذخائر الملوك وغنائم العاصمة ، فبعث الى عمر بن الخطاب بتاج كسرى وحليته وثيابه وسيفه ، وسيف النعمان ابي قابوس .

وكان سيفه هناك منذ قتله كسرى . وقسم الغنائم بعد ان اخذ خمسها فبلغت حصة الفارس اثني عشر الف درهم وكانوا ستين الف فارس ليس فيهم راجل ، كما يقول ابن خلدون .

وتتبع المسلمون بقايا الفرق الفارسية فسحقوها في جلولاء قرب نهوند سنة ٦٤٢م فلجأ ملك الملوك الى مرو حيث وجد مقتولا سنة ٦٥١ .

هكذا زالت دولة الفرس وتم النصر للعرب .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٣٠١٤٠٤

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلاميّة

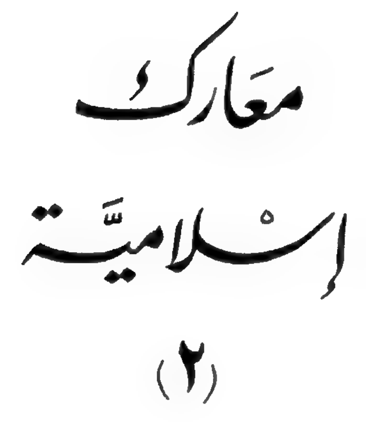
معارك إسلاميّة

(٢)

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
اسلامية

سلسلة
مختارات
اسلامية



دار الفكر اللبناني



إمتداد فتح الأندلس
في أعماق فرنسا

عبد الرحمن الثقفي وشارل مارس على ضفاف اللوار

ودع موسى بن نصير ارض الاندلس طاعة لامر الخليفة ، وودعها طارق بن زياد قافلا معه الى سورية .

وكان موسى قد خلف ابنه عبد العزيز واليا على الاندلس ، فجعل مقره في اشبيلية ليبقى قريبا من البحر لان المسلمين كانوا لا يزالون على حذر من هذا النصر العاجل الذي تسنى لهم ، فلم يأمنوا ارتداد القوط عليهم بابناء الولايات الشمالية . فآثر صاحب السلطان ان يكون سريره قرب الشواطىء فلا ينقطع خط الصلة بينه وبين افريقية . على ان عبد العزيز كان حسن السياسة والتدبير ، فحين اخذ على عاتقه عمل الاندلس عقد معاهدة صلح مع تدمير ملك القوط اعترف فيها تدمير بانه من عمال الخليفة ، ورضي بدفع الجزية . واعترف له عبد العزيز

بملكه على بلنسية واوريولة وسواهما ، وعاهده على ان لا يعتدي المسلمون على رعيته ، ولا يعارضوهم في دينهم . ثم اخذ عبد العزيز يجبي الضرائب ويرسلها الى دمشق .

الانحناء القسري

ولكن الخليفة سليمان بن عبد الملك كان كارها له ناقما على ابيه ، فدس عليه من اثار به الجند فقتلوه سنة ٩٨هـ (٧١٦م) وهو في جامع اشبيلية ، متهمين اياه بانه جعل باب مجلسه صغيرا لينحني له الناس ساجدين اذا دخلوا عليه . وقد فعل هذا ارضاءء لزوجه الاسبانية ارملة رودريك ، فانها طلبت منه ان يسجد له الناس كما كانوا يسجدون لبعلها الاول ، فلم يستطع رد طلبها لشدة شغفه بها ، فلجأ الى هذه الحيلة ، لئلا يجد المسلمون في صنيعه بدعة اذا حملهم جهرا على السجود .

ولاة متعاقبون

فلما قتل بقيت الاندلس نحو ستة اشهر وبنو امية لا يبعثون اليها واليا ، فاجتمع زعماء البربر واختاروا ايوب بن حبيب اللخمي ، وهو ابن اخت موسى بن نصير ، فجعل سريره في قرطبة ، وبنى قلعة ايوب على خرائب بيبلس . الا انه ما كاد

يستقر في ولايته حتى عزله محمد بن يزيد صاحب افريقية ، وولى مكانه الحر بن عبد الرحمن الثقفي . وكانت الاندلس تابعة منذ الفتح لافريقية ، وولاتها اما يرسلهم عامل افريقية ، واما يختارهم الخليفة بنفسه .

وكان الحر فظا قاسيا ، اساء معاملة المسلمين والمسيحيين على السواء فكثرت فيه الشكايات حتى عزله الخليفة ، وولى مكانه السمح بن مالك الخولاني . وكان الحر قد غزا الفرنجة في مدة ولايته ، فاجتاز البيرينه واستولى على نربون وضمها الى الاندلس .

وقعة البلاط

فاقتفى السمح اثر سلفه ، فجهز جيشا لجبا الى تولوز وضرب عليها الحصار الخانق فكادت تستخذي اليه لو لم ينجدها الكونت اودو دوق غسقونيا بقوات ساحقة فنشبت معركة طاحنة في ١١ ايار ٧٢١م (٩ ذو الحجة ١٠٢هـ) فقتل السمح ، وتمزق جيشه ، ولو لم يتداركه القائد الحازم عبد الرحمن الغافقي فيجمع شمله جهد المستطاع ، ويرتد به الى نربون بمهارة رائعة ، لكانت الخسارة اعظم . ويقول كليمان هيوار ان هذه المعركة حدثت على طريق روماني قديم فعرفت بغزوة بلاط الشهداء . وروى

صاحب نفح الطيب عن ابن بشكوال ان هذه الوقعة مشهورة عند اهل الاندلس بوقعة البلاط .

العرب على مشارف الرون

واكبر الجند شجاعة عبد الرحمن وحزمه ، فاختاروه لولاية الاندلس . ثم جاءه تثبيت من الخليفة . فقام بها خير قيام . الا انه لم يسلم من الحساد فراحوا يرمونه بالاسراف ويشكونه الى والي افريقية حتى عزله وولى مكانه عنبسة بن سُحيم الكلبي ، فاستقامت به الاندلس وضبط امرها ، ثم غزا بنفسه ارض الفرنجة ، فاغار على شاطىء الرون حتى بلغ ليون . وفيما هو يجتاز النهر راجعا اصابه سهم فقضى على حياته .

عودة عبد الرحمن

وتتابع بعده الامراء حتى عادت الولاية الى عبد الرحمن الغافقي ، فاستبشر به اهل الاندلس ورحبوا بقدومه . فنشط في بدء امره الى تدبير البلاد وتعهد شؤونها بالرعاية والعدل . فجبى الضرائب على اساس المساواة . واصلح الجيش منظما فرقة وقواده . وحصن المواقع والثغور الشمالية . ثم اخذ يدعو الى جهاد الفرنجة ، ويحشد لهم الجيوش .

وكان عثمان بن ابي نسعة الخثعمي احد زعماء البربر عاملا على الولايات الشمالية من قبل الامير عبد الرحمن ، فحدثته نفسه بان يستقل بولايته ، وينبذ طاعة اميره لما بين العرب والبربر من الخلاف والتنافس .

فقد كان البربر يعتدون بانفسهم لان الفاتح منهم والفتح تم على يدهم ، ويرون انهم اولى من غيرهم بالاحكام . غير ان العرب لم يفسحوا لهم في المجال ، بل استاثروا دونهم بالجا بالجاه والمناصب ، فحقدوا عليهم ، وناصبوهم العداء .

نزعة استقلالية

وسمت نفوسهم الى الاستقلال بالولايات التي كان امراء العرب يستعملونهم عليها ، كما سمت نفس ابن ابي نسعة ان يستقل بالولايات الشمالية ، فحالف الدوق اودو وهادنه ليستعين به على امير الاندلس . فازوجه الدوق ابنته لمباجية ليأمن به خطر الجنوب اذا هاجمه العرب ، ويستنجده على خطر الشمال اذا عاود الكرة عليه عدوه شارل مارتل ، فهاجمه ليزيل سلطانه .

ولكن عبد الرحمن لم ينم لهذا التحالف ، ولا ارتضى بمهادنة الدوق ، فبعث جيشا من قبله يحتل الولايات الشمالية ، فقاومه عثمان امام عاصمته الباب (بيسروا) على البيرينه ، فلم يستطع

الثبات امامه فولى هاربا ، فطارده الجيش حتى ادركه عند عين ماء في الجبال ، فدافع ابن ابي نسعة عن نفسه مستبسلا . ثم رأى زوجته لمباجية تساق سبية ذليلة ، فاستولى عليه اليأس ، فالقى بنفسه في هوة عميقة قادته الى دار القرار .

المطاردة حتى بوردو

وذعر الكونت اودو حين بلغه ما نزل بصهره وحليفه ، فنادى بالنفير ليغزو الولايات الشمالية . فبادره عبد الرحمن بجيش لجب ، يبلغ ثمانين الفا او يزيد ، فاجتاز البيرينه ، وزحف الى اوش وبازاس ، فتبعه اودو يحاول رده ، فهزمه عبد الرحمن وطارده الى عاصمته بوردو ، فتحصن فيها ، الا انها لم تغن عنه شيئا فسقطت بيد الغازي ، وهرب الكونت يستجير بعدوه شارل مارتل . وكانت جموع الفرنجة اخذت تضطرب في الشمال وتحس بالخطر الداهم بعدما اصاب فرنسا الجنوبية ما اصاب . فقد وقع معظمها في ايدي الفاتحين .

التعبئة لمواجهة العرب

وكان الملك عليهم يومئذ تيودوريك الرابع . ولكن شارل مارتل وزير القصر هو صاحب السلطة الحقيقية ، يسيطر بها على

الملك المتوج ، واليه يرجع في معضلات الامور ، فهب يحشد العساكر من الفرنجة والقبائل الجرمانية المرتزقة حتى تأتي له جيش عظيم ، ولكنه مختل النظام ، فاكثره لم يزل على الفطرة يكتسي جلود الذئاب ، شعوره الشقر منسدلة على اكتافه العارية ، فيه شجاعة وجرأة على غير تدريب وترتيب .

وانضم اليهم اودو بجيشه متفقا مع عدوه على حرب المسلمين . والمسلمون في تقدم مستمر ، تتساقط امامهم القلاع والمدن ، فما تردهم الاسوار والحصون . يزحفون من الجنوب الى الشمال فيغيرون على الجانب الغربي ، يخترقون الجبال ، ويعبرون الانهر ، ويمتلكون الجسور ، فيفتتحون اقطاعة غسقونيا بجملتها ويزيلون عنها ولاية الدوق .

تور بيد العرب

ثم ينفذون صعدا في الشمال الغربي ، فيبلغون بواتيه ، فيهاجمونها ويستولون عليها ثم يقتحمون قلب فرنسا مغيرين على ضفاف اللوار ، فتعترضهم تور ، فيلقون عليها الحصار ، فلا تلبث ان تستكين لهم فيصيبها ما اصاب اختها بواتيه بالامس . ويحدق الخطر باورليان ، مهددا باريس . وشارل مارتل يسير بجيشه متباطئا ليدعهم يوغلون في البلاد ، فيبتعدون عن قواعدهم . فلما سقطت تور كان جيش الفرنجة قد بلغ اللوار ،

وجيش المسلمين يتهيأ لعبوره ، فتراجع عبد الرحمن الى السهل المنبسط بين تور وبواتيه ليتسع عليه المجال ، .وعبر شارل النهر غربي تور ، فالتقى الجيشان في تلك البقعة الفسيحة التي قدر لها ان تقرر مصير اوربة ، وتقف عندها .

اسباب التوقف

جيشان تعادلا في الجرأة والاقدام ، وتعودا خوض المعارك وتحدي كالحات المنايا . وتعادلا في كثرة العدد وحسن القيادة ، فان شارل مارتل لم يكن دون عبد الرحمن خبرة في الحروب ، ودهاء في وضع الخطط ، وتسيير حركاتها . الا ان الجيش العربي كان اوفى تدريبا من جيش الفرنجة . فقد خلا من امثال العصابات الجرمانية التي كانت تجهل الحروب المنظمة مع ما فيها من قوة وبطش وميل غريزي الى الكفاح . على ان وجود البربر فيه اضعف معنوياته واخل بعرى اتحاده وتضامنه . كانوا يكرهون العرب وملوا الحرب بعد الغنائم فودوا لو يرجعون الى اوطانهم ، يتمتعون في طمأنينة النفس بما اصابوا من سبي ومال . وهم لا سابقة لهم في الاسلام وليس لهم ما للعرب من مثل اعلى يدفعهم الى الجهاد لرفع الراية العربية واظهار الدين الجديد .

اختلاف نفسية الجيش

وكان العرب يجرون وراءهم من الغنائم اوفر مما يجر البربر . ولكن نشوة الفتح وعز الاسلام كانا يجددان الحمية في نفوسهم

لمتابعة الغزو ، وموالاة الجهاد ، فاختلفت نفسية الجيش ، من هذه الناحية ، باختلاف اهواء عنصرية . وان اتفق العرب والبربر على استصحاب الغنائم معهم ، وابوا ان يتخلوا عن بعضها او يتركوه في المدن التي افتتحوها فيخففوا عنهم اثقالها ، فقد شغلت هذه الغنائم قسما من الجيش لحراستها . وكانت عظيمة جدا ، فيها النساء والاولاد والاموال : غنائم مدن وقرى عديدة افتتحوها في طريقهم واقتسموا اسلابها . ولم يفت عبد الرحمن ضرر وجودها في الجيش وهو يتأهب لخوض معركة طحون ، فحاول اقناعهم بترك بعضها ، فرفضوا وكادوا يشغبون عليه ، فسكت عنها على مضض ، وخال بعض الشراهون من بعض .

حشد ومارتل

وكانت مواكب الفرنجة في كثرتها لم تزل على طراوتها ما قاتلت بعد في موقعة تنهك قواها ، وتستنزف من رجالها وعتادها ، الا ما كان من عساكر الكونت اودو ، وهي لا تقاس بالجيوش العديدة التي حشدها شارل مارتل . مع ان جيش العرب في مجموعة قاتل في عدة مواقع قبل معركة بواتيه ، فبذل غير قليل من قواه ، ولقي اشد النصب ف الزحف واجتياز المدن والانهر والجبال .

ولكن لم يفتر نشاطه ، ولا ضعفت عزائمه لولا تلكؤ

البرابرة ، لان النصر تلو النصر زاده حماسة واندفاعا ، وبعث فيه قوة غريبة ، فما اطل عليه جيش الفرنجة وعسكر ازاءه حتى باداه عبد الرحمن بالهجوم ، فحمل الجيش العربي دفعة واحدة ، فاستقبله شارل مارتل بحملة معاكسة فاشتبك الفريقان ودارت رحى القتال .

موت البطل

وكافح العرب والفرنج كلاهما بشدة واستبسال ، فلم يلح بارق النصر لاحدهما حتى هبط الليل ، فافترقا على تكافؤ لا غالب ولا مغلوب . وفي اليوم التالي عادوا الى التلاحم ، فوجه الاكوتيون اصحاب الدوق حملتهم على حرس الغنائم . وهذه غنائم بلادهم فيها نساؤهم وابناؤهم وبناتهم ، ونفائسهم . فاخترقوا خطوط دفاعها ، واوقعوا الذعر فيها ، فارتفعت الجلبة وتعالى الصياح ، فتسارعت فرسان البربر للدفاع عن اسلابها منفصلة عن الجيش المقاتل ، وتلاحقت بها فرسان من العرب ، فانثغرت الصفوف وانكشفت مقاتلها للعدو ، فاحس عبد الرحمن بنزول الكارثة فبادر يلم الجيش من ناحية ويدافع عن الغنائم من ناحية اخرى ، معرضا نفسه لاسنة الاعداء في تحوله من مكان الى اخر ، حتى سقط وقد خرقته الحراب .

فارتبكت العساكر الاسلامية بعد مقتل قائدها ، وانهارت

عزائمها ، فصارت تكافح على غير نظام ، يائسة متفككة الاوصال . وادرك شارل مارتل ما حل بها ، فرماها بنخبة فرسانه وشدد عليها الضغط ، فقاتلت صابرة مستميتة ، وفقد العرب في هذه المعركة خيرة ابطالهم وساداتهم وفجع الجيش بالعدد الاكبر من رجاله ، حتى أرخى الليل أزراره بين العسكريين فافترقا على غالب ومغلوب . وانتظر المسلمون هدأة الليل فتقهقروا تحت أستاره ، قافلين إلى مواطنهم تاركين للفرنجة ما بأيديهم من الغنائم .

موقعة الزّاب

عاد العرب والفرس فالتقيا للقتال في ارض العراق ، لا في القادسية كالمرة الاولى ، ولكن قرب الموصل ، على ضفاف الزاب الاعلى ، النهر المجنون ، كذا ينعتونه لسرعة جريانه . التقى الغالب والمغلوب لا على توحيد وشرك كما التقيا منذ ست عشرة سنة ومائة ، بل على اسلام جامع وانما تشوبه سياسة مفرقة . فقد ترك الفرس دينهم القديم ، واهملوا لغتهم الاصلية ، لينتحلوا الدين الجديد ، ويتعلموا اللغة العربية ، رجاء ان يجدوا المساواة عند العرب المنتصرين ، اذا جمعهم اليهم دين واحد ولسان واحد .

ولكن العنصرية والتمييز استمرت في النفوس . وساء الاعاجم ان يروا من خلفاء بني امية ايثاراً للعرب ، وتعصبا على العجم . فقد كان المولى منهم يساق الى الحرب ماشيا لا يعطىَ غنيمة ولا فيئا . فتولد في نفوسهم كره شديد للعنصر العربي .

فتألفت جماعة الشعوبية وتواطأ غير المسلمين منهم على اذية الخلافة نفسها والدس للدين . ولكنهم كانوا ضعافا في شباب الدولة الاموية فلم يرتفع لهم صوت حتى آنسوا الضعف في جسمها ، والانحلال في اعضائها ، فثار الفرس عليها ، ونصروا بني العباس في موقعة الزاب على امل ان يكونوا لهم خيرا من الامويين وابقى .

الاحزاب المتألبة

ولم تكن الشعوبية وحدها تسعى لاسقاط الامويين ، بل تألب على مناوأتهم احزاب مختلفة الاهواء ترمي الى هدف واحد ، كالخوارج والزبيريين والعلويين ، فكان العصر الاموي عهد ثورات وحروب وفتن .

ولم يلبثوا أن تسلل الضعف إليهم لتفاقم الثورات من جهة ، ثم لانغماسهم في الترف من جهة أخرى ، وقلة عنايتهم بتدبير المملكة وانتقاء عمالها وانتشار الشقاق بين أمرائهم بسبب نظام ولاية العهد فإن الخليفة كان يعقد الولاية في حياته لاثنين أو ثلاثة من أولاده أو لولده وأخيه ، فإذا استخلف ولي العهد الأول

استبد بالأمر وحاول خلع الثاني لينقل الولاية إلى بنيه ، فِعل هشام بن عبد الملك فإنه بالغ في التشنيع على إبن أخيه الوليد بن يزيد ، ورميه بالكفر والفسوق ، وتنفير الناس عنه ، لأن ولاية العهد كانت له من بعده ، وهو يريدها لإبنه .

فاساء الى سمعته حتى اذا انتهت اليه الخلافة بعد هشام ، احاطت بها الثورات والدسائس يحوك خيوطها الاهل والاقرباء ، فقتل الخليفة بعدما قل ناصروه ، فكان مقتله شؤماً على بني امية لان الناس طمعوا فيهم ، واجترأوا عليهم ، فاخذوا يثيرون بعضهم على بعض ليزيدوهم ضغينة واختلافا .

فلم يقم خليفة بعد الوليدُ الا خرج عليه بعض ابناء عمه ، وحاربوه ونازعوه الامامة ، فاضفوا سلطانهم بشقاقهم ، واعانوا اعداءهم على كسر شوكتهم وازالة ملكهم .

فاجتمعت عليهم الاحزاب المختلفة مع ما بينها من تباعد الرأي والسياسة ، فكان سبب زوال ملكهم كما قال بعض الامويين : اختلاف فيما بيننا واجتماع المختلفين علينا .

قمع الفتن

وقد استطاع الامويون ان يقضوا على حزب الزبيريين في خلافة عبد الملك ابن مروان ، وتمكنوا من قمع فتن الخوارج

المتتابعة وتقتيل زعمائهم ، ولكنهم لم يقووا على اخماد جذوة التشيع للعلويين ، ومنع اضطرامها في نفوس جماعات من الصحابة والتابعين ، مهاجرين وانصارا ، وامتداد لظاها مندلعة الالسن في العراق وخراسان ، ولا سيما بعد مقتل الحسين بن علي في كربلاء ، فقد استفظع الناس اجتراء الامويين على ابن بنت الرسول ، فتعاظم عدد المتشيعين ، وازدادوا حماسة وتعصبا لعلي وابنائه ، ونقمة على بني امية .

الا انهم لم يحفظوا وحدتهم بل انقسموا فرقا متعددة اعظمها الامامية وهي التي تحصر حق الامامة بابناء فاطمة بنت النبي . ثم الكيسانية والراوندية ، وهم القائلون بان الامامة بعد الحسن والحسين تحولت الى اخيهما محمد بن الحنفية ، ثم انتقلت من بعده الى ابنه عبد الله ابي هاشم . فخالفوا بذلك الامامية التي بايعت عبد الله بن حسن بن الحسن ابن علي .

إمامة بني عبّاس

وكان ابو هاشم عالما جليلا فوفد يوما على سليمان بن عبد الملك وهو خليفة ، فرأى منه سليمان فصاحة ولسناً ، وقوة وعلما ، فخافه لعلمه بطمعه في الخلافة ، فارسل اليه من يدس له السم في اثناء رجوعه الى المدينة .

فلما شعر ابو هاشم بالسم وهو في بعض الطريق عرج على

الحُـميمة من اعمال البلقاء في الشام وفيها ابن عمه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، فنزل عنده ، واوصى له بالخلافة من بعده مخافة ان يموت وتضيع البيعة وهو بعيد عن اهله .

فانتقلت الامامة من العلوية الحنفية الى بني العباس ، والتف حولهم الكيسانية والراوندية عملا بوصية ابي هاشم ، يبثون لهم الدعوة من العراق الى خراسان .

بدء الدعوة العباسية

وكان بدء الدعوة العباسية سنة ١٠٠هـ (٧١٨م) في خلافة عمر بن عبد العزيز . فان محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بعد ان اخذ الوصاية من ابي هاشم انشأ يؤلف الجماعات السرية ، ويوجهها الى العراق وخراسان ، وجعل على رأسها ميسرة احد زعماء الدعوة العلوية ، فاختار اثني عشر نقيبا ، وجعل تحت ايديهم سبعين رجلا ياتمرون امرهم ، واوصاهم ان يولوا وجوههم شطر خراسان لانها اصلح من غيرها لنشر الدعوة .

وقد احسن محمد باختيار خراسان لان الامصار العربية كانت تشغلها الاحزاب السياسية وكل حزب يسعى لنفسه . اما خراسان فان الفرس فيها يكرهون العرب وبني امية ولكنهم لا يطمعون في الخلافة .

وهم شيعيون في كثرتهم ، غير انهم لا ينفرون من بني العباس لانهم هاشميون من آل البيت . وهناك الشيعة الراوندية صاحبة النفوذ تناصرهم اشد المناصرة لان الوصاية انتقلت اليهم بعد موت ابي هاشم .

وهناك ايضا قبيلة بني خزاعة العربية ، تشيع من عهد طويل للهاشميين وتتعصب لهم ، وهي تملك في خراسان قرى ومزارع كثيرة يمكن استخدامها للثورة ونشر الدعوة .

مركز الدعوة

فسار ميسرة الى الكوفة وجعلها مركزا للدعوة ، واختار مرو عاصمة خراسان ، مكان نشرها فوجه اليها رجاله ، فراحوا يبثون الدعوة سرا سنة ١٠٢هـ متظاهرين بالتجارة وطلب الرزق ، فتأدى خبرهم الى عامل خراسان ، فاستدعاهم وسألهم عن امرهم فقالوا : نحن اناس من التجار . وانكروا ان يكونوا دعاة . ثم جاء بعض اهل خراسان من ربيعة واليمن فشهدوا فيهم شهادة حسنة وكفلوهم عند الوالي فخلى سبيلهم .

وفي سنة ١٠٥هـ (٧٢٣م) قدم الكوفة بكير بن ماهان ، فلقي فيها ميسرة وغيره من الدعاة ، فذكروا له امر دعوة بني

هاشم فاتفق معهم وانضم اليهم ، فلما توفي ميسرة اقامه محمد بن علي مكانه على رأس الدعاة في العراق وخراسان ، فشرع يبعث الرسل والنقباء الى الولايات .

ابو مسلم الخراساني

ولكن الدعوة العباسية لم يكتب لها النجاح الا على يد ابي مسلم الخراساني ، وان كان الذين تقدموه مهدوا لها السبيل وهيأوا الافكار لقبولها . وابو مسلم هذا نشأ في الكوفة يتيم الاب فتعهد تربيته عيسى بن معقل العجلي ، فاشتراه منه بكير بن ماهان باربع مائة درهم سنة ١٢٤هـ (٧٤١) وضمه اليه .

وفي السنة التالية توفي محمد بن علي فانتقلت الامامة الى ابنه ابراهيم

. فوجه ابراهيم سنة ١٢٦ بكير بن ماهان الى خراسان ليدعوا الناس الى مبايعته بعد ابيه ، فسار بكير الى مرو وجمع النقباء ومن بها من الدعاة ، فنعى اليهم الإمام محمدا ودعاهم الى مبايعة ولده ابراهيم ، فبايعوه وبعثوا اليه بالهدايا والنفقات .

ثم توفي بكير بن ماهان سنة ١٢٧هـ ، فتوجه من الدعاة الخراسانيين قحطبة بن شبيب وسليمان بن كثير ولاهز بن قريط الى مكة ومعهم ابو مسلم فلقوا ابراهيم الامام بالهدايا وقدموا له ابا مسلم ، فاعجبه ذكاؤه ومعرفته ، وتحمسه للدعوة العباسية ، فبعثه سنة ١٢٩هـ (٧٤٦م) الى خراسان وجعله رأس الدعاة .

المضرية واليمانية

وكانت خراسان تابعة للعراق يرجع عمالها بشؤونهم الى امير البصرة ، وفيها قبائل عربية من مضر وربيعة وازد اليمن ، تتنافس كما كانت تفعل قبل الاسلام ، وتتنازع السلطان والنفوذ . وقد انحازت ربيعة الى اليمانية مع انها نزارية عدنانية كمضر الا انها كانت تكره المضرية على ما بينهما من النسب ، لان مضر كانت تفاخرها بالنبوة والخلافة ، فسخطت عليها ، لانه لا نبي منها ، ولا خلافة فيها .

وناصرت اليمانية وشدت ازرها في حروبها مع المضرية ، فاصبحت خراسان موطنا للمنافسات ال القبلية فاذا كان عاملها مضريا رفعت بنو تميم والرباب راسها ، واذا كان يمانيا اعتزت قبائل الازد واعتزت ربيعة معها .

على ان عامل خراسان لم يكن يطيب له مقام فيها الا اذا كانت عشيرته قوية تقوم معه في وجه من ينتقض عليه . فقد ولى هشام بن عبد الملك نصر بن سيار الكناني على خراسان وليست له فيها عشيرة ، فاجتمعت عليه افناء اليمن وربيعة تحاربه لتعصبه للمضرية .

الحرب بين نصر وبين ربيعة واليمن

فلما جاء ابو مسلم خراسان كانت الحرب ناشبة بين رجال

نصر بن سيار من جهة ، وربيعة واليمن من جهة اخرى ، وعلى راسها جديع بن علي الكرماني .

وكان نصر قد اساء اليه وحبسه ، فغضبت الازد وتعصبت له ، وكلمت فيه نصرا ولم تزل تسعى لخلاصة حتى اطلق سبيله ، فراح يؤلب قبائل اليمن وربيعة للفتنة عليه .

فانتهز ابو مسلم الفرصة فنزل في ضواحي مرو واخذ يكيد للعدوين عاملا في زيادة الخلاف بينهما ، يخدع المضرية بانه معها على اليمانية ، ويخدع اليمانية كما يخدع المضرية .

ويكتب الى نصر ان الامام قد اوصاه به ، ويكتب الى الكرماني بمثل ذلك ، حتى اصبح هوى الفريقين معه . وهو في الوقت نفسه يدعو الناس الى مبايعة الرضا من بيت الرسول دون ان يسمي احدا لتكون الدعوة مشتركة بين العلويين والعباسيين فيأمن معارضة الشيعة الامامية .

فاقبل الناس على دعوته وكثر اتباعه . فخشي نصر مغبة الامر وكتب الى الخليفة مروان بن محمد يخبره بحال ابي مسلم وكثرة من معه فتخاذل مروان عن انجاده وكتب اليه يقول : « ان الحاضر يرى ما لا يرى الغائب ، فاحسم انت هذا الداء الذي قد ظهر عندك » .

وكان مروان يومئذ في حران مشتغلا بحرب الخوارج في

الجزيرة وغيرها . وقد نهكت الثورات والفتن قوى جيوشه ، وهو لم يصل الى الخلافة الا بعد ثورة هاجها على ابن الخليفة السابق حتى خلعه وانتزع العرش منه .

مبايعة مروان

لما قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك بتحريض اهله واقربائه سنة ١٢٦ هـ صارت الخلافة بعده الى ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك ، فما كان منه الا ان اعتقل الحكم وعثمان ولدي الخليفة المقتول وحبسهما في سجن دمشق مخافة ان يطالبا بحقهما في الخلافة .

فثار مروان بن محمد على ابراهيم سنة ١٢٧ هـ يعاونه يزيد بن هُبيرة ، فوجه ابراهيم سليمان بن هشام لمحاربته ، فكسره مروان وبايع للغلامين المحبوسين . ثم تابع زحفه الى دمشق فهرب منها ابراهيم ، ودخلها مروان ظافرا ، وطلب الغلامين فاذا هما مقتولان فدفنهما .

وبايعه الناس بالخلافة . ولكن حمص انتفضت عليه وابت ان تبايعه فجهز اليها جيشا ليحاربها ويخمد ثورتها .

الفرصة السانحة

وفيما هو يحاصرها وقد امتنعت عليه كان الضحاك بن قيس الشيباني ، فقيه الخوارج ورئيسهم ، يراقب اضطراب الحالة السياسية ، وضعف سلطان الامويين ، فرأى الفرصة سانحة لان ينقل الخلافة من مضر الى ربيعة ، فهاجم الكوفة فاستولى عليها من يد اميرها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز .

مبايعة الضحاك ومقتله

فهرب عبد الله الى واسط فتبعوه اليها ، واشتدت عليه الحرب ، فاستسلم وبايع الضحاك ، ودخل في البيعة سليمان بن هشام بن عبد الملك .

ثم عاد الضحاك الى الموصل يتمتع بالامامة وقد بايعه عليها اميران من البيت المالك .

فكتب مروان الى ابنه عبد الله ان يذهب لمحاربة الضحاك ويرده عن الجزيرة ، فسار اليه عبد الله فالتقاه الضحاك بنصيبين ، وضيق عليه الحصار ، فاسرع مروان لنجدة ابنه ومعه قائده يزيد بن عمر بن هبيرة ، فحصلت بين الفريقين موقعة قتل

فيها الضحاك سنة ١٢٨هـ . ثم ولي مروان قائده على العراقين فلبث يقاتل الخوارج حتى اجلاهم عن تلك الاصقاع .

وجاء كتاب نصر بن سيار الى مروان يخبره خبر ابي مسلم في خراسان ، ومروان مضطرب النفس لكثرة العصاة والخارجين حتى ابناء عمه يأتمرون به ويبايعون الغرباء . فارسل الى نصر يلقي العبء على عاتقه لانه لم يدر ماذا يصنع .

التوجيه بالخلافة لابي العباس السفاح

فكتب نصر الى ابن هبيرة امير العراقين يستنجده ، فتلكأ ابن هبيرة عن اجابة طلبه ، وما كان عليه ان يخذله وخراسان تابعة لامارته ، وهو مسؤول عنها واليه مرجع عاملها . فعاد نصر الى مروان يستصرخه ويبين له خطر الموقف ، فكتب مروان الى الوليد بن معاوية بن عبد الملك عامله على دمشق يامره بحبس الامام ابراهيم ، فارسل الوليد بعثا الى الحُميمة واعتقل ابراهيم سنة ١٢٩هـ . فلما قبض عليه اوصى بالخلافة بعده لاخيه ابي العباس السفاح ، وامر اهله وانصاره بالمسير الى الكوفية مركز الدعوة ومقر الشيعة الكيسانية . حُمل ابراهيم الى حران حيث كان مـ ان فحبس وقتل في حبسه .

شعار العباسيين

فلما بلغ ابا مسلم ما وقع للامام بعث الى الكرماني يعرض عليه حلفه فاجابه الى طلبه ، ولكن نصرا خدعه ودعاه الى الموادعة فارتضى بها ، واقبل عليه مطمئنا ، فامسكه نصر وصلبه . فثار ولده علي ، تناصره الازد ، وهاجم جيوش نصر لينتقم لابيه ، فوقعت معركة حامية في شوارع مرو سهلت لابي مسلم دخولِ العاصمة سنة ١٣٠هـ (٧٤٨م) ، وثارت معه قرى خزاعة تعاضده ، وتسند الدعوة . فنشر السواد ، شعار العباسيين ، في الزينة والاعلام ، فسودت مرو وهرب نصر منها الى نيسابور . ثم جلا عن نيسابور ، بعد انكسار ولده تميم في طوس . ثم انهار جيشه في جرجان ففزع الى همذان تاركا العراق ليس له من يدافع عنه ، ومات في ساوة سنة ١٣١هـ .

دخول الكوفة

وكان ابراهيم الامام قد ارسل الى ابي مسلم قحطبة بن شبيب الطائي ليقود الجيوش الخراسانية ، فلما هرب نصر من مرو تتبع قحطبة وابنه الحسن الجيش المنهزم ومن انضم اليه من انصار بني امية ، حتى تم له النصر في نهاوند سنة ١٣١هـ . ثم قصد العراق لمحاربة يزيد بن هبيرة وحصار الكوفة ، فالتقاه ابن هبيرة عند فم

الفرات على ثلاثة وعشرين فرسخا من الكوفة ، فانتصر عليه قحطبة ، ولكنه قتل ساعة انتصاره ، قيل انه غرق في النهر ، وقيل بل ضربه معن بن زائدة بالسيف ، وكان معن من اتباع ابن هبيرة ، فوقع في الماء ومات . وخلفه ابنه الحسن ، وهرب يزيد الى واسط فتحصن بها . ودخل الحسن الكوفة ظافرا . ١٤ محرم ١٣٢ (٢ ايلول ٧٤٩) .

مبايعة ابي العباس السفاح

ثم قدم الكوفة ابو العباس السفاح واخوه ابو جعفر المنصور ، ومعهما الاهل والانصار عملا باشارة اخيهما ابراهيم . فقصد ابو العباس دار الامارة واظهر دعوته ، فبايعه الناس بمسجد الكوفة الكبير في ١٢ ربيع الثاني سنة ١٣٢ ، ٢٨ تشرين الثاني ٧٤٩ ، ثم وجه اخاه ابا جعفر الى واسط ، فساعد الحسن بن قحطبة على حصارها ، وبطش بيزيد بن هبيرة ، وبعث برأسه الى اخيه السفاح (ذو القعدة ١٣٢) .

الزحف الى الموصل

كانت هذه الاحداث تتوالى على عرش بني امية ، ومروان بن محمد في حران يتلقى كل يوم نبأ مشؤوما اما عن خراسان واما عن العراق . حتى خاف عاقبة الامر ، وقد جاء خوفه متاخرا ،

فجهز جيشا من القوات السورية ، يقول ابن خلدون انه مائة وعشرون الفا ، وزحف به الى الموصل فنزل على دجلة ، وحفر خندقا ، فسار اليه ابو عون عبد الملك بن يزيد ، فنزل على الزاب الاعلى . ثم تبعته الامداد من السفاح وعلى راسها عمه عبد الله بن علي وبلغ الجيش العباسي على قول ابن خلدون نحوا من عشرين الفا .

فتنحى ابو عون عن الرئاسة لعم الخليفة ، فوجه عبد الله حملة من خمسة آلاف ، فعبرت الزاب إلى عسكر مروان ، وقاتلت حتى المساء ، ثم ارتدت فعبرت المخاضة راجعة إلى قواعدها . ولما أصبحوا عبر مروان الجسر ، وأمر ابنه عبد الله بأن يحفر خندقاً في أسفل معسكر عبد الله بن علي .

الهزيمة

فبعث عبد الله بن علي احد قواده المخارق بن غفار في اربعة الاف ، فعسكروا على خمسة اميال من جيش عبد الله ابن مروان ، فوجه اليهم حملة بقيادة الوليد بن معاوية ، فهزمتهم واخذت منهم عددا كبيرا من الاسرى .

فزحف عند ذلك عبد الله بن علي بقوة من جيشه ، وعلى ميسرته ابو عون . وتقدم مروان ومعه ثلاثة الاف لينجو الوليد ابن معاوية . وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب ، فطلب مروان

المرادعة ، فاياها عليه عبد الله بن علي . وكان مروان يريد تاخير الهجوم منتظرا غروب الشمس ، فلم يطعه صهره الوليد بن معاوية ، بل حمل بالجيش السوري على كره من عمه .

القتال على الركب

فالتقاهم عبد الله بن علي بقواته ، ونزل الفرسان عن خيولهم ، فتقاتل الفريقان على الارض جاثين على الركب مشرعين الرماح . وكان اهل خراسان ينادون : يا لثارات ابراهيم ! وشعارهم : يا محمد يا منصور . فاشتد القتال بينهم بضعة ايام ثم اخذت العساكر السورية تتاخر ، ومروان يحضها على الحرب ، ولكنها كانت على كثرة عددها منهوكة القوى من الحروب السابقة والفتن المتوالية ، وهي في مجموعها لا تقاتل صادقة النية مع مروان بن محمد ، لان اهواء السوريين اصبحت متقسمة مع تقسم البيت المالك لا تجمعهم تلك القوة المعنوية التي التي طالما عضدوا بها الأمويين ونصروهم من أحرج مواقف القتال . وكان في جملة من تخاذل عنه صاحب شرطته . فلما رأى مروان تراجع جيوشه وتركها القتال طفق يبذل لهم الأموال بسخاء ليجدد نشاطهم ، فأخذوها منه ثم انكفأوا عنه وتركوه . فقاتل بمن بقي معه حتى تحطمت قواه بعد معركة دامت من ٢ إلى ١١ جمادي الآخرة ١٣٢ (١٦ ـ ٢٥ كانون الثاني ٧٥٠) . ثم انهزم إلى حران ومنها إلى دمشق ، والعساكر الخراسانية تطارده

حتى قتل في مصر ، فأرسل رأسه السفاح . فكانت موقعة الزاب قاضية على عرش سورية لترفع عرش العراق ، فزالت الخلافة العربية الخالصة ، وقامت مكانها خلافة عربية يحوطها الأعاجم . واشتقت نفوس الفرس على شاطىء الزاب بعد أن أذلتها موقعة القادسية ، فانبسط نفوذهم في ملك بني العباس ، وتضاءل دونه النفوذ العربي . واعتز الموالي بعد مهانة فإذا بصوت الشعوبية يتعالى متحدياً أبناء العرب ، ناشراً مثالبهم ، محقراً مجتمعهم وآدابهم . وشعرت سورية بالخسارة العظمى فثارت على العباسيين ، ولكن ثورتها جاءت بعد فوات الوقت فلم تجدها نفعاً ، فتلفعت دمشق بحجابها لتسفر بعدها بغداد .

موقعة البذ

ما انفك الفرس منذ موقعة القادسية وانثلال عرش الاكاسرة يحنون الى استقلالهم الفائت واسترجاع المجد المفقود حتى كانت وقعة الزاب فانبعثت معها آمالهم ، واصبحوا وهم في بني العباس ينازعون العرب السلطان والنفوذ ، يستأثرون بالخطط العالية ، فمنهم الوزراء والامراء ومنهم القواد . وارتفعت بهم اصوات الشعوبية تشيد بمناقب الاعجام ، وتنشر مثالب العرب ، فاين ايوان كسرى من خيام الصحراء ، وحضارة آل ساسان من بداوة قحطان وعدنان وهذا الشعور فيهم شامل على السواء من اسلم منهم وحسنت عقيدته ، ومن لبث على مجوسيته القديمة ، او كان

زنديقا يبطن الكفر ويظهر الاسلام . فغير عجيب ان يتحينوا سوانح الفرس ليعودوا ، كما كانوا ، امة مستقلة لها الوجود الخاص .

وقد ظهرت نوازع اهوائهم في انتفاضات متوالية حاولوا بها فصل ولاياتهم القاصية عن جسم الخلافة الاسلامية . وحاول مجوسهم وزنادقتهم محو الخلافة وابادتها ليوقدوا ب بانقاضها بيوت النار .

فقد ثارت خراسان غير مرة على ملوك بني العباس ، فقمعوا ثوراتها بالسياسة واللين او بالقوة والحزم . واستغلت نقمة المامون على اخيه الامين ، فعضدته لتثور به على العرب وخليفتهم . . والمأمون فارسي من جهة امه ، فهم اخواله يتعصبون له على ابن زبيدة العباسية العربية . ولكن انتقال الخلافة الى المامون لم يسكن خواطر الفرس طويلا ، فقد عادت خراسان تزعج خاطر الخليفة بانتفاضها وعصيانها ونزوعها الى الاستقلال . فارسل اليها المأمون طاهر بن الحسين قائده الفارسي ، وناصره على اخيه الامين . فاقام بها يسكن ثائرها من سنة ٢٠٥ الى سنة ٢٠٧هـ (٨٢٠ ـ ٨٢٢م) ثم جاهر فجأة باستقلال خراسان ، وقطع الخطبة عن بني العباس . ففظع المأمون بهذا النبأ ، وكاد يسقط في يده لو لم يمت طاهر على الاثر ، فحمد الخليفة الله على نعمه ،

الا انه اضطر ان يعترف بولاية ابناء طاهر بعد ابيهم يتوارثون امارة خراسان . فانتقلت اولا الى ابنه عبد الله ، فكانت الدولة الطاهرية نواة مملكة فارس الاسلامية .

ولم تكن انتفاضات امراء الفرس المسلمين لتزعج الخلافة وتقض مضجعها بقدر ثورات المجوس ، ومكايد الزنادقة متفقين على قلب الخلافة وازالة سلطان الاسلام . وكانت بلاد ارمينية وتركستان واذربيجان وطبرستان مواطن صالحة للعصيان والخروج .

فثار بابك زعيم الخرمية في ارمينية واذربيجان معتصما بجبال القفقاس . وثار مازيار في طبرستان تحميه رؤوس جبالها . ومال اليهما الافشين امير اشروسنة قاعدة تركستان . غير ان خطر الخرمية كان اشد من غيره ولم يسهل على الخلفاء دفعة في وقت قريب ، كما دفعوا خطر مازيار والافشين .

فقد ثار شهريار بن شروين في جبال طبرستان يسانده مازيار بن فارن فهزمه عسكر المامون سنة ٢٠١هـ (٨١٦م) واقتيد مازيار الى الخليفة ، فعفا عنه واعاده الى امارة طبرستان ، فراح يوالي بابك الخرمي ويؤيد ثورته حتى قتل بابك وتبددت الخرمية .

مع ثم ضد

وكان حيدر بن كاوس المعروف بالافشين قد اظهر الاسلام ودخل في خدمة المامون ، ثم صار قائد جيوش المعتصم ، فوجهه الى بابك الخرمي فقمع ثورته وقبض عليه . غير انه لم يكن صادق الخدمة للخليفة ، بل كان يتاجر بثورة الخرمية ويستغلها ، فماطل ما استطاع في محاربتهم ، وتقاضى اموالا طائلة مقابل قيامه بهذه المهمة .

قال ابن الاثير : « جعل المعتصم للافشين على كل يوم يركب فيه لحرب الخرمية عشرة آلاف درهم ، وكل يوم لا يركب فيه خمسة آلاف درهم ، سوى الانزال والمؤونة » . وكان يرسل هذه الاموال سرا الى اشروسنة كاتما بصدره خطة يدبر امورها لينفذها في وقتها .

ولكن هذه التدابير لم تفت عبد الله بن طاهر امير خراسان فاطلع عليها المعتصم ، وصادر بعض الاموال المهربة متجاهلا انها للافشين ، وسكت الافشين عنها مخافة ان يفتضح امره . وكان عبد الله بن طاهر لا يؤمن بصحة اسلامه ، ويخشى شره لعلمه بطمعه في خراسان . فكثرت سعاياته فيه لدى الخليفة حتى اوغر صدره عليه . الا ان المعتصم تغاضى عنه لحاجته اليه .

فلما قمعت الثورة الخرمية ، وانتهت معركة عمورية مع البزنطيين ، عاد الافشين الى دسائسه لاشعال ثورة جديدة يستغلها ثانية . وكان مازيار صاحب طبرستان تابعا لعبد الله بن طاهر امير خراسان ، فزين له الافشين ان يمتنع عن تقديم الخراج اليه ، وان يرسله رأساً الى المعتصم ولو ادى الامر الى الخلاف . ولم يكن الافشين يحسب ان عبد الله ينهض لمحاربة مازيار ، بل كان يأمل ان تشتعل الثورة في طبرستان فيرسله الخليفة الى اخمادها فيتسنى له عندئذ الاستيلاء على خراسان .

ولكن عبد الله لم يتلكأ عن تأديب العاصي فبعث جيشا للقبض عليه ، فانتفض ثائرا ودعا الناس الى مبايعته ، وامد المعتصم عبد الله بالجنود ، فيقبض على الثائر وشتت اصحابه ، وبعث به الى الخليفة ومعه الكتب التي ارسلها اليه الافشين يحرضه بها على العصيان . فامر به المعتصم فضرب حتى مات ثم صلبه الى جانب بابك . ٢٢٤هـ (٨٣٨م) .

اعمال الافشين السابقة

وتبين للافشين بعد هذه الحوادث ان المعتصم تغير عليه فخاف بطشه وعزم على الفرار (٢٢٥هـ) . فبلغ الخيفة خبره فامر باعتقاله فحبس مدة ثم احضره للقضاء فظهرت علاقته

بمازيار وتاكدت زندقته برسائل جاءته من اشروسنة يدعوه فيها اصحابها باله الآلهة . ووجدت عنده اصنام او كتب للمجوس فاخرجت من منزله . ودل الكشف على انه لم يختتن بعد اسلامه وانما بقي بغلفته . فارجع الى سجنه وقطع عنه الطعام والشراب حتى مات . ثم صلبت جثته على باب العامة ، واضرمت تحتها نار عالية ، فتساقطت قطعا قطعا .

ومهما يكن من امر الافشين وزندقته وخيانته للخليفة ، فان انانيته ، ومطامعه في الملك ، وحرصه على جمع المال ، جعلت منه آلة صالحة لخدمة المعتصم ، ومقاومة الخرمية التي استفحل خطبها ولبثت عشرين سنة تهدد دولة الاسلام .

الخرمية

والخرمية جماعة من المجوس المزدكيين يبيحون الاموال واعراض النساء فيجعلونها مشاعة مشتركة بينهم . ويقولون بان الاله متجسد في شخص امامهم ، وبان لا صوم ولا صلاة ولا حج . فتأويل الصوم ان يصام على ذكر الامام فلا يباح باسمه . وتأويل الصلاة هو الدعاء له . وتأويل الحج هو القصد اليه . وقد انتشر هذا المذهب وراء الجبال القفقاسية من ارمينية واذربيجان وسواهما ، وانضمت اليه عناصر باطنية حلولية كما يتبين من زعمهم ان الله حل بالامام .

بابك

ولم تشعر الخلافة الاسلامية بخطر المذهب الخرمي شعورا جديا الا حين قام على راسه بابك ، واخذ يتحرك في ارمينية سنة ٢٠٢هـ (٨١٧م) يقطع السابلة فيقتل ويسلب ، ويغير على البلاد الآمنة فيعيث فيها فسادا ، وينشر مذهبه الاباحي مرخصا للناس ان يشاركوا بعضهم في نساء بعض .

واذا عاد بالسبايا والاسرى اغتصب واصحابه السبيات امام رجالهن من اباء وازواج وابناء . وكان يرمي بثورته هذه الى مقاومة الاسلام ، واعادة السلطان للدين الفارسي القديم .

فاستولى على اذربيجان وضمها الى ارمينية باسطا نفوذه عليهما ، معتصما بما يحطيهما من الجبال المنيعة ، وما لديه من المدن الحصينة ولا سيما البذ واردبيل . وجعل خطته في الحرب ان يبيّت الاعداء ليلا فيباغتهم على غفلة وينال منهم ما يتاح له ، ثم يعود ملتجئاً الى جباله وحصونه . او يبث الكمناء في رؤوس الجبال وفي سفوحها بين المغاور والادغال ، فاذا اقترب العسكر الآتي لمحاربته من هذه الاماكن ، انصبت عليه العصائب الخرمية كالشياطين ترشقه بالسهام ، وتدحرج عليه عجلات فيها صخور كبار ، فما تزال تأخذه من الاعالي حتى يرتبك ويتضعضع ، فتقتحمه بسيوفها وحرابها مجهزة عليه .

بابك والمأمون

ابتدأت حركة بابك الخزمي في عهد المأمون ، وخلافته لم تزل متقلقلة من جراء مقتل الامين ، فجعل مقره في خراسان لان بغداد ثائرة عليه بعدما اصابها من الخراب في حصار طاهر بن الحسين لها . والعرب غاضبون لان الكلمة العليا صارت الى الفرس في خلافة المامون ، وهم يؤثرون ابن العربية المخلوع على ابن الفارسية الخالع .

والعباسيون في العراق ناقمون على الخليفة الجديد لانه اراد ، وهو بين الفرس ، ان يتودد للشيعة ، فبايع علي الرضا وجعله وليا لعهده . ولبس الخضرة شعار العلويين وترك السواد شعار بني العباس .

فخاف هؤلاء ان تخرج الخلافة من يدهم فبايعوا عمه ابراهيم بن المهدي ونصبوه خليفة في بغداد ، فحرّجوا به الحالة السياسية على المأمون ، وضافروا الفتنة فتفاقمت في العراق ، وخلقت جوا ملائما لحركة بابك الخرمي . فثار باصحابه في ارمينية ، ثم استولى على اذربيجان ، والمأمون مرتبك على عرشه المترجرج بين العراق وخراسان .

حملات فاشلة على بابك

ولكن الاقدار تداركت الخليفة الحازم فمات ولي عهده الامير العلوي سنة ٢٠٣ ، ولم يبايع المأمون علويا بعده . فارتضى

العباسيون فبايعوه بالخلافة وخلعوا عمه ابراهيم . فاتيح له بعد ذلك ان يدخل بغداد ويتبوأ عرش آبائه . الا ان الاحداث الخارجية والداخلية لم تسمح له ان يتفرغ لمقاومة الخرمية ، فكان يرسل اليها الحملة بعد الحملة ، فيلقاها بابك برجاله وينزل بها الويل والخسران . واشهرها الحملة التي قادها محمد بن حُميد الطوسي الطائي سنة ٢١٤هـ(٨٢٩م) ، فسار بها وتجاوز المضايق ، فخرجت عليه الكمائن من الجبال ، فبددت شمل جيشه ، فلبث يكافح وبعض رجاله حتى سقط قتيلا في المعمعة .

ومات المأمون (٢١٨ هـ) وبابك الخرمي يبذر الفساد في الارض ، وينشر الهول على الناس . فلما استخلف المعتصم نشط الى حرب الخرمية ، فاوقع بهم في همذان وكان لهم معسكر فيها . ولكن أنّى له منهم ما دامت ممنعة في اجحارها ؟ فوطن النفس على مواقعتها في مكامنها ، ومجابهة الاخطار مهما تكن عليه من الشدة .

فعقد للافشين سنة ٢٢٠ـ (٨٣٥م) ووجهه الى الجبال في جيش عديد ، وجعل تحت يده ثلاثة من كبار القواد وهم ابو سعيد محمد بن يوسف الثغري الطائي ، والهيثم الغنوي ، وعلّوية الاعلاور . فزحف الافشين الى اردبيل ، وكان بابك قد جلا عنها ، وتحصن بعاصمته البذ ليحتمي عند الحاجة باسوارها . وبث كمائنه في الجبال والمنعطفات . تفتك

بالحاميات والطلائع ، وتغير على القوافل الناقلة الميرة من مختلف الجهات الى جيش الافشين فتستولي عليها ، وتسير بها الى البذ . فوجه الافشين اهتمامه في بدء الامر الى تامين ارزاق الجيش .

فنزل في برزند وجعلها معسكرا له ، وبينها وبين اردبيل خمسة عشر ميلا . بيد ان هذه التدابير على ما فيها من دقة وتنظيم لم تمنع بابك من الغارة على القوافل وأنتهاب بعضها ، فيتضايق عسكر الافشين وتمسه الحاجة الى المؤونة .

غير ان القوافل المتواصلة كانت تتداركه ، فتكشف الكرب عنه ، ولا تدع الضيق يستحكم منه .

عمل الجاسوسية

وقد استطاع الافشين ان يستفيد من جواسيس الخرمية فيجعلهم عيونا له على سيدهم ، لانه كان اذا وقع في يده واحد منهم يعفو عنه ويجزل له العطاء ليصير جاسوسا له . فقد بعث المعتصم سنة ٢٢١ القائد بغا الى الافشين ومعه المال ونفقات الجيش . فعرف الافشين من جواسيسه الخرميين ان بابك سيكمن للقافلة ليأخذ المال . وكان بغا قد بلغ حصن النهر فكتب اليه الافشين ان يرجع الى اردبيل . فما كاد يرجع حتى اغار بابك على حصن النهر فقتل علوية وهزم جيشه . بيد انه لم يظفر بالمال لان بغا كان قد نجا به ا وعاد الى اردبيل . فاوقف بابك جنده

مكان جند علوية ليخدع الهيثم فيدفع اليه القافلة التي تأتي من ارشق فيغتنمها . ولكن الهيثم عرف جند بابك ، فرد القافلة عن حصن النهر ، واحتمى بحصن ارشق . فحاصره بابك وضيق عليه ، فلبث يقاوم مستبسلا الى ان جاءه الافشين فانجده ، فانهزم بابك وفاتته الغنيمة من الجانبين .

محاولات لدحر بابك

واقام الافشين طوال تلك السنة لا ياتي بعمل حاسم في محاربة الخرمية مع ما جاءه من الامداد والمؤ ن . على انه حاول محاصرة البذ فتقدم بعسكره الى دَروذ على مسافة ستة اميال من مدينة بابك ، فاحتفر خندقا وبنى سورا حوله ، وعسكر بالجيش . وكان يريد الاكتفاء بهذا الحصار لو لم يتجهز بغا على غير علم منه فيتقدم نحو البذ ويدخل ضاحيتها فتخرج اليه سرية من عساكر بابك فتقتل جيشه وتهزمه . فيتراجع الى خندقه متحصنا به . ويكتب الى الافشين يخبره بما حدث له ، فينجده بالرجال ويامره بمناجزتهم في الحرب الى يوم عينه له يخرج فيه بنفسه الى مهاجمتهم . فلما كان اليوم المعين خرج الافشين من دروذ ، يريد بابك ، فالتقته العساكر الخرمية فهزمها وتقدم الى البذ . وخرج بغا من الخندق فصعد الى جبل يطل على معسكر الافشين ، ويمكن الانحدار منه الى البذ فيحيط بها من جانب في حين يكون الافشين محيطا بالجانب الآخر .

الحظ مع بابك

فلما بلغ الجبل لاحت له من تحته اعلام الافشين وعساكره . فاطمأن وايقن بنجاح خطة الالتفاف ، فبات ليلته ينتظر الغد . فتساقط عليه الثلج واشتد البرد ، وانتشر الضباب حتى حجب الجبال والوهاد . وكان بابك يتوقع مثل هذه الليلة لينقض على عدوه فيأخذه غرة معتمدا خطة البيات التي تعودتها العساكر الخرمية . فهاجم معسكر الافشين واوقع به ، فانهزم الافشين الى حصنه وقد فلّ جيشه . وبغا معسكر في اعلى الجبل لا علم له بما حدث . فلما طلع الصبح ضرب بالطبل وعبى جيشه ميمنة وميسرة ومقدمة ، وهو لا يشك ان الافشين باق في مكانه . وتقدم حتى صار بلزق جبل البذ ولم يبق بينه وبين ان يشرف على ابيات المدينة الا صعود مقدار نصف ميل . واذا بالكوهبانية ، وهم رجال الاستطلاع ، ياتونه بخبر انفضاض عسكر الافشين ، وظهور طلائع الخرمية عليهم . فتراجع بغا يطلب النجاة باصحابه ، ولكن الخرمية تتبعوهم حتى بيوتهم في الجبل فقتلوا منهم جماعة واخذوا ما معهم ، وتمكن بغا ان يهرب ببقية جنوده ، لاجئا الى خندقه .

الشتاء ومتابعة الحرب

وحال الشتاء ببرده وثلوجه في تلك الجبال الجبارة دون متابعة

الاعمال الحربية ، فانصرف الناس الى مشاتيهم حتى جاء ربيع سنة ٢٢٢هـ فتجددت الحملة . ووجه المعتصم الى الافشين الامداد والاموال مع جعفر بن دينار الخياط . فلما وصلت اليه تقدم بجيشه الى كلان روذ ، اي النهر الكبير . ثم جعل يزحف قليلا قليلا على طريق المضيق الذي ينحدر الى روذ الروذ . واقام كراديس تتناوب الحراسة على ظهور الخيل مخافة البيات . فضج الفرسان من التعب ، ومل العسكر البقاء في المضيق . ثم نزل الى روذ الروذ فعسكر بها .

وامر الكوهبانية ان يصعدوا الى رؤ وس الجبال فيختاروا فيها مواضع يتحصن بها الجنود . فاختاروا ثلاثة اجبل عليها انقاض حصون قديمة ، فارسل الفعلة اليها فحصنوا طرقها ووضعوا دونها الحجارة . واحتل الوادي الفاصل بين روذ الروذ والبذ فاصبح عسكره منتشرا في الجبال والاودية على مسافات طويلة تحجب الفرق بعضها عن بعض .

فاذا اراد الزحف جعل علامته قرع الطبول تنبيها للقواد فيزحفون لزحفه ويتوقفون اذا توقف القرع . فمضت اسابيع وهم بين زحف وتوقف ورجوع ، فتضايق الجند من مماطلة الافشين وتذمر القواد لتذمرهم .

كمناء بابك

وكان الافشين يخشى الكمناء الذين اقامهم بابك في عقبة الجبل المطل على البذ ، ولا يعلم اماكنهم ليتقي مفاجآتهم اذا اراد اقتحام المدينة . ويلغ التضجر من القواد ان صاروا يتعرضون للخرمية عن غير امره . فهاجم جعفر الخياط بالمطوعة اسوار البذ حتى ضرب بابها ، فخرجت اليه الخرمية من المكامن والاسوار ، ترميه بالنبال وتدفعه عن الباب ، فارتد منهزما . واستفاد الافشين من غارته فعرف مخابىء الكمناء .

ثم اعاد جعفر الكرة على البذ فاشتبكت الحرب امام الباب طويلا وتعلق المهاجمون بالاسوار ، فثبت الخرمية دونهم وامطروهم وابلاً من الحجارة والنبال حتى ردوا جنود جعفر من ناحية ، والمطوعة من ناحية اخرى ، وطرحوهم عن الاسوار . وكان الافشين قد نصب عرادة مما يلي جعفرا على الباب ، وعرادة اخرى مما يلي المطوعة من طرف الوادي تقذفان الحجارة على الاسوار .

الا ان ضيق المكان لم يدع لجعفر مجالا فسيحا يتحرك فيه ، فانكفأ بمن معه الى خندقهم في روذ الروذ .

الاستعدادات الاخيرة

وعاد الافشين يتجهز اسبوعين بعد معركتي الباب . فلما اكمل عدته بعث عند مغيب الشمس ألفا من الرماة ، ودفع الى بعضهم اعلاما سوداً وامرهم ، اذا رأوا اعلامه مرفوعة ، والموقعة ناشبة ، ان يركبوا هذه الاعلام في الرماح ويضربوا الطبول وينحدروا على الخرمية يرمونهم بالحجارة والنشاب .

وبعث معهم ادلاء يقودونهم في الطرق المأمونة ، فانطلقوا يصعدون جبالاً منكرة صعبة المرتقى حتى صاروا خلف جبل البذ الذي يقف عليه آذين قائد الخرمية . ثم توقلوا حتى بلغوا راسه عند السحر .

ووجه الافشين في الليلة نفسها بشيرا التركي ومعه قواد وجنود من فرغانة (مدينة على نهر جيحون في حدود تركستان) وامرهم ان يسيروا في اسفل الوادي تحت ذلك الجبل . ثم بعث الى القواد ان يتهيأوا للركوب في السحر .

فلما كان السحر خرج بالعسكر والنفاطات والشمع .. وضرب الطبول ، فانكر الناس هذه التعبية المبكرة . ثم اخذ يتقدم نحو اسوار البذ حتى احدق بالجبل الذي عليه آذين . فوقف جعفر الخياط برجاله مما يلي باب البذ ، ووقف ابو سعيد مما يليه ،

وبخارا خذاه مما يلي ابا سعيد ، واحمد بن الخليل مما يلي بخارا خذاه . فصاروا جميعا حلقه حول جبل البذ .

اشتباك حربي

واذا بالضجة ترتفع من اسفل الوادي ، ذلك ان الكمين الذي تحت الجبل تصدى لبشير التركي والفراعنة فاشتبكت الحرب بينهم ، فلما سمع جيش الافشين الضجة اضطرب ولم يعلم سببها ، فابلغ الافشين القواد والجنود ان بشيرا والفراعنة يحاربون كمين الخرمية ، فاشتدت عزائمهم .

ورأى الرماة في راس الجبل حركة جيش الافشين واعلامه المرفوعة ، فركبوا اعلامهم السود في الرماح ، وانحدروا من اعلى الجبل يريدون آذين ، فوجه اليهم آذين قطعة من الجند تشغلهم .

ولم يغفل الافشين عن اعلام عساكره ، لما رأى الرايات السود تتحرك في اعلى الجبل ، ان هؤلاء هم رجاله ينجدونه على آذين ، فضاعف بذلك القوى المعنوية في القواد والجنود . فحمل جعفر الخياط بعسكره وراح يصعد الجبل الى آذين . وحمل لحملته قسم من عسكر ابي سعيد . ولكنه لم يكن يدري ان امامه آباراً محفورة ، فتتساقطت فيها فرسانه . فوجه الافشين الفعلة يهدمون حيطان المنازل ويطمون بها الآبار .

هروب بابك

ثم حمل الجيش حملة واحدة . وكان آذين قد اعد عجلات عليها صخور كبار فاخذ يدحرجها على الفرسان الصاعدة ، فافرجوا عنها حتى تدحرجت . ثم عاودوا الكرة يشددون الضغط على جبل البذ فاحاط به المهاجمون والرماة سفلاً وعلواً .

فلما رأى بابك ان الخطر محدق به ، وتيقن ان المدينة ساقطة لا محالة ، خرج من باب يلي معسكر الافشين ليطلب الامان ويستسلم .

وفيما هو آخذ بالمفاوضات جاء الخبر بان الفراعنة قد دحروا الكمين ودخلوا المدينة من بابها الغربي وصعدوا باعلامهم فرفعوها على قصور بابك .

فلم يبق بعدها مجال للمفاوضات ، فلجأ بابك الى الفرار باهله مستترا بالوادي . واشتغل عنه الافشين باقتحام البذ فدخلها بعساكره ، ولبثت الخرمية تدافع امام ابواب القصور وعلى الاسوار دفاع المستميت ، وعساكر الافشين ترميها بالنفط والنار . ثم هدمت عليها القصور حتى ابادت جموعها فاستولت على المدينة بجملتها وعاملوهم بالمثل . ولم يخدم الحظ بابك في قراره ، فإن الأرمن قبضوا عليه في بعض الجبال ، وسلموه إلى

الافشين بعدما ركبوا الفحشاء من أمه وأخته وأمرأته بين يديه ، فعلوا به كما كان يفعل بالناس إذا أسرهم مع حرمهم . فحمله الافشين إلى المعتصم ، فأمر به ، فقطعت يداه ورجلاه ثم ذبح وشق بطنه ، وأرسل رأسه إلى خراسان ، وصلب بدنه بسامراء ، ليكون عبرة لسواه . فمات شر ميتة بعد أن أزعج الخلافة عقدين من السنين وملأ جبال القفقاس رعباً وفساداً ، وبموته تبددت آمال دولة المجوس .

وقعة عمودية

كان الامويون يوالون اقتحام الدرب في كل سنة لغزو البزنطيين بكتائب الصائفة التي نظمت لهذا الغرض ، فما تنقطع غاراتها السنوية الا حين نتفاقم الفتن في المملكة العربية ، شأنها بعد مقتل الحسين وقيام خلافة الزبيريين . ثم في خلافة مروان بن محمد وانتقال الملك الى بني العباس .

وهكذا كانت حال الصوائف في خلافة العباسيين ، فقد عادت الى غزواتها على عهد المنصور ، ولكن لم تتسلسل حولياتها بسبب ثورات العلويين : ثم تابعها المهدي بعد ابيه فكانت لها مواقع موفقة بلغت في احداها خليج القسطنطينية مهددة عاصمة القياصرة .

واشتدت وطأتها في خلافة الرشيد ، فقد كان ابو الامناء ، على ما نقل الطبري وغيره ، يغزو عاما ويحج عاما ، فحين ينقطع عن الغزو يزحف بالصائفة كبار اهل بيته وقواده . فهُدم من بزنطة الشرقية في ايامه امنع حصونها ، وخربت احاسن مدنها وقراها . إلا ان الصوائف توقفت غزواتها في خلافة الامين وفي معظم خلافة المامون لاحتدام الفتنة بين الاخوين ثم لما تلاها من عصيان الامصار البعيدة ، وثورات الخارجين على السلطان .

غزوات متواصلة

ولم تقتصر غزوات الامويين و ثم العباسيين لارض الروم علي الكتائب البرية وحدها بل كانت اساطيلهم تمخر في عباب المتوسط مغيرة على سواحل بزنطة وجزائرها فتوفق احيانا للنزول فيها واحتلالها ، او تاخذ الجزية منها وتعود بالاسلاب والغنائم .

على ان بزنطة لم تغفل عن الخطر المحيط بها ، وقد بلت مراس اعدائها ، فكانت تقوم بحملات منظمة للرد على غزوات الصوائف ، فتغير على الامصار الاسلامية المجاورة تثخن فيها وترجع الى بلادها غانمة ظافرة . ولا تدع الفرصة تفوتها حين تتوقف الصوائف عن الغزو بسبب الفتن والثورات الداخلية ، فتوجه الى المملكة العربية اعنف الغارات واعظمها وقعا وانتشارا .

جيش الحماية

هذه الغارات المتبادلة بين العرب والروم اضطرت بزنطة الى تنظيم جيش مسلح دائم تقيمه في بعض الولايات لحمايتها ، وتمنح قائده السلطة العسكرية والمدنية معاً . ويعد هذا الجيش نحو مائة وعشرين الفا منهم سبعون الفا لحماية الولايات الشرقية والبقية توزع على الحدود الغربية ، وفي فرق الجيش المركزي .

فاذا اجتازت الصائفة الدرب غازية ، بادر القائد المحلي الى انباء حامية الولاية ، فتستصرخ هذه الحاميات القريبة ، وتنطلق فرسانها لملاقاة المغير ومشاغلته .

واذا كانت بزنطة هي المغيرة على الاراضي الاسلامية خرج القيصر او الدمستق بجيش من القسطنطينية ، فتنضم اليه كتائب من حاميات الولايات اغلبها من المشاة ، ولا تخلو من الفرسان لان القيصر لا يغزو باقل من ثمانية الاف ومائتي فارس ، في حين ان الحرس الامبراطوري لا يعد اكثر من ستة الاف .

بابك يغري الروم

وموقعة عمورية حدثت على اثر غارة شنها القيصر على الولايات الاسلامية ، والخلافة يومئذ للمعتصم بن الرشيد .

وكانت جيوش المسلمين مشتغلة بمحاربة الخرمية في ارمينية واذربيجان ، فرأى القيصر تيوفيل بن ميخائيل الثاني ان الفرصة سانحة للنيل من المملكة العربية . ويقول الطبري وابن خلدون ان بابك الخرمي لما اشتد عليه تضييق المحاصرين كتب الى القيصر يزين له الغزو ويقول : « ان ملك العرب قد وجه عساكره ومقاتلته اليه حتى وجه خياطه يعني جعفر ابن دينار ، وطباخه يعني ايتاخ . ولم يبق على بابه احد ، فان اردت الخروج اليه ، فاعلم انه ليس في وجهك احد يمنعك » . وكان مأرب بابك في استفزاز ملك الروم ان يخفف عن جيشه ضغط المسلمين بفتح جبهة ثانية تضطر المعتصم الى توزيع قوى جيوشه .

الخروج للحرب

فخرج تيوفيل بمائة الف ، فيهم من الجند سبعون الفا وبقيتهم خدم واتباع . فصار الى زبطرة سنة ٢٢٣هـ (٨٣٧م) وهي مدينة للمسلمين بين ملَطية وسميساط متاخمة بلاد الروم ، فاحرقها وفتك برجالها وسبى النساء والاولاد . ثم اناخ على ملطية وغيرها ، فاثخن فيها ومثل بمن صار في يده من الاسرى فسمل اعينهم وقطع آنافهم وآذانهم .

ثم عاد الى مملكته يجر وراءه الغنائم . فلما انتهى الخبر الى المعتصم استعظمه ، وكان في تلك الاثناء قد ظفر ببابك الخرمي

وقتله ، بعد انتصار قائده الافشين في موقعة البذ . فنشط الى حرب الروم ، فحشد لهم جيشا عظيما لم يحشد مثله خليفة من قبل .

وجهزه بانواع السلاح والدبابات والمجانيق والنفط والمؤونة وقرب الماء . وجعل على مقدمته اشناس وبعده محمد بن ابراهيم . وعلى ميمنته ايتاخ . وجعل جعفر بن دينار الخياط على الميسرة ، وعجيف بن عنبسة على القلب . فزحف اشناس بالجيش الى ارض الروم مجتازا درب طرسوس من سورية الشمالية ، وعسكر في مكان يعرف بمرج الاسقف نزولا عند امر المعتصم حتى يلحق به .

الافشين في المعركة

وزحف الافشين بجيش اخر من جهة ارمينية ، فاخترق الحدود بخطوات خفيفة ازعجت القيصر ، وكان مرابطا في عمورية قاعدة الانضول وحصنه الحصين . فاستخلف احد كبار قواده على المدينة ، وصار بقسم من الجيش لموافاة الافشين .

فخاف المعتصم على قائده ومن معه من العسكر ، فكتب إليه يأمره بالتوقف عن المسير لئلا يأخذه الحصار اذا التف عليه جيش تيوفيل من جهة ، والحاميات

المحلية من جهة اخرى . ولكن الافشين كان قد اوغل مسرعا في البلاد فما لحق به كتاب المعتصم ، ولا ادركه الجيش القيصري بزحفه البطيء .

فنفذ من الحاميات يخترق المدن والقرى ، غازياً غانماً حتى وصل بجيشه سالما الى انقرة ، وكان أشناس قد دخلها من غير قتال لجلاء الحامية واهلها عنها . ثم لحقه الخليفة بمن معه ، فانضم اليهم الافشين بقواته الضخمة فكان منها للمعتصم ، ومن جيش اشناس جحفل جرار عظيم .

فقسمه المعتصم ثلاثة جيوش احدها في الميمنة بقيادة الافشين ، والثاني في الميسرة بقيادة اشناس ، والثالث في القلب بقيادته . وجعل لكل جيش منها ميمنة وميسرة ، وترك بين الجيش والاخر مسافة فرسخين .

حول عمورية

ثم امرهم بالزحف وان يخربوا ويحرقوا في طريقهم القرى بين انقرة وعمورية . فزحف اولا اشناس حتى شارف المدينة فنزل على ميلين منها . ثم وافاها المعتصم في اليوم التالي ، ثم الافشين في اليوم الثالث ، فالتفوا عليها واحاطوا بها . وكانت الحامية قد شقت امامها خندقا عميقا متسعا يدور بها كالنطاق ، وغلّقت ابوابها ، وتحصنت بالاسوار والابراج .

ولكن هذه الاسوار كان قد تهدم جانب منها واهمل ترميمه حتى خرج القيصر من القسطنطينية الى عمورية فخاف بطريقها ان يرى الجانب المتهدم فيلومه على اهماله اياه ، فبادر الى اصلاحه مستعجلا ، فبنى ظاهرة بالحجارة وترك الخلل في باطنه . ورأى علو اسوارها وسعة خندقها ، امر بان تذبح الاغنام التي ساقها في طريقه ، وكان عددها عظيما ، وان يعطى كل جندي شاة ياكلها ، على ان يحشو جلدها ترابا ، ثم تطرح هذه الجلود في الخندق لتطمه . فذبحت الاغنام وحشيت الجلود ، وابتدر الجند الى الخندق يلقونها فيه ، فانهالت عليهم الروم من الاسوار بالحجارة ، فلم يتمكنوا من تسوية الجلود فتساقطت مختلفة غير منضدة . فاخذوا ع يهيلون عليها التراب حتى تمهدت وانبسطت .

ثم امر المعتصم بالدبابات والمجانيق ، فنصبت مجانيق كبار على قدر ارتفاع السور يسع الواحد منها اربعة رجال ، تحتها عجلات تجري بها اذا دحرجت .

وقدمت دبابات اكبر منها تسع الواحدة عشرة رجال . فدحرج بعضها الى السور فتعلق باوعية الجلود في الخندق ، وخلص منها اصحابها بعد الجهد .

ثم اخذت المجانيق تدب الى الاسوار وتمطرها بوابل من الحجارة ، فاصيب جانب السور المتثلم فتصدع . وقيل ان رجلا

من المسلمين كان قد اسره الروم فتنصر وتزوج فيهم ، جاء الى المعتصم ، ودله على ثلمة السور فسدد اليها المجانيق .

تكتيك حربي

وامر بان تكون الحرب مناوبة بين الجيوش الثلاثة ، يحارب كل جيش يوما ويستريح يومين . فبدأ بالحرب اشناس ومعه جيش الميسرة . وكانت جبهته ضيقة فلم يتسع عليه المجال ليقوم بحركات الهجوم على الاسوار ، فدعا المعتصم بالمنجنيقات الكبار التي كانت متفرقة حول الاسوار فجمع بعضها الى بعض . وصب قذائفها على الجانب المثلوم حتى انفرج ، فنشط الروم الى سده بالاخشاب والبراذع ، فكانوا كلما اقاموا سداً منها حطمته الحجارة ، وازالته فما يكاد يبني حتى ينهدم .

قيادة الافشين

وفي اليوم الثاني باشر الافشين القتال بجيش الميمنة ، فابلى احسن البلاء ، وهاجم الاعداء على الاسوار بالدبابات والمجانيق والسلالم ، فكانت بينه وبين البزنطيين معركة دامية ، اعجب بها المعتصم كثيرا حتى قال : ما احسن الحرب اليوم !

ثم كان اليوم الثالث فقام بالهجوم جيش المعتصم ، واكثره من الاتراك والمغاربة يتقدمهم القائد ايتاخ ، فاجادوا القتال ، واتسع لهم الموضع المتثلم بين برجين .

٥٥ يوما من الحصار

ولم تزل المعارك متداولة بين جيوش المعتصيم الثلاثة ، يقاتل كل واحد منها في يومه بعد راحة يومين ، وحامية عمورية تقاتل مستبسلة على الاسوار والابراج ، مدافعة عن الجانب المتصدع لترد عنه هجمات المسلمين بدباباتهم وسلالمهم ، حتى مضى على الحصار خمسة وخمسون يوما . فنهكت قوى المدافعين ، وكثرت فيهم الجراحات .

وكانوا يتوقعون المدد من جيش القيصر فاذا هو ما يزال بعيدا عنهم ولا ترجى نجدته . واشتد الضيق خصوصا على البرجين اللذين بجانبي الثلمة ولم يبق بوسع القائد المدافع عنهما ، ان يتابع القتال ، ورجاله بجملتهم اثخنتهم الجراح .

الامان والحرب

وقد رأى ان البطريق ياطس وقواد الابراج الاخرى اصبحوا عاجزين عن امداده ، لاشتغالهم بالدفاع عن حصونهم المهددة ، فهم لا يستطيعون تخفيف حاميتها مخافة ان يستولي عليها المهاجون .

فاعتزم ان يخرج في الغد الى الخليفة ويسأله الامان على المدينة ، ويسلمها اليه . فلما اصبح عهد الى عساكره في حماية الثلمة ، ونزل يريد المعتصم فما ان بلغ اليه حتى امر الخليفة بالهجوم ، فحمل الجيش بالدبابات والمجانيق والسلالم ، ووجه اعنف غارته الى ناحية الثلمة ، فازال عنها المدافعين واستولى على البرجين .

سقوط عمورية

فدخل المسلمون المدينة وانتشروا بها ، فنشبت ملحمة في الشوارع ، قاتل فيها البزنطيون مستميتين ، فكانوا طعام السيوف . ولبث القائد ياطس وجنوده يدافعون في اعالي ابراجهم ، لا يستسلمون حتى سقطت عمورية بجملتها في ايدي المسلمين . فنزل القائد الرومي من برجه مستسلما .

ورميت المدينة بالنفط والنار والتهديم ، فتداعت معالمها بين ايدي الحريق والخراب . وسيق السبي والاسرى والغنائم من كل جانب ، فافرد الاشراف للفداء ، وقتل الباقون . ثم نودي في الجيش على السبي والمغنم ، خمسة ايام ، فبيع الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة ، والمتاع الكثير جملة واحدة ، واحرق من المغانم شيء كثير لم يقع البيع عليه .

مآسي الانسحاب

وبلغ المعتصم ان تيوفيل قيصر الروم يحشد حرس الولايات ليحصر المسلمين ويقطع عليهم سبيل العودة ، فامر الجيش بالرجوع ، سالكا بهم طريقا مقفراً الى وادي الجوز بدلا من طريق الجادة ، فساروا نحو اربعين ميلا في برية لا ماء فيها ، فاصابهم العطش الشديد فهلك خلق من الناس والدواب .

وكان المعتصم قد تقدمهم وبلغ موضعا فيه ماء ، فعاد اليهم بالقِرَب الروية ، فسقاهم وانقذ حياتهم . ثم رأى ان يخفف من اثقال الاسرى عن جيشه وهم يشاركونه في مائة وغذائه .

فأمر ترجمانه الرومي بأن يميز من له القدر منهم فيعزله جانبا ، وضربت اعناق الاخرين وهم مقدار ستة آلاف اسير على حد قول الطبري .

ثم تابع المعتصم سيره في المجاهل المهجورة حتى نفذ بجيشه الى طرسوس سالما ظافراً . فاحبط مساعي قيصر الروم فما تمت له خطة التطويق وسد طريق الرجوع . وانتقم لزبطرة من عمورية ابلغ انتقام فغادرها تلتهمها السنة النار .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير مكتب ٣٢٠١٠٤

سلسلة مختارات اسلامية

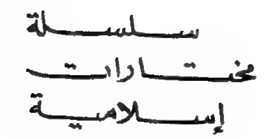
١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

ديار العرب والإسلام

(١)

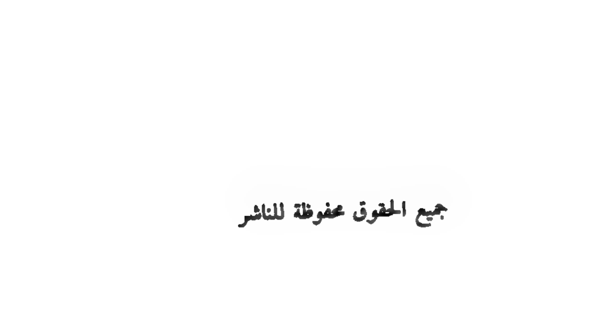
دار الفكر اللبناني


سلسلة
مختارات
إسلامية

ديار العرب والإسلام

(١)

دار الفكر اللبناني



ديار العرب والاسلام

رسخت الحضارة القديمة في رقعة الارض ، الواصلة بين المحيط الهندي وسلسلة الجبال الاوروبية ، وهذه البقعة التي تشمل البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر ، وما يحيط بهما من بلاد ، كانت مراكز حضارات ومبعث امم ومدنيات .

وقد تعاقبت على هذه الاقاليم صور من الحياة متباينة ، وتقلبت عليها دول مختلفة ، وعمرتها امم عديدة ، ولكن امة من هذه الامم التي نشأت في هذا الجانب من العالم ، وحكمت جزءه المعمور ، لم تحافظ على كل ما كان لها او جله ، محافظة الامة العربية . فقد عمرت هذه الامة التاريخية الجزيرة السعيدة ، منذ فجر التاريخ ، ولم يطأ عرينها اجنبي ، او ترسخ فيه قدمه ، وتجاوزت الجزيرة في موجات على دفعات متفاوتة في القدم .

ثم كانت موجتها الاخيرة ، منذ نحو اربعة عشر قرناً ، وهذه الموجة اتصلت بامواج المحيط الاطلسي ، ولم ترتد عنه ، منذ وقف على ساحله عقبة بن نافع ، قبل الف وثلاثمئة سنة .

وهذه الموجة العربية التي غمرت ما بين الخليج الفارسي ، والمحيط الاطلسي ، حملت معها رسالةً روحيةً وفكرية ، بلّغتها الى أمم غير الامة العربية . وامتدت فروع الدوحة الاسلامية شمالاً الى مصب نهر الفولجا ، وشرقاً الى هضاب الصين ، وجنوباً الى جزر المحيط الباسيفيك . وهي دوحة مترامية الاطراف متعددة الشعوب والاجناس ، ففيها الجنس السامي والتركي والفارسي والهندي والملايو والصيني والحبشي والزنجي .

ولم يسجل التاريخ ، أن امةً دخلت في الاسلام ثم خرجت منه ، راغبةً او كارهةً . ولم ترتد الموجة الاسلامية ، ولم تعان جزراً إلا في الاندلس ، بعد ان عمرتها اكثر من سبعة قرون .

والعالم الاسلامي اليوم ، يشغل حيزاً شاسعاً في وسط العالم القديم ، وهو كالاسد الرابض في جزيرة العرب ، رأسه تركيا ، وزذراعاه من بحر أورال الى المحيط الاطلسي . فهو يمتد في قارات العالم القديم الثلاث ، آسيا واوروبا وافريقيا ، في مساحة تبلغ اثني عشر مليوناً من الاميال المربعة ، اي نحو خمس العالم ، وهي مساحة قدر مساحة انجلترا نفسها مئة مرة ، وقدر مساحة المانيا ستين مرة ، وقدر مساحة الولايات المتحدة الامريكية اربع مرات .

هذه المساحة الواسعة متصلة الاجزاء ، ويفصل بين اجزائها

صحار شاسعة . ففي العالم الاسلامي اكبر صحار على سطح الكرة الارضية ، وقلما يخلو قطر اسلامي من الصحراء ، فهي تصل حتى الى سواحل المحيط الاطلسي ، في جنوب مراكش . وتفصل شمال افريقيا عن مصر ، والسودان عن غرب افريقيا .

وتوجد في الصومال وفي الحبشة والأريتريا ، وبين مصر والشام . وبين الشام والعراق ، وبين الجزيرة والهلال الخصيب . وتكثر في إيران وتركستان والصين وتفصل الهند عن بلاد العجم . ومناخ الصحراء مألوف في جميع أجزاء الديار الاسلامية ، وقد كان عاملاً قوياً في تاريخ الأمة العربية . والأمم الاسلامية الأخرى .

وكانت هذه الصحراء بحراً زاخراً ، يصل ما بين الاودية والواحات الخصيبة ، التي اشتهر بها العالم الاسلامي . ففي هذا العالم أعظم مساحات تعتمد على الري في زراعتها ، اذ ان فيه وادي النيل ، ووادي دجلة والفرات ، وحوض الاندس ، وحوض سيحون وجيحون وكانت سيطرة العرب على الصحراء وتعودهم خصائص الحياة فيها ، على ما هي عليه من شظف العيش وبعد الشقة وشدة الاحتمال ، هي العامل الأول في ربط أجزاء العالم الاسلامي ، عندما كان امبراطورية متماسكة العرى مجتمعة الكلمة ، تديرها حكومة مركزية في دمشق أو بغداد أو القاهرة . ولما كانت الصحراء من طرق المواصلات في الأيام

الغابرة ، مكنت لأمة الصحراء ، بسط نفوذها عـلى هذه المساحات الشاسعة ، في سرعة خاطفة .
اما اليوم ، فان المواصلات البرية والبحرية والجوية قربت المسافات لتعمل على ربط اجزاء العالم الاسلامي ربطاً محكماً .

اما من حيث الثروة الطبيعية فالعالم الاسلامي يزخر بالثروات الطبيعية . وفيه مساحات شاسعة تدخل في عداد الصحاري القاحلة ومساحات اخرى واسعة كمية المطر فيها قليلة نوعا ما . اما المعادن ففي العالم الاسلامي ثروات كثيرة على جانب من الاهمية اهمها :

١ ـ الفوسفات ، وجميعه في شمال افريقيا ، في مراكش والجزائر وتونس ، وبعضه في مصر .

٢ ـ المنجنيز ، ويستخرج من القوقاز في مقاطعة جورجيا .

٣ ـ القصدير ، وجميعه في الملايا وجزر الهند الشرقية .

٤ ـ البترول وهناك الخامات الاخرى التي توجد بكميات لا بأس بها ولكنها ليست بمستوى المحصول العالمي . من هذه الخامات الفحم في تركيا والقوقاز وجزر الهند ، والحديد في شمال افريقيا ومصر ، والنحاس في الجزائر ، والرصاص في شمال افريقيا وتركيا ، والذهب في جزر الهند والملايا وتركيا ومصر والحبشة ، والفضة في تركيا وجزر الهند ، والزئبق في الجزائر ، والكروم في تركيا .

من هنا نجد أن أكثر الثروة الطبيعية نجد النفط لا تقع في وسط البلاد الاسلامية ، بل في أطرافها ، في شمال أفريقيا والقوقاز وتركيا وجزر الهند . وكذلك سكان العالم الاسلامي ، فإنهم يزدحمون في الأطراف ويقلون في الوسط . ومراكز الاحتشاد في العالم الاسلامي ثلاث مناطق : هي تركيا ومصر وجاوه . ففي جاوه عدة ملايين من المسلمين في بقعة واحدة ، غنية بالمواد المعدنية والنباتية . وكذلك في مصر يزدحم الملايين في واد ضيق غني بزراعته . وفي تركيا ملايين اخرى يكوّنون اغلبية ساحقة في رقعة من الارض لها خطورتها العالمية . اما في غير هذه المراكز ، فالازدحام اما ان يكون قليلاً جداً كما في الجزيرة العربية والصومال وايران ، واما أن المسلمين يكونون اقليةً بين سكان القطر الذي يعيشون فيه ، مثل الهند ، وغرب الصين والحبشة ، واجزاء من البلقان ، واواسط افريقيا .

ان عالماً هذا اتساعه وهذا تماسكه وهذا قدمه ، انما يستند في اساسه على دعائم قوية ، وعمل على تكوينه تاريخ حافل . ومن واجبنا عرباً كنا او مسلمين ، ان ندرس هذا العالم في نشأته وتطوره ، وان نتابع الادوار التي مرت عليه ، من حيث الادارة والتنظيم والانقسام الجغرافي والسياسي ، وأن نلم المامة وافية بالعوامل الجغرافية ، التي عملت على تكييف التاريخ الاسلامي ، وابراز خصائصه ومميزاته .

ولد العالم الاسلامي في بيئة محدودة ، هي مكة وما جاورها ، او قريش وحدها ، ثم نما فضم الحجاز واجزاء من الجزيرة العربية ، على عهد النبي ﷺ . وفي عهد الراشدين اتسعت رقعة العرب والاسلام بالفتوح الاسلامية ، في أقطار الشرق الادنى . وفي حكم بني امية ، بلغت الامبراطورية العربية اوج عظمتها ، من حيث اتساع الشقة وتباعد الاطراف ، اذ وصلت الكتائب العربية الى ما وراء النهر شرقاً ، والاندلس غرباً ، والهند جنوباً .

ثم تتابعت على العالم الاسلامي احوال وظروف ، فحيناً كان يقسم الى جزئين كبيرين ، وحيناً الى اجزاء صغيرة ، ومرة اجتاحته قبائل من اواسط آسيا ، واخرى غزته جموع الصليبيين ، وحيناً كان يتقلص في الاندلس ، وحيناً آخر يمتد في شرق اوروبا وما وراء القوقاز وجنوب ا روسيا .

وكل ما نبغيه هو ان نضع بين يدي القارىء صورة واضحة ، وان لم تكن كاملة ، لهذه الاطوار التي تبدلت على العالم الاسلامي ، وهذه الاحداث التي المت به في تاريخه الطويل . وقد جاءت هذه جالابحاث تحت عنوان ديار العرب والاسلام . لانها تدور جول الوضع الجغرافي ، وتتمشى مع الاماكن لا مع الاشخاص . فاذا فرغنا من عرض التغييرات الجغرافية في العالم الاسلامي مجتمعا ، وفي أقطاره منفردة ، فقد يساعدنا ذلك على ان ننظر الى هذا العالم ، ونحن ندرك البواعث التي آخت بين

أجزائه ، والروح التي تعمل على تقريب اطرافه بعضها من بعض ، وبالله التوفيق .

الجزيرة مهد العروبة ومبعث الاسلام

تقع جزيرة العرب في قلب العالم القديم ، وتتوسط قاراته الثلاث ، وهي (وكذلك الهند) اكبر شبه جزيرة على سطح الكرة الارضية . وبين شبه جزيرة العرب والهند اوجه تشابه ، كما ان بينهما اوجه تباين ، فهما في المساحة متقاربتان ، وكلتاهما شبه جزيرة ، يحيط بها البحر من جهات ثلاث ، ومن الجهة الرابعة صحراء في شمال بلاد العرب ، وسور حملايا العالي في شمال بلاد الهند . ولا بدْعَ اذا اطلق العرب على بلادهم اسم (الجزيرة)، لأن الصحراء في الشمال تتم حلقة البحر حولها .

وتعتبر الهند مثل بلاد العرب ، مهد اجناس بشرية عظيمة ، وديانات واسعة الانتشار . فالجنس الآري اصله في الهند ، ومنها انتشر في هضاب آسيا ، ثم اندفع الى سهول اوروبا . وكذلك جزيرة العرب فقد كانت مهد الجنس السامي ، ومنها انتشر إلى شرق أفريقيا والهلال الخصيب وشمال أفريقيا . وربما كانت بلاد العرب مَهْد الانسانية بكاملها ، فإن أحدث نظريات الانترويولوجيا ، وهو علم الأجناس البشرية ، ترجح أن الانسان ظهر أول ما ظهر في جنوب بلاد العرب .

وقد اخرجت هذه الجزيرة للعالم دين التوحيد . وهناك وجه آخر للتشابه بين بلاد العرب والهند ، وهو في طبيعة الصخور المكونة لسطحيهما ، فكل منهما نجد مرتفع تقل فيه سلاسل الجبال ، وتغطي هذا السطح في مناطق كبيرة الصخور النارية التي قذفت بها البراكين . ففي الهند صخور الدكن النارية ، وفي بلاد العرب صخور الحرات ، وتكوّن اكثر الحجاز . وكما تقع صحراء الشام في شمال جزيرة العرب ، تقع صحراء ثار في شمال الهند الغربي .

وكما يجري النيل في الركن الشمالي الغربي من بلاد العرب ، يجري الأندس وفروعه الخمسة في الركن الشمالي الغربي من الهند . ويقابل نهر الكنج في الهند ، وادي دجلة والفرات . الا ان اوجه التشابه بين شبهي الجزيرتين ، ينقطع عند هذا الحد .

اما اوجه التباين بينهما ، فلعل مرد اكثرها الى اختلاف الموقع . فالهند مكشوفة للرياح البحرية ، ولهذا تهطل الامطار الموسمية عليها بغزارة ، وتجعل منها بقعة من اغنى بلاد العالم واخصبها ، ويجتمع فيها خُمْسُ سكان الكرة الارضية .

اما الجزيرة العربية فلا تتعرض للرياح الموسمية ، لان نتوء افريقيا من جهة الصومال ، يمنع عنها هذه الرياح . اضف الى هذا ، ان ليس لجزيرة العرب ما للهند من سور الجبال العالية ، التي تبرد هذه الرياح وتمتص منها ماءها . ولهذا فاكثر سطح

الجزيرة العربية صحراء قاحلة ، وسكانها في الوقت الحاضر لا يتناسب عددهم مع اتساع رقعتها .

من حقائق علم الجيولوجيا ، ان رقعة الارض من المحيط الاطلسي الى شمال افريقيا وغرب آسيا واواسطها ، ثم الى المحيط الباسيفيك ، كانت رقعة متصلة ، ثم طرأ عليها من الطوارىء ، ما غيروجه الارض في عهودها الجيولوجية الممنعة في القدم ، واحدث فيها شقوقاً واخاديد . ولعل اعظم الشقوق هي هذه التي فصلت جزيرة العرب ، عن افريقيا في الشرق ، وعن آسيا في الغرب بعض الانفصال ، ووادي النيل هو احد هذه الاخاديد . وكذلك البحر الاحمر ، وخليج العقبة الذي يتصل باخدود الغور ، ويمتد جنوباً الى قلب افريقيا ، وكذلك الخليج الفارسي .

وهناك تشابه في طبيعة الارض وتركيب الصخور ، بين شبه جزيرة سيناء الى غرب خليج العقبة ومدين من بلاد العرب ، الى الشرق من هذا الخليج ، وهذا التشابه قائم بين جبال عمان في جنوب شرق الجزيرة العربية ، وبين جبال ايران ، على الجانب الآخر من الخليج الفارسي ، وطبيعة الساحلين المتقابلين في البحر الاحمر والخليج الفارسي ، تدل على ان الجزيرة ، كانت متصلةً بافريقيا من جهة ، وبآسيا من جهة اخرى ، ففُتِقَتا من جهة الغرب والشرق .

ان سطح الجزيرة العربية ، هضبة عريضة ، او نجد لا يقل ارتفاعه عن الف متر . والى شمال هذا النجد تقع صحراء الشام ، والى جنوبها صحراء الربع الخالي ، اما الى الغرب والى الشرق من هذه الخضبة ، فيقع البحر الاحمر والخليج الفارسي . وسبب الصحراوين في الشمال والجنوب ، تفتت التربة بعوامل التعرية وتجمعها عند نهاية هذه الهضبة .

والهضبة تبلغ اقصى ارتفاعها عند الجنوب الغربي ، وتأخذ في الانحدار التدريجي نحو الشرق والشمال الشرقي ، حتى تهبط الى مستوى الرافدين . وطرفها المرتفع من جهة الغرب والجنوب الغربي ، يجعل لها عند هذا الطرف طبيعة البلاد الجبلية . وفي بلاد اليمن التي يطلق عليها اسم (سويسرا بلاد العرب) نجد اعلى جبل في بلاد العرب ، وهو جبل شعيب ، ارتفاعه اكثر من ثلاثة آلاف متر .

وتكثر في بلاد اليمن الاودية العميقة وسفوح الجبال السحيقة . ويمتد هذا الطرف العالي من عدن الى جبال مدين ، وتقع بينه وبين البحر تهامة ، وهي سهل ساحلي تكون من تآكل التربة في الهضبة ، ومن تجمع المرجان المتكسر . ولكن الصخور البركانية عند هذا الطرف ، وهي اقوى على مقاومة عوامل التآكل ، حالت دون تكوين صحراء واسعة كصحراء الربع الخالي وصحراء الشام .

والصحراء العربية لا تشبه الصحراء الكبرى ، فليس فيها كثبان الرمل العظيمة المتنقلة ، التي تكثر في الصحراء الكبرى ، وطبقة الرمل التي تغطيها قليلة السُّمْك. وهذه الطبقة الرملية تحيط بجزيرة العرب احاطة السوار بالمعصم ، وان كانت في الشمال والجنوب اكثر عرضاً منها في الغرب والشرق ، وتعرف بالنفوذ والدهناء او الأحقاف ، وهي قاحلة قليلة السكان غير منبتة ، وانما يتخللها في الشمال بعض الواحات ، مثل واحة الجوف وتيماء ، وهي مدينة قديمة جداً فيها آثار ضخمة ، ولعلها ارم ذات العماد ، التي ورد ذكرها في القرآن . اما في الجنوب ، حيث الربع الخالي ، فالواحات قليلة جداً ، وهذا الجزء قفر بلقع .

وفي الجزيرة عدا (النفود) ما يسمى بالحَرَّة (وجمعها حرات وحرار) وهي ارض بركانية يصعب السير عليها ، وتقف حجر عثرة امام المواصلات بين البحر الاحمر وداخل الجزيرة . ولعل الحجاز سميت كذلك ، لانها تحجز ما بين تهامة ونجد . والدهناء تختلف عن النفود بكثرة صلصالها وقلة رمالها ، وهي على قلة خصبها يوجد الماء تحت ترابها ، ومن السهل الوصول اليه بحفر غير عميقة .

ان اظهر مميزات بلاد العرب ، هي الاودية الكبيرة التي تخطط سطحها ، وليس في الجزيرة انهار ، وانما اوديتها تنقسم عند

الحافة الغربية ، فمنها القصير الذي يجري الى البحر الاحمر ، وهي تتدفق بالماء في فصل الشتاء في كل من اليمن وعسير ، ومنها الطويل الذي يجري في اتجاه الشرق الى الخليج الفارسي .

ولكن هذه الاودية تغور تحت الصحراء ، ويمر ماؤها تحت الدهناء ثم يظهر ثانية في الأحساء والبحرين ، ومن ذلك نشأت الواحات الكبرى في وسط بلاد العرب ، كالتي حول الرياض وحائل .

ومنطقة الواحات في نجد ثلاثة اقسام : هي جبل شمَّر في الشمال ، والقصيم في الوسط ، واليمامة في الجنوب ، وفيها يظهر الماء فوق سطح الارض في الاودية والواحات ، ويخرج بعد الحفر في سفوح جبال شمَّر وسلمى والعُرَيض وتوبك والعجا . والواحات تكسوها الأشجار من نخيل وغيره .

اما البراري فتكثر فيها الاعشاب في فصل الربيع ، وهي المشهورة بازهارها الجميلة الفتانة . واكبر اودية الجزيرة وادي الرمة ، وهو يمتد من خيبر شمال المدينة المنورة ، الى الخليج الفارسي . ثم وادي السرحان ، ويمتد من حوران الى صحراء النفود ، ويتصل به وادي ارجيل . وفي الجنوب وادي الدَّوابر ، وتصب فيه اودية عسير وجنوب الحجاز ، ويجري في اتجاه شمالي ، إلى حوض يشبه البحيرة ، وهي البحيرة الوحيدة على سطح الجزيرة العربية وتعرف ببحيرة سلومة .

وفي اقصى الجنوب وادي حضرموت الكبير ، ويقع بين جبال حضرموت الساحلية وصحراء الربع الخالي ، ويجري محاذياً للساحل وراء الجبال مسافة خمسمئة ميل . ويجري من نجد الى الخليج الفارسي وادي قفطان . وكان في الايام الماضية يزخر بالماء شهرين في السنة ، ولكنه الآن جاف .

وفي جنوب نجد وادي حنيف ، بين سلسلتي جبال العُرَيْض وتويك . اما اودية اليمن وعسير التي تجري شرقاً ، فان صحراء الربع الخالي تبتلعها ، ثم تتصل هذه بوادي حنيف ، وتجري معاً تحت الارض الى الخليج الفارسي قرب خور دوان .

وبعض مياه هذه الاودية يمر تحت جبال نجد الجنوبية ، ويجري الى البحر مسبباً خصب منطقة الأحساء والقطيف . وهذه المياه الغائرة تجري تحت الماء الملح الى البحرين ، وتسبب الينابيع الوافرة في البحرين . وفي جوار البحرين يبقى الماء العذب ، لا يخالط الماء الملح ، ويؤخذ من قاع البحر بواسطة انابيب طويلة ، وهذا الماء العذب في وسط الماء الاجاج ، من اغرب الظواهر على سطح الكرة الارضية ، واليه يشير القرآن الكريم في قوله تعالى : « مرَجَ البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يَبْغِيان »

ان هذه الاودية الطويلة العريضة في وسط صحـراء قاحلة ، تشير الى ماضٍ مجيدٍ ، كانت فيه جزيرة العرب وافرة بالماء خصبة التربة معتدلة المُناخ ، في الوقت الذي كان فيه الثلج يكسو نصف الكرة الشمالي ، حتى جبال القوقاز والألب .

وليست جزيرة العرب باقاحلة كلها ، فان اكثر من نصف مساحتها ، يصلح للزراعة ، وهي في العسير واليمن والاحساء وعُمان والقصيم واليمامة ، خصبة منبتة ، وفي وادي حضرموت غنية مدهشة . وحول الجزيرة العربية تقع جزر صغيرة ، اهمها جزيرة فرسان وبريم ، في البحر الاحمر ، وكوريا موريا وسُقُطْرى ، في المحيط الهندي ، وجزر البحرين في الخليج الفارسي .

واهم هذه الجزر جزيرة فرسان وجزيرة البحرين ، وفيهما البترول ، وكذلك يوجد بترول في الاحساء عند رأس تنور . وقد عرف الحجاز منذ القدم بمعدن الذهب ، ولا يزال يستخرج منه ، ولعل معادن اخرى تكتشف في جزيرة العرب . واحسن مظهر لقوة الجزيرة هو توطيد الامن وحسن التنظيم .

وفي كل عهد نظمت فيه قوى الجزيرة وحشدت كان لها في تاريخ البشرية مركز مرموق وقول فصل ، فان هذه الجزيرة ، كما امتازت باوديتها وواحاتها وصحرائها وصخورها البركانية ، امتازت كذلك بقلاعها منذ القدم ، وتعتبر حضرموت بلاد القلاع والقصور ، واغلب قرى اليمن والعسير مسورة عالية البناء ، وكل ذلك مرده الى فقدان الامن ، وان بعض ما قام به محمد وصحبه ، انهم وطدوا الأمن في جزيرة العرب ، واستغلوا قواها المادية والروحية ، فكان لهم ما كان ، من جمع العالم القديم المتمدن ، تحت ظل العروبة والاسلام .

(الحجاز مهبط الوحي)

ظهرت المدنية في عهدها الاول على سطح هذه الكرة في الايام الخالية ، في الاودية الخصيبة واحواض الانهار في المنطقة المعتدلة . واهم مراكز الحضارة القديمة : وادي النيل وما بين النهرين وحوض الاندلس في البنجاب . واهمية جزيرة العرب منذ القدم ، هي في موقعها المتوسط بين هذه المراكز الثلاثة . وكان لطبيعة بلاد العرب وموقعها اثران ، يبدو لاول وهلة انهما متناقضان . ولكن سرعان ما يزول هذا التناقض ، اذا أنعم النظر في جميع العوامل التي اثرت في مركز بلاد العرب .

فهذه يعزلها عن العالم ، صحراء تحيط بها من جميع جهاتها ، وبحر يحيط بها من ثلاث جهات ، ولهذا حافظت على استقلالها السياسي طول هذه العصور ، التي غمرت فيها الشرق الادنى ثقافات مختلفة وامم متباينة ، كما حافظت على طابعها الثقافي والروحي ، ولكنها في الوقت ذاته ، تاثرت بجميع تيارات المدنية التي كانت تجري حولها ، لانها كانت طريقاً للاتصال بين مراكز الحضارة التي تتوسطها .

وكما نقل الفينيقيون التجارة والثقافة ، من شرق البحر المتوسط الى غربه ، كذلك نقل العرب ، وهم من أرومتهم ، التجارة والثقافة ، من الهند الى الروم ، ومن الهند الى فارس ، ومن فارس الى مصر ، وذلك قبل ان يقبضوا على البحر المتوسط

واواسط آسيا ، وينشروا في العالم ثقافتهم وعقيدتهم وسلطانهم . كان في هذه العزلة خير لابنائها ، ومكن لها الاتصال بامم الشرق الادنى ، عندما كان في هذا الاتصال مغنى لابنائها .

تتصل افريقيا بآسيا بطرق ثلاث : الاولى برية عن طريق سيناء ، وتمر في اراض سيطر عليها العرب منذ اقدم عصور التاريخ ، وقد كانوحُـمَاةَ هذه الطريق والمسيطرين عليها ، منذ غزا العمالقة مصر .

والثانية عن طريق باب المندب الضيق بين الصومال واليمن ، وكانت هذه السبيل صلة الوصل بين جنوب بلاد العرب والحبشة .

اما الثالثة فتمتد من نهر النيل عند عطفته القريبة من البحر الاحمر ، قرب طيبة عاصمة مصر القديمة ، الى القصير وهو مرفأ على البحر الاحمر ، ثم تعبر البحر الى شاطىء الحجاز . وهذه الطريق الثالثة كان لها المكانة الاولى في الحركة التجارية ما بين الجزيرة ومصر ، خلال القرن السابق لظهور الاسلام .

وأهمية بلاد العرب في الحضارة القديمة ، تقوم أولاً على مركزها المتوسط بين مراكز الحضارات القديمة ، ويعتمد في الدرجة الثانية على ما كان فيها من موادّ احتاجت إليها هذه الحضارات ، وسعت في الحصول عليها من التجار العرب .

فأول ما عُرف المعدن ، عرفه المصريون في جبال سيناء ، والسومريون في جبال عُمان . وكانت مناجم النحاس قرب الطور في سيناء من اكبر منابع الثروة التي حرص الفراعنة على استغلالها . وفي الحجاز وجد الذهب الابريز خالصاً . وفي حضرموت كانت التوابل واللبان والافاوية التي كان المصريون يستعملونها في طقوسهم الدينية وفي التحنيط . ومما زاد في اهمية البلاد العربية ، الطريق الصحراوية بين الهند ومصر .

ان البحر الاحمر صعب الملاحة ، ولا سيما في القسم الشمالي منه ، ولهذا كانت افضل طريق تجارية في العالم القديم ، هي هذه التي تبتدىء في جنوب بلاد العرب ، في حضرموت واليمن ، حيث تجتمع تجارة البلاد وتجارة الهند ، ثم تسير شمالاً الى مكة والمدينة والبتراء ، ومن هنا كانت تتفرع الى فرعين ، ينتهي احدهما في غزة على البحر المتوسط ، ويمتد الثاني في طريق الصحراء الى تيماء ودمشق وتدمر .

في الايام الاولى التي كانت هذه التجارة فيها ، تحت اشراف ملوك سبأ وحِمْيَر ، كانت مكة محطة على هذا الطريق العظيم ، وقد نشأت لوجود بئر زمزم فيها ، فلما ضعف ملوك الجنوب ، واشتد النزاع بين فارس والروم ، قوي مركز مكة التجاري . ذلك لأن تجارها تولوا تسيير التجارة ما بين الجنوب والشمال ، وكانوا اولاً يشرفون على الجزء المار ببلدهم ، او الجزء الشمالي من هذه الطريق ، فلما ضعف تبابعة حِمْيَر حلوا مكانهم .

وقد حاولت روما عبثاً ان تحتكر هذه الطريق التجارية . فقد تغلبت على قوة ملوك حمير البحرية ، وطردت سفنهم من البحر الاحمر ، وحاولت الاستيلاء على المراكز المهمة على الطريق البرية . فجرد الامبراطور اغسطس سنة ٢٤ق .م . حملة قوامها عشرة آلاف آلاف جندي روماني ، يقودهم احد مشاهير قوادهم ، ويساعدهم حلفاؤهم الأنباط ، ولكن هذه الحملة بعد توغلها في بلاد العرب ، اضطرت الى ركوب البحر من ساحل الحجاز ، والرجوع الى مصر ، وقد اصيبت بفشل ذريع ، وكانت هذه اول وآخر محاولة لامبراطورية خارج الجزيرة ، للتغلب على حصن الصحراء المنيع .

وكان الرومان بمحاولتهم طرد العرب من البحر الاحمر ، واحتكار التجارة بين الجنوب والشمال ، قد عملوا على نقل مركز القوة العربية من الجنوب الى الشمال ، فنجاح الرومان في البحر ، اضعف دول العرب في الجنوب ، فهاجرت القبائل العربية ، ولا سيما بعد فيضان سد مأرب ، الذي زاد في الحالة الاقتصادية في جنوب بلاد العرب .

ومن قبائل الجنوب التي كان لها شأن بعد هجرتها ، الغساسنة الذين سادوا بادية الشام وحوران ، وبنو لخم وهم ملوك الحيرة ، وبنو عمرو الذين هاجروا الى المدينة ، وهم الأوس والخزرج انصار النبي ﷺ . وبالاضافة الى ضعف مركز الجنوب ، الذي

زاد في اهمية الحجاز ، كان النزاع الشديد بين الاكاسرة والقياصرة ، في العقدين الاولين من القرن السابع الميلادي ، مما وطد التجارة العربية ، ففي هذا النزاع حاولت فارس ان تقطع اتصال الروم بتجارة الهند وجنوب بلاد العرب .

والى تنافس الدولتين يعزى سعيهما الحثيث لبسط نفوذهما على جزيرة العرب ، او على الجزء الذي تمر فيه طريق القوافل العظيمة ، وقد اشرنا الى محاولة اغسطس القيصر الروماني ، غزو قلب الجزيرة ، فرُدَّ على اعقابه خاسراً . . ومن ذلك غزوة الاحباش لليمن وكانوا على دين القيصر ، ثم استنجاد اهلها بفارس ، وارسال هذه جيشاً لمساعدة سيف بن ذي يزن بطل اليمن ، الذي طرد الاحباش وحكم تحت النفوذ الفارسي .

وبتأثير هذا النزاع الشديد بين الامبراطوريتين تقلص ظلهما من البحر الاحمر ، وانقطعت التجارة المباشرة بينهما ، فاتخذت طريقاً جديدة كانت تخترق الجزيرة العربية ، من الخليج الفارسي الى الحجاز ، ومن هناك تتصل بالطريق العامة . واهمية مكة كانت في وقوعها عند تلاقي طرق التجارة الاربع ، جنوباً الى اليمن ، وشرقاً الى الاحساء ، وغرباً الى وادي النيل عبر البحر الاحمر ، وشمالاً الى الشام .

ان الحجاز منطقة جبلية تحجز بين تهامة على ساحل البحر الاحمر ونجد ، وهي هضبة الجزيرة وقلبها . وليس في الحجاز الا

ثلاث مدن ، هي مكة والمدينة والطائف . أما الطائف فأهميتها زراعية ، لانها وسط واحة منبتة الى الجنوب الشرقي من مكة ، وتشتهر بغزارة مائها واعتدال مناخها ، حيث يبلغ ارتفاعها نحو الفي متر فوق سطح البحر ، وهي اشبه شيء بغوطة دمشق لكثرة اشجارها ووفرة حاصلاتها ، وفيها العسل والبطيخ والرمان والخوخ والتين والعنب والزيتون ، كما تشتهر بوردها الذي يستخرج منه العطر .

وكذلك المدينة وهي في الهضبة العالية ، حولها ارض منبتة في سهل منبسط ، تحيط بها الجبال من الشرق والشمال والغرب والجنوب الغربي ، والى الشرق منها حرة خيبر المشهورة ، وهي طبقة من الصخور البركانية السوداء ، سمكها عشر اقدام فوق التربة الاسلاسية ، وعرض هذه الحرة عشرة اميال ، وطولها ثلاثون ميلاً ، وبين الحرة والمدينة ارض مغروسة بالنخيل ، وفي ظلال النخيل تزرع الحبوب والبقول ، وتُرْوَى الارض من آبار تحفر هناك ، وفي شمال المدينة جبل أُحد . وبين الجبال والحرة عيون جارية .

اما مكة فليست كالطائف ولا المدينة ، فهي اقرب منهما الى الساحل ، اذ تقع في تهامه لا في الهضبة ، ولا يوجد حولها ارض زراعية ، بل تقع في وادٍ غير ذي زرعٍ ، او في الجبال الحجازية المحيطة بتهامة ، وهي تبعد اربعين ميلاً عن الساحل ، وثلاثمئة ميل عن المدينة ، ونحو عشرين ميلاً عن الطائف .

وتقع مكة في وادٍ يمتد من الشمال الى الجنوب ، وهذا الوادي يتسع قليلاً في نهايته ، فيبلغ عرضه نحو كيلومتر ، وطول هذا الجزء المتسع نحو كيلومترين ، وتقع في هذه الفسحة منه مكة المكرمة ، وفي جنوبها يضيق الوادي مرة اخرى ، ويتفرع منه وادٍ آخر يتجه نحو الشمال الغربي ، وبذلك يصبح لمكة ثلاثة مخارج . شمالي الى عرفة ، ومنها الى الطائف ونجد ، ويسمى شعب مَعْبَدَة ، وجنوبي ويسمى المسفلة ، وهو يفضي الى طريق اليمن ، وفي الجنوب الغربي حَرَّة الباب ، الى طريق جدة والمدينة . وتحيط الجبال العالية بوادي مكة ، ففي الشمال جبل قضا ، وفي الغرب جبل لآلىء وجيفان والقنا ، وبينها شارع المدينة الكبير ، وفي وسط الوادي ترتفع الارض ، وهذه المرتفعات في الوسط دون الجبال العالية المحيطة بالوادي ، وسفوحها معرضة لشمس الأباطح ، ولهذا اطلق على قريش اسم (قريش الاباطح) .

ومن مرتفعات الوسط جبل اجياد وعليه قلعة ، وجبل ابي قُبَيْس المطل على الحرم وعليه مسجد بلال ، ويقابل جبل (ابي قبيس) جبل هندي وعليه قلعة . والحرم في السهل بين ابي قبيس وهندي . ووادي مكة لا ماء فيه الا ماء زمزم ، وكانت قبائل قريش تتجمع حول هذه البئر في الاباطح ، وتحيط ببيت الله الحرام .

في القرن السادس الميلادي ومستهل القرن السابع ،

اصبحت مكة مركز تجارة نامية ، وذات ثروة واسعة ، وكانت قريش صاحبة هذه التجارة ، تسوقها من اليمن الى الشام ، ومن الخليج الفارسي الى وادي النيل .

وفي مكة كان عمال تجاريون من الحبشة وفارس والروم ، وقد كان سلمان الفارسي فارسياً ، وبلال حبشيّاً ، وزيد بن حارثة شاميّاً ، وهم من الرّهط الإسلامي الأول . وهذا المركز التجاري جعل مكة مصرفاً عاماً لتجار الجنوب والشمال ، وقد تيسر لها بذلك ، نظام اجتماعي يختلف عن نظام القبائل ، فقد كانت مكة حاضرة ، تجمع قبائل مختلفة ، زعامتها الاقتصادية لقريش ، وكانت زعامة قريش هذه تتصل اتصالاً متيناً بحياتها التجارية ، وكما هي العادة في المجتمعات التجارية ، نجد الحياة في مكة ديمقراطية من الوجهة السياسية والاقتصادية ، ولكنها أرستقراطية. من الوجهة الاجتماعية .

واننا لنجد في القرآن الكريم اشارات واضحة الى الحياة في مكة ، فهو يبين ان سكان مكة ، كانوا من الحضر الناقمين على البادية ، وما تجره من خطر على تجارة قريش ، وهو يصف نعمة الله التي انعمها على قريش ، وما بسط لهم من رغد العيش ، اذ يقول (لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف) ويذكرهم بعبادة الله (الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) .

ويبدو أن النزاع بين فارس والروم ، كان من الحوادث المثيرة لاهتمام اهل مكة ، لما لنتيجته من اثر في رفاهيتها ، وقد قال الله تعالى مشيراً الى هذا النزاع : (آلم ، غُلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون) . وقد صدق قوله تعالى ، اذا عاد هرقل فتح القدس ، وكسر الساسانيين في السنة الاولى من هجرة الرسول ﷺ .

(الحكومة الاسلامية الاولى في المدينة المنورة)

في مكة انزل الاسلام هدى للناس ، ودعا النبي أقرب الناس اليه ليعبدوا الله ، ولا يشركوا به احداً ، فلما أنكر هؤلاء على النبي الكريم دعوته الجديدة للحق ، واضطروه ان يرحل عن مكة مسقط رأسه ومنزل عشيرته ، الى المدينة دار هجرته ومركز شيعته ، تبدل مظهر الدعوة الاسلامية ، فبعد ان كانت دعوة روحية خلقية ، ادغمت بنظام اجتماعي وسياسي ، هو نواة الحكومة الاسلامية الاولى .

وهمنا في هذه السلة تتبع نمو هذا النظام السياسي ، الذي ولد يوم هاجر النبي وانصاره من مكة ، واستقبله اهل المدينة ، وآزروه وقبلوا دعوته وزعامته الدينية والدنيوية .

وقد بقيت المدينة المنورة مركز النظام الجديد ومجتمع قوته ، زهاء اربعين سنة ، اي منذ انتقل اليها الرسول ، حتى استتب

الامر لزعيم الشام ، معاوية بن ابي سفيان ، فنقل مركز الحركة الاسلامية الى دمشق .

خلال هذه العقود الاربعة من السنين ، استطاعت الجماعة الاسلامية الاولى ، أن تنجو من اعتداء قريش في العقد الاول ، وان تنشر الاسلام بين قبائل حجازية قوية . وفي العقد الثاني الذي بُدِئَ بفتح مكة ، والذي ازداد فيه انتشار الاسلام ، فاخذ الناس يدخلون في دين الله افواجاً ، تم توحيد كلمة الجزيرة العربية ، وتوطيد الامن فيها ، وسوق رجالها للفتوح .

وانتهى عهد المدينة بالنزاع الداخلي ، الذي ابتدأ بالثورة على عثمان ، وانتهى باستتباب الامر لمعاوية . وقد جاء وقت كان فيه مركز القوة الاسلامية ، موزعاً بين المدينة ودمشق والكوفة ، ولكن المدينة بقيت عاملاً سياسياً قوياً في حضارة الاسلام ، حتى استتب الامر لبني امية ، وظهرت للوجود امبراطوريتهم العظيمة ، وعاصمتها دمشق .

كان اول عمل في سبيل الوحدة الاسلامية قام به الرسول ، ان آخى بين انصاره ، وكانوا قبل في نزاع مستمر ، فالأوس والخَزْرجانصار النبي من قبائل اليمن ، وكانوا قد قدموا المدينة بعد الانهيار الاقتصادي الذي عقب ضعف ملوك حمير ، وهم من قبيلة عمرو .

ولكن القبيلتين تنازعتا أشد النزاع بعد هجرتهما الى الحجاز . وكان في المدينة عدا الاوس والخزرج جمهور من اليهود ، ولهم مركز مهم في خيبر وهي مجاورة لاراض زراعية ، وكان اليهود في المدينة زرَّاعاً وتجاراً . وكان انقسام الاوس والخزرج ، مما قوى مركزهم . فلما آخى الاسلام بين القبيلتين المذكورتين ، ضعف مركز اليهود ، فهادنوا المسلمين حيناً ، وناصبوهم العداء حيناً آخر ، حتى غلبوا على امرهم ، واخرجوا من المدينة والحجاز ، في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب .

بعد ان نجا النبي من ظلم قريش ، وألَّف بين الأنصار ، سعى في اضعاف مركز اعدائه في مكة ، وكان أقرب سبيل لذلك ، وأشد تنغيصاً لحياة قريش التجارية ، ان يمنع تجارتها بين الجنوب والشمال ، تلك التجارة التي كانت تمر بجوار المدينة . فاذا وقفت تجارة مكة ، قضي عليها لا محالة .

الى هذه الغاية انصرفت اكثر غزوات النبي واعماله الحربية ، وكان اول قتال بينه وبين مشركي مكة في (بدر) الواقعة الى الجنوب الغربي من المدينة ، وعلى بعد عشرين ميلاً منها ، وهي على طريق القوافل بين مكة والشام ، وكانت (بدر) النصر الاسلامي الاول ، وقد انتصر فيها المسلمون على اكثر من ثلاثة اضعافهم ، وكل من اشترك فيها عرف فيما بعد ، بانه من اهل بدر الذين تميزوا عن جميع المسلمين بغنائم الحرب . وقد حاولت

قريش ان تحمي تجارتها وشريان حياتها ، فحشدت جموعاً لقهر المدينة ، ونالت بعض النصر في أُحُد في السنة التالي لغزوة بدر .

ثم جمعت اكبر جيش كان في طاقتها جمعة من رجالها ، ومن البدو المجاورين لها ، ومن الاحباش العاملين في تجارتها ، وساقت هذا الجيش الجرار ، بالنسبة الى الفئة الاسلامية القليلة العدد ، الى ابواب المدينة لتحاصرها وتحصر المسلمين فيها . وعرفت هذه الجموع بالأحزاب ، وقد انضم اليها يهود المدينة ، مع انهم كانوا متهادنين مع المسلمين . وكان مما اخرج المسلمين من هذا المأزق الحرج ، ما أشار به سلمان الفارسي على المسلمين ، بان يحفروا خندقاً حول المدينة . فضاق البدو المحاصرون ذرعاً بهذا النوع الجديد من القتال الذي لم يألفوه ، ولم يطيلوا الحصار ، بل انصرفوا بعد شهر ، ونجا الاسلام من الفناء وهو في مهده .

وبعد الاحزاب ، تغير موقف المسلمين من الدفاع الى الهجوم ، ولكنهم قبل ان يهاجموا قريشاً في معقلها ، نشروا دعوتهم بين القبائل المجاورة ، وزادوا سيطرتهم على طريق القوافل ، فكانت سَرِيَّتهم لمؤتة ، وغزوتهم لتبوك ، وقد صالحوا اهلها . ويقال ان من أسباب غزوتهم لمؤتة ، وهي من ارض الشام في البلقاء ، الحصول على سيوفها المشهورة .

اما تبوك فكانت محطة على الطريق التجاري بين المدينة

وغزة . والى نشاط المسلمين في الدعوة وتحويلهم جزأً كبيراً من تجارة مكة الى ايديهم ، يُعْزَى اقدام النبي ، ﷺ ، على دعوة قبائل غسان وأسد وكنده ولخم الى الاسلام ، وكذلك اقباط مصر . وقد نجحت هذه الدعوة ، فبعض من كاتبهم في حوران ونجد ، أوفدوا رسلاً الى المدينة بقبول الدعوة ، وبعضهم رد على الرسالة النبوية رداً حسناً . ومن هؤلاء عظيم القبط . .

وكان دخول هؤلاء في الاسلام اعترافاً منهم بان قريشاً قد خسرت مركزها التجاري ، وبأن المدينة اصبحت مركز القوة العربية ، وهذا مما شجع المسلمين على الاقدام على مهاجمة مكة ، وقد فتحها الله عليهم في السنة العاشرة من الهجرة . والوفود التي وفدت على المدينة لاظهار الطاعة لنبي الله ، اكثرها من قبائل لها صلة بتجارة المدينة ، فكان قطع تجارة مكة اكبر ضربةٍ سددت الى قريش .

وقد كان معنى فتح مكة خضوع الحجاز جميعه للمسلمين ، لان مدنه الثلاث ، مكة والمدينة والطائف ، دخلت في دين الله . وكان معناه ايضاً حرية تصرف المسلمين بالطرق التجارية الكبرى .

ولما تمت رسالة الله وتوفي رسوله ، كان النظام الذي انشأه المسلمون في المدينة ، نظاماً اجتماعياً وفكرياً وسياسياً قوياً . وهوالنظام الذي غزا الجزيرة العربية ، وجمع كلمتها ، ثم قذف برجالها الى الفتوح .

ولقد أخرجت هذه الجزيرة في ذلك العهد نفراً من الابطال أربوا في عددهم وكفاياتهم ، على ما اخرجته أية امةٍ اخرى في عهد من عهودها . فلما قبض الله نبيه ، انتخب ابو بكر اول الناس اسلاماً وصاحب الرسول ورفيقه في هجرته ، خليفة للمسلمين .

وكانت أطراف الجزيرة الحديثة العهد بالاصلام ، قد صعب عليها ان تدخل في طاعة الحجاز ، وتقبل زعامة قريش المطلقة ، فتذرعت بموت الرسول ، لتقطع ما عاهدته عليه من ايتاء الزكاة وقبول جميع احكام الاسلام ، ولعل الحركة الاسلامية كانت قد تغلغلت في نفوس عامة الناس ، فأقبلوا عليها بكل قلوبهم .

فلما حاول زعماء القبائل ان ينقلبوا على حكومة المدينة ، لم يجرؤ وا على مناوأة الفكرة الاسلامية ، فبعضهم أبى دفع الزكاة ، وبعضهم ادعى انه الخليفة ، وبعضهم ادعى النبوة .

هذه الحركات الانقلابية ، حملت ابا بكر ، على الاسراع للقضاء عليها ، قبل استفحال امرها ، فسير اليها جماعات من المسلمين المحاربين ، امتاز من قواد هذه الجماعات خالد بن الوليد ، الملقب بسيف الله المسلول . فقد اخضع قبائل نجد وقلب الجزيرة في ستة اشهر . وكانت اشد القبائل التي حاربها واعادها الى طاعة الله ، قبائل طي واسد وغَطَفان ، ومنازلها بين جبل شَمَّر والحجاز ، وكان زعيمها طليحة . ثم بنو حنيفة في

اليمامة جنوب نجد ، وزعيمها مُسَيْلِمَة الكذاب ، ومسليمة هذا كان قد جمع تحت زعامته قبائل بني تميم النازلين شرق نجد ، في جهة الأحساء ، بعد ان تزوج بسجاج زعيمة هذه القبائل ، وقد احتاج خالد الى نجدات كبيرة ، قبل ان يتمكن من قهر مسيلمة هذا . وقد اخضع رجال ابي بكر قبائل العرب في جميع الاطراف ، مثل عُمان وحضرموت واليمن . وفي اليمن كان الأسود قد جميع كثيراً من الأتباع . ولكن حروب الردة في الاطراف كانت أضعف منها في وسط الجزيرة . وكانت ضربة خالد للقبائل القوية ، مفتاح النصر لجمع شمل الجـزيرة بكاملها ، تحت لواء حكومة المدينة . ولاول مرة في تاريخ الجزيرة العربية ، دانت جميع أطرافها لحكومة واحدة ، ودين واحد ، ولغة واحدة ، هي حكومة خليفة الرسول ، ودين القرآن ، ولغة القرآن .

فالمدينة المنورة ، هي مهد الدعوة الاسلامية ، وعاصمة اول حكومة عربية اسلامية خالصة ، دان لها الحجاز ونجد وعمان وحضرموت واليمن وتهامة وعسير ، وامتد فيضها فبلغ النيل والفرات وجبال طورس . وسنرى في الاحاديث المقبلة ، كيف تمكنت هذه الحكومة الفتية من ان تدك عرش الاكاسرة ، وتستولي على تراث امبراطوريتهم ، وتأخذ من الروم زعامة البحر المتوسط والعالم المتمدن .

(فتح الشام)

كان فجر القرن السابع الميلادي ، فاتحة حوادث خطيرة في الشرق الادنى . وكان الخصام في الربع الاول منه ، على أشده بين الفرس والروم ، وكانت الشام ميدان الحرب بين الدولتين ، بينما كان النزاع يجري في داخل كل منهما ، بين الجند والحكام ، وبين بيت مالك وبيت مناهض له ، وبين قائد وآخر ، وبين شيعة دينية واخرى من نوعها . . وكان وقت ، ضعفت فيه بيزنطية ضعفاً اطمع فيها الفرس ، ومهد كل سبيل لتدخلهم في شؤونها . . وقد انقسمت الكنيسة فيها بعد مجمع نيقية ، واضطهد النساطرة ، ولجأوا الى الفرس ، فآووهم وشجعوهم .

وكان البيت المالك في القسطنطينية منقسماً على نفسه ، وانقسم الناس من جراء ذلك الى احزاب متنافسة متنابذة ، وعمت الفوضى ، واغتصب (فوكس) احد الامراء ، العرش بعد ان قتل الامبراطورة قسطنطينة وبناتها الثلاث . وثارت ارمينيا ، واستنجدت بالفرس ، فانتصروا لها ، وزحفوا الى بلاد الروم ، واحتلوا الشام ومصر وارمينيا واكثر الاناضول ، بينما كان البلغار واحلافهم قد زحفوا الى القسطنطينية وضربوا عليها الحصار . .

وفي غمرة هذه المحنة ، ظهر بطل رومي في شمال افريقيا ،

قام يرد عن بيزنطية كيد اعدائها ، فزحف الى مصر واستنقذها ، ثم ركب البحر الى القسطنطينية ، وقتل الامبراطور المتولي اذ ذاك ، وقبض على زمام الدولة بيده القوية ، وقد وحد الصفوف ووجهها لقتال الفرس . . وبعد حروب طويلة كانت سجالاً بين الدولتين ، انقذ الشام ، وأعاد الصليب المقدس الذي نهبه الفرس من المدينة المقدسة . . وأصاب انتصاراً حاسماً على اعدائه في ارمينيا ، بعد ان هبط عليهم من اعالي القوقاز ، وهدد بغزو فارس في عقر دارها . . وكان ملك الفرس قد مات ، وخلفه ابنه ، فصالح الروم ، وأعاد اليهم كل ما احتله ابويه من الاصقاع .

هذا البطل الذي قام بكل هذا هو هرقل ، الذي لمع نجمه في برقة ، وقد بلغ الذروة ، بعد ان طرد المعتدي من جميع بلاد الروم . ولكنه لم يلبث ان ابتلى بعدو كان اشد منه مراساً واقوى شوكة ، سلبه بلاده وقهره وقضى على آماله . . هذا العدو الجديد ، بل هذا البطل الذي لا يجاري ، هو خالد بن الوليد الذي انقذ العرب في غزوة مُؤتة من هلاك محقق .

ولو ان منجماً تنبأ يوم هزم العرب في مؤتة ، وعددهم بضع مئات ، بانهم سيعودون بالآلاف ، ويصدون جيوش الروم الجرارة ، ثم يخرجونهم من الشام ، لعدت نبوءته من أبرع انواع الفكاهة المضحكة . . ولكن هذا الذي حدث . فمؤتة كانت في

السنة التي سبقت فتح مكة . واليرموك في السنة الخامسة بعد هذا الفتح . ويوم هاجر النبي كانت الشام فارسية . ويوم فتح مكة كانت بيزنطية . وبعد وفاته باربع سنوات ، كانت عربية مسلمة ، من رفح الى انطاكية .

ان هذا الحدث الخطير ، قد غير مجرى التاريخ تغييراً اساسياً ، وأعاد للشرق الادنى سيادته التي كانت له على عهد الفراعنة ، وأمم ما بين النهرين ، والفينيقيين . . تلك السيادة التي سلبه اياها الغرب مدة عشرة قرون ، منذ اكتسحه اسكندر ذو القرنين ، الى ان غادر هرقل ربوع الشام .

ولا أود ان اصف لكم الايام الغُرّ ، التي أبلى فيها شجعان العرب بلاءهم الحسن الذي حقق لهم النصر . . ولا اريد ان اصور مظاهر البطولة الخارقة التي أبداها هؤلاء الذين كانوا قبل عقدين من السنين ، يعيشون على حاشية البادية ، ثم اندفعوا الى قلبها ، فملكوها وبنوها ووسعوا حدودها . . ان ذلك اعظم من ان اعمد اليه في احاديثي هذه ، وروايته تناولتها كتب التاريخ المطولة ، وكتب الادب الرائعة ، وهي رواية كتبها التاريخ دماً ولحماً ، ولا يزال يكتبها منذ اربعة عشر قرناً ، ولا أظنه يفرغ منها ، فقد طُبع بطابعها الى الابد . . .

اما الذي أود أن أعرضه على مسامعكم عرضاً سريعاً خاطفاً ، فهو صورة امتداد ديار العرب ، من مكة والمدينة ، الى

الرملة والقدس وطبريا ودمشق وحمص وقنسرين . . والذي أحاول ان اجيب عنه اثناء عرض هذه الصورة امامكم ، هو هذه الاسئلة : لماذا فكر العرب في فتح الشام ؟ـ وفي فتحها قبل غيرها من الاقطار المجاورة لجزيرتهم ؟ وما هي العوامل التي اكسبتهم هـذا النصر المبين ؟ وكيف تم اكتساحهم لقـوة الروم ، واجتياحهم لبلادهم ؟ . .

بعد حروب الردة ، اصبح الاسلام حكومة منظمة ، مركزها المدينة ، وفروعها في قلب الجزيرة واطرافها . وكانت هذه الحكومة ، اول حكومة عربية شملت جميع اجزاء الجزيرة . غير انه قد نشأت مع نشوء هذه الحكومة ، مشكلة لم يألفها العرب في نظامهم البدوي ، هي التصرف بهذه الحيوية الفياضة التي ظهرت عندما تآلفت القلوب المتنافرة ، والتـأمت القبائـل المتنازعة ، في عقد واحد ورابطة واحدة .

ان البدوي محب بطبيعته للظهور بالقوة والشجاعة ، وقد كانت الفروسية والغزوات من خصائص البداوة ومزاياها ، لانها المظهر الوحيد للنشاط والحماسة في نفس البدوي وجسمه ، فان بطل الغزو ضاق بالنظام الذي يفرض عليه ، واقبل مندفعاً على اية حرب يدعى اليها ، فكيف يكون اندفاعه اذا كان انتصاره في الحرب ينيله النعيم في الدنيا والآخرة ؟ . . .

لما أبطل الاسلام الغزو ، تحتم على رجال الحكومة الاسلامية

الاولى ان يجدوا ما يقوم مقامه ، والا تعذر حفظ النظام في البلاد ، والحكومة لا تزال فتية فقيرة كحكومة ابي بكر . . ولم يكن ابو بكر اول من فكر في سوق العرب الى الغزوات الخارجية ، بعد ان ابطل الغزوات الداخلية . . فقد سبقه النبي بغزواته في مؤتة وتبوك وغيرهما ، كما سبقه الى ذلك ايضاً خالد بن الوليد ، اذ ان خالداً عندما وصل برجاله في حروب الردة الى اطراف العراق ، وصالح قبائل بكر بن وائل الضاربة في تلك الانحاء ، زين له زعيم احدى هذه القبائل ، وهو المثنى بن حارثة امير شيبان غزو الحيرة ، ففعل واشترك مع المثنى في ذلك . وشيبان هي القبيلة التي أحرزت للعرب انتصارها الاول على الاعاجم ، وهزمت الفرس في (ذي قار) ـ وذلك قبل الاسلام .

فتفكير ابي بكر بغزو الشام ، لم يكن بالشيء الجديد ، وانما هو حلم العرب القديم ، اثارته في نفس ابي بكر سُنّةُ الرسول ، ثم الغارة الناجحة التي قام بها المثنى وخالد على الحيرة . ولكن الجديد في عمل ابي بكر ، هو ان يشرك جميع القبائل العربية ، ولا سيما القبائل اليمانية والنجدية في غزوة الشام . وقبل ذلك لم يغز العرب الا وهم جماعات قليلة . .

ويروى ان ابا بكر دعا اهل المدينة للتأهب لغزو الروم ، فخرج الناس وعسكروا خارج المدينة ، يتخذون اهبتهم

للمسير ، وخرج اليهم ابو بكر ومعه عمر وآخرون ، ولم يرض ابو بكر عن هذه الجموع للروم ، فقال لاصحابه : اترون ان نشخصهم للشام في هذه العدة ؟ فقال عمر ما ارضى هذه العدة لجموع بني الاصفر . فقال ابو بكر : أفلا نكتب الى اهل اليمن وندعوهم الى الجهاد ؟ فقالوا نعم . فكتب ابو بكر يستنفر القبائل اليمنية ، وبعث كتابه مع أنس بن مالك ، فكان يجيء مضارب القبائل ، ويقرأ عليها كتاب ابي بكر .

وقد لاقت هذه الدعوة عند اكثرهم اذناً صاغية ، ورغبة صادقة ، واقبلت القبائل من كل جهة ، فجاءت حمير والأزد وبنو كنانة ، كما اقبلت قبائل الحجاز ونجد وبادية الشام ، وفيها بنوطي وقيس وجشم وخثعم وقُضاعة وكلب وغيرها . اما ربيعة وتميم وأسد فكانت دارهم عراقية ، وقل من شهد منهم فتوح الشام . ولهذا فقد كان اكثر اهل اليمن في الشام ، لان بعض القبائل اليمانية ، مثل غسان وتنوخ كانت فيه قبل الاسلام ، وبعضها كانت في طليعة من اجاب دعوة الخليفة .

وكان فتح الشام غزوة بدوية كبرى ، لا تختلف عن الغزوات الصغرى ، بين قبيلة واخرى ، الا في عدد المحاربين ، وكثرة القبائل ، واختلاف الغاية . وكان الخليفة يستقبل القبائل في المدينة ، ثم يودعها داعياً لها ، ومباركاً في نخوتها ، وموصياً اميرها بما عرف عنه من وصايا الحرب المليئة بالعظة .

وكان اذا رأى عدد القبيلة صغيراً جمع قبلتين او اكثر ، وامر عليهم اميراً من قريش ، وعبأ الجميع في قيادات كبيرة ، عقدها لاربعة من رجال المدينة ، هم عمرو بن العاص ، ويزيد بن ابي سفيان ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وشرحبيل بن حسنة .

وقد اختار ابو بكر فتح الشام قبل غيرها ، لصلة الحجاز القديمة بالشام ، واهمية الطريق التجاري في حياة المدينة ، وكانت قد انتزعت الزعامة من مكة ، ومدت سلطانها على اكثر قبائل العرب ، وصار لا بد لها من التحكم بالطريق التجاري جميعه ، ولا سيما حيث ينتهي في اطراف الشام : في بصرى وغزة وتيماء وتدمر ، وكانت مراكز للتجارة والهجرة العربية قبل الاسلام دهراً طويلاً .

ومما يدل على عدم اهتمام ابي بكر بغير الشام ، أن خالداً لما بعث يطلب نجدات لغزواته في العراق ، رفض ابو بكر ان ينجده ، وطلب اليه ان يكل امر العراق لقبائله ، وان يسير هو ومن معه من جنود المسلمين ، الذين صحبوه من الحجاز ونجد ، ومن ينضم اليهم فيما بعد على الطريق ، الى الشام ، حيث يتولى زعامة جنودها ، ويتولى تصريف الحرب فيها .

وقد ساعد العرب في فتوحهم امور كثيرة ، اهمها اسلوبهم الحربي ، الذي كان يوافق طبيعة الصحراء ، فقد كانوا اقدر من عدوهم على الحركة ، وانشط منهم فرساناً ، واشدهم مراساً على

ركوب الخيل . ولم يتقن الروم الفروسية ، ولم يبرعوا فيها ، وانما مدار قوتهم الحربية ، كان على كتائب المشاة والرماة .

وقد امتاز العرب باستعمال الجمال ، لانها مكنت لهم التنقل السريع ، فالجمال كانت تحمل الرجال والارزاق والنساء والمتاع ، بسرعة لا تقل عن اربعين ميلاً في اليوم ، وهي سرعة تَنَقُّل ، لم تصل جموع الروم الغفيرة الثقيلة الى نصفها . فالخيل والجمال كانت من عوامل النجاح في شؤون الحرب ، وكان لها ما للسيارات والدبابات في الحرب الحديثة . . ولعل رحلة خالد المشهورة من العراق عبر الصحراء ، وظهوره خلف الروم ، من أروع الامثلة ، على ما كان لتنقل العرب من أثر في بلبلة الروم ، وقطع مواصلاتهم ، واختراق صفوفهم ، واثارة الفزع في نفوسهم .

وكانت جيوش الروم تعتمد في حركاتها على المدن الكبرى ، فاذا قطعت مواصلاتهم سقط في ايدي قادتهم ، واسرعوا في التقهقر . اما العرب فكان متاعهم معهم ، وكانت نساؤهم يصحبنهم ، ويعددن لهم الطعام ، ويثرن فيهم الحماسة ، ويعتنين بجرحاهم ومرضاهم . اضف الى هذا ان قبائل العرب التي كانت مجاورة للروم ، او كانت تحت سلطانهم ، كانت تكرههم ، لان هرقل قطع عن امراء هذه القبائل المرتبات المالية التي كان ينفحهم بها ، فنقموا عليه ، وساعدوا الغزاة المسلمين .

وأضف كذلك الى هذه الاسباب ، حسن معاملة العرب للناس ، بازاء تعسف الروم ، وشجاعة العرب وحسن بلائهم بازاء تخاذل الروم وترددهم وخوفهم . وقد خطب هرقل في قواته يوماً ، يصف العرب ، فقال : انهم احرص على الموت ، منكم على الحياة . ثم اضف الى هذا كله عبقرية خالد ، التي وجهت الحرب خير توجيه ، واخرجت العرب من اكثر من مأزق حرج . . وفي حديثنا التالي ، سوف نرى كيف عملت هذه الاسباب على ضمان النصر المبين ، وكيف تم نشر الراية العربية على الشام ، في اقل من ثلاث سنوات .

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

ديار العرب والإسلام

(٢)

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

ديار العرب والاسلام

(٢)

دار الفكر اللبناني



(بطل اليرموك)

لما عقد ابو بكر مجلساً للشورى من كبار الصحابة ، وقرر توجيه الغزوات الى الشام ، استشارهم في الطريقة المثلى التي ينبغي للعرب ان يختطوها في مسيرهم ، فقال عبد الرحمن بن عوف : ان بني الأصفر (يريد الروم) حدٌ حديد وركن شديد ، والله ما أرى ان تقحم الخيل عليهم إقحاماً ، ولكن تبعث فتغير ، ثم ترجع اليك . فاذا فعلوا ذلك مراراً ، أضر بعدوهم ، وغنموا من ارضهم وتعودوا قتالهم . .

وهذا القول ينطبق كل الانطباق على طريقة العرب ، في الدور الاول من حملتهم . اذ ان فتحهم للشام ، كان على مرحلتين ، سلكوا في الاولى منها طريقة الغزو على القرى وطرق المواصلات والقلاع ، وكانوا كلما توغلوا وقابلتهم قوات كبيرة من الروم ، ارتدوا نحو الشرق ، قبل ان يسبقهم الروم ، ويحولوا بينهم وبين الصحراء ، معقلهم الحصين . وكانت هذه المرحلة قبل اليرموك . اما بعد اليرموك ، وهي المرحلة

الاخرى ، فكان فتحهم للشام ، يسير بنظام دقيق وبخطة مرسومة .

ومما يدلنا على ان العرب سلكوا في المرحلة الاولى طريقة الاغارة فقط ، انهم وصلوا في تقدمهم إولاً الى الانحاء الشمالية من البلاد ، ففتحوا دمشق (وهو الفتح الاول) في شهر آب سنة ٦٣٥ وبلغوا حمص ، وكل ذلك قبل معركة اليرموك بسنة ، ثم تراجعوا .

وبعد انتصار اليرموك ، عادوا ففتحوا دمشق وحمص من جديد . وكانت المعارك الفاصلة التي خاضوها ضد الروم ، في أجنادين (على طريق بيت جبرين)، وفي (فحل) الواقعة الى الجنوب من بيسان ، وعلى اليرموك شمالي بيسان بقليل . وبيسان هذه قريبة من الصحراء ، وهي مركز اتصال طبيعي خطير بين فلسطين وسوريا ، والطريق بين البحر وحوران ، والجسر التي عبرت عليه جيوش الفاتحين من اقدم عصور التاريخ ، وفيه قرر مصير الحثيين والروم والمغول والاتراك .

وعلم العرب ، وكانوا في الجهة الشمالية من سوريا ، بتقدم الروم نحوهم بجيوش جرارة من انطاكية ، فعقد ابو عبيدة ، وكان قائد المسلمين في حمص ، مجلساً للشورى ، قال فيه احد قواده : ننزل عيالنا في مدينة حمص ، ونقف للروم امامها . . فقال ميسرة بن مسروق ، وهو فاتح شمال سوريا : لسنا

باصحاب القلاع ، ولا الحصون ولا المدائن ، وانما نحن اصحاب البر والبلد القفر ، فأخرجنا من بلاد الروم الى بلادنا او ما يشبه بلادنا ، ثم ضم اليك قواصيك ، وابعث الى امير المؤمنين ليمدك . . فقال الجميع : الرأي ما رآه ميسرة . .

ونتقدم الآن بوصف صورة الفتح : فالرواية الغالبة ، هي ان امراء الجيوش كانوا اربعة ، وهم يزيد بن ابي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة ، وعمرو بن العاص ، وابو عبيدة بن الجراح ـ وكان كبير القواد او القائد العام ، ولكن المشهور هو ان ابا عبيدة ، لم يل القيادة العامة في عهد ابي بكر ، بل وليها في عهد عمر . . وقد سلك يزيد وشرحبيل طريق سكة حديد الحجاز الحالية ، اي الى مدائن صالح وتبوك ومعان . وسلك عمرو بن العاص الطريق الساحلية الى العقبة وطريق غزة . وكان يزيد اول من اشتبك في معركة مع الروم .

وكان الروم بعد مؤته ، وقطع مرتباتهم المالية عن القبائل العربية ، قد عهدوا الى جندهم النظامي ، في الدفاع عن حدود الصحراء ، غير ان اكثر حصونهم على هذه الحدود ، كانت في حالة رديئة لكثرة اهمالها . وكان حاكم قيسارية على رأس قوة رومية في وادي عربة في جنوب البحر الميت ، فقاتله يزيد وغلبه ، فانهزم الى غزة ، وكان ذلك في شهر شباط سنة ٦٣٤ . ولكن يزيد لم يتعقب فلول الروم ، وتراجع الى ما وراء البحر الميت .

وقبل ان يشتبك العرب مع الروم في اجنادين ، كان خالد بن الوليد ، قد تلقى امر الخليفة بالشخوص الى الشام ، مع من معه من اهل الحجاز . . فسار خالد من الحيرة ، واغار على الأنبار ، ثم انحط الى عين التمر ، ومنها الى دَوْمَة الجندل وهي بلدة الجوف الحاضرة .

وقد كان في امكانه ان يسلك طريق وادي السرحان الى بصرى مدينة حوران ومفتاح الشام الاول ، ولكنه عدل عن هذا الطريق ، لوجود الحصون الرومية فيه ، وسار شمالاً ، فاغار على (قراقر) وهو ماء لقبيلة كلب ، ثم فوز الى (سوى) وهو ماء لكلب ايضاً ، و(سوى) قرب بلدة سبع بيار الحاضرة ، في الجهة الشمالية الشرقية من دمشق وتعد مفتاح الشام الثاني (وسبع بيار هذه تحريف سبع آبار) . .

وقد ترك خالد الحيرة في آذار ، وظهر في الغوطة وراء جيوش الروم المتقدمة نحو جنوب فلسطين في نيسان ، بعد رحلة قصيرة لم تتجاوز العشرين يوماً ، نصفها في قفر لا ماء فيه . وكان في صحبة خالد نحو ثمانمئة رجل ، فأغار بهم على حوران وعلى منازل بني غسان ، في جانب مرج راهط ، في الجهة الشمالية الشرقية من دمشق . وقد مر بثنية العُقاب في الغوطة ، والتقى بجيوش المسلمين امام بُصرى ففتحوها .

في هذا الوقت الذي اصبحت فيه الغوطة وحوران وشرق

الاردن ، تحت رحمة الغزاة ، كان هرقل في حمص يجمع جيشاً جديداً . ولما تحرك هذا الجيش تراجع العرب ، واجتمعوا كلهم في وادي عربة . وقد فعلوا ذلك ليكونوا حشداً واحداً لا متفرقين ، وليختاروا المكان الذي يريدونه ، والزمان الذي يهجمون فيه . وساعدهم تنقلهم السريع على ذلك .

فهاجموا اجنادين في ٣٠ تموز سنة ٦٣٤ وانتصروا على الروم انتصاراً باهراً ، وبذلك فتحت الطريق امامهم الى غزة والقدس وقيسارية ، ولكنهم لم يتتبعوا فلول الروم في هذه الطريق ، وساروا الى ما وراء الاردن . وقد توفي ابو بكر بعد هذا النصر العربي الاول ، باربع وعشرين ليلة .

وبعد معركة أجنادين بستة اشهر ، جمع الروم جيشاً كبيراً ، وقابلوا العرب في مكان يقال له (فحل) وقد سبق ذكره ، وهو واقع على الضفة الشرقية من الاردن التي تقابل بيسان ، وهو مجاز مهم إلى جنوب الشام ، وكان ذلك في كانون الثاني سنة ٦٣٥ .
٦٣٥ .

وقبل المعركة انضم الى المسلمين رجال كثيرون من قبائل لخم وجذام وغسان وعاملة وقضاعة ، فكان في ذلك عون لهم . . وقد أغار المسلمون قبل المعركة على القرى المجاورة ، وقطعوا المدد والميرة عن الروم ، ثم نشبت بين الفريقين المعركة ، وانتصر العرب ، وانهزم الروم ، والتجأ جمهور منهم الى القدس

وقيسارية ، ولحق الباقون بجيشهم في الشمال . . والذي يبدو ، ان الاكثرية من الروم تراجعت الى قيسارية والقدس لاهميتها ، ولخوف الروم من ان يهجم العرب عليهما .

غير ان خالداً لم يتتبع الجنود المنسحبين ، بل تقدم نحو دمشق ، واخضع في طريقه البقاع وبعلبك وحمص ، ثم نزل على دمشق وحاصرها ، الى ان استسلمت له ، واعطى اهلها عهداً ، كان مثالاً نسج عليه المسلمون في عهودهم العادلة ، التي قطعوها لما فتحوه من المدن بعد ذلك .

ورأى الروم في قيسارية والقدس ما حل بقواتهم المحاربة ، فأرسلوا الى هرقل يستنجدونه . ورأى هرقل ان المحنة التي تستهدف لها بيزنطية الان ، لا تقل عن المحنة الاولى ، يوم احتل الفرس البلاد ، وادرك الخطر الذي يتهدده ، فجمع جيشاً جراراً من الاناضول وأرمينيا والقوقاز .

ولما علم المسلمون بذلك ، وشعروا بتقدم هذا الجيش اللجب نحوهم ، عقدوا مجلسهم للشورى في حمص ، وهو الذي أشرنا اليه في اول الحديث ، واستقر رأيهم ان ينسحبوا الى الجنوب ، ليكونوا على مقربة من خط تراجعهم النهائي ، وطريق امدادهم . . وكان خالد اذ ذاك في دمشق ، فلم يرض بالانسحاب الى اكثر من حدود الشام ، ووقع اختياره على موقع اليرموك .

وكان رأي يزيد الانسحاب الى العقبة ، ورأي عمرو بن العاص الانسحاب الى وادي القرى ، على طريق المدينة . . فقال لهم خالد : ان كنا تقاتل بالكثرة ، فالقوم اكثر منا ، وان كنا نقاتلهم بالله ولله ، فما أرى جماعتهم ، ولو كانوا اهل الارض جميعاً ، انها تغني عنهم شيئاً .

اختار خالد المكان الذي يقاتل فيه عدوه . وعسكر الجيشان في جهتين متقابلتين . وكانت تجري بينهما مناوشات . وكان فرسان العرب ينتشرون هنا وهناك ، يجوسون خلال البلاد ، ويقطعون الامداد والارزاق عن الروم ، وكثيراً ما كانوا يغيرون على القرى ، وينكلون بجماعات الروم الصغيرة التي يقابلونها .

ولم يعزم خالد على دخول المعركة الفاصلة ، الا بعد ان ايقن بنجاحه ، في اثارة الاضطراب في صفوف اعدائه ، وقد تولاهم الملال من هذه الحرب التي لم يألفوها من قبل ، فعرضوا على خالد الصلح ، على ان يطلقوا يد العرب في ما وراء الاردن وبادية الشام . ولكنه رفض ، وعبأ جنده اصلح تعبئة ، وانتظر حتى تحين الساعة ، وقد اختار لها يوماً من ايام آب الشديدة الحر الكثيرة الغبار . . وما انبثق فجر هذا اليوم ، حتى بادر فرسان العرب بقيادة خالد الى الاغارة على جناحي العدو وفيهما فرسانه .

وكان فرسان العرب ، أقدر على الكرّ والفرّ وأبرع

فروسية ، ولكن كثرة الروم ، وكانوا خمسة اضعاف العرب ، كادت تكون الظافرة . . وقد اندفع الروم نحو ميسرة المسلمين بعد ان هزموا الفرسان ، وعلا الهرج والمرج في صفوف المسلمين . فما كان من خالد ، الا ان حمل على القوم وهو يكبّر ، وصاح بقواده ان يحملوا حملة صادقة ، فكانت حملته مفتاح النصر ، اذ هزمت فرسان الروم هزيمة منكرة ، وانكشفت صفوفهم لخيول العرب ، فاعملوا فيهم السيوف والرماح ، وعمتهم الفوضى ، فذعروا وارتبكوا ، ولاذوا بالفرار ، ولكن أنىّ لهم ذلك ، وقد تراصت صفوفهم وتكدست ، واخذت تتساقط وهي راجعة عشرات ومئات ، في وادٍ من اودية اليرموك يعرف بوادي الرقاد ، حتى امتلأ بهم فسمي وادي الواقوصة من ذلك الحين ، لانهم وقِصُوا فيه اي سقطوا ودقت اعناقهم . .

وكان هذا اليوم من ايام التاريخ الاسلامي المشهورة . . ورأى خالد مبلغ النجاح الذي اصابه ، فلم يترك الاعداء يفلتون هذه المرة ، كما كان يصنع في المعارك السابقة ، فتتبعهم وفتك بهم ، الا من نجا منهم الى قيسارية او القدس ، وتعقب العرب فلولهم الاخرى الى دمشق وحمص ، ثم تقدموا في الانحاء الشمالية ، يحاربون ويغنمون ، الى ان بلغوا جبال طورس ، وهي الحد الفاصل بين الشام والاناضول .

وحاصر المسلمون القدس الى ان تم فتحها صلحاً سنة ٦٣٨

على يد الخليفة عمر بن الخطاب نفسه ، وكان قد قدم الشام وقتئذ ، ونزل في الجابية حيث كان معسكر العرب ، قريباً من دمشق ، فلما طلب البطريرك تسليم المدينة المقدسة اليه ، جاء عمر وتسلمها ، ثم واصل مسيرة راجعاً الى المدينة المنورة ، عن طريق غزة والعقبة .

كانت عبقرية خالد ، هي التي فتحت على المسلمين باب النصر ، وسحقت قوة الروم الحربية ، فهو بحق انبغ رجال العرب في فنون الحرب ، ويعد من ابطال المعامع الذين ذاعت شهرتهم في العالم . . وكما كان خالد عبقرية عسكرية ، كان ابو عبيدة ادارياً عظيماً من الطراز الاول ، وقد اتم الرسالة التي تسلمها من خالد ، وبلغ بجيشه الباسل حدود الاناضول .

(الشام ـ موقعها وحدودها)

تعقب خالد بن الوليد الروم ، بعد هزيمتهم في اليرموك ، وسحق مقاومتهم في كل مكان ، الا في المدينتين المصطبغتين بالروح الرومية في ذلك الوقت ، وهما القدس وقيسارية . وكانت الاولى مركز الروم الروحي ، والاخرى عاصمتهم المدنية ، وموئل مَدَنيَّتهم في القطر الشامي ، لا يدانيها في ذلك ، الا انطاكية في الشمال .

وقد سقطت القدس بعد اليرموك بنحو سنتين . واما قيسارية ، فقد حاصرها معاوية بن ابي سفيان سبع سنوات ، حتى تمكن اخيراً من تحطيم مقاومتها والتغلب عليها . ولم تثبت قيسارية كل هذه المدة الطويلة ، الا لمناعة حصونها ولاتصالها البحري ببلاد الروم . . وكان المسلمون بعد اليرموك قد اندفعت جموعهم تقتفي آثار الروم ، حتى بلغت جبال طورس ، وهي الحد الطبيعي الحصين بين الشام والاناضول .

وغمرت هذه الجموع الجزيرة واعالي الفرات ، ثم هبطت العراق . وكان كل ذلك سبباً في تسهيل الاعمال الحربية في تلك الانحاء . وقد اندفع احد القواد المغامرين ، وهو عياض بن غنم ، الى ارمينيا ، فبلغ بحيرة وان ، ثم عاد الى الرقة على الفرات .

وظل العرب متصلين بالروم ، وظلت الحروب متصلة بين الامتين دهراً طويلاً . وكان الروم قد ودعوا الشام وداعاً لا رجعة بعده ، واصبحت الشام كلها للعرب ، واتخذتها جيوشهم قاعدةً جديدة لحركاتها ، وقد تمكنت من التوسع الكبير شرقاً وشمالاً .

نعم انها لم تتقدم كثيراً في اتجاه الشمال ، نحو الاناضول ، ولكن الحدود بين ديار العرب وديار الروم ، ظلت مسرحاً لحروب وغزوات كثيرة ، غزت التاريخ والادب العربي ، ثمانية قرون طوال ، حتى كان عهد الدولة التركية العثمانية ، وجاءت

جيوشها فاجتازت الاناضول ، من الشرق لا من الجنوب ، وقضت على الدولة البيزنطية ، ثم زحفت جنوباً ، فازالت الحدود التي كانت على الدوام مثاراً للنزاع بين الروم والمسلمين . منذ أسس العرب ملكهم في الشام وغيرها، الى ان ورث الاتراك عنهم هذا الملك .

وقد امتازت الشام عن باقي الديار العربية والاسلامية ، وكانت بحق مركز القوة العربية ، منذ امتدت الى اسبانيا والصين ، وفيها قامت اول امبراطورية عربية . . ويبدو أن صلة العرب القديمة بالشام ، وقرب ديارهم الاولى منها ، جعلت هجرتهم إليها بعد الفتح سريعة وكثيرة ، فلم يمض زمن طويل حتى أصبحت الشام منزل أكثر القبائل العربية ، واليمنية خاصة .

لم يكن للثقافة الاغريقية اثر كبير في سكان الشام ، فقد حافظ هؤلاء على لغتهم الآرامية ، وشعورهم السامي ، وخالفوا حكام الروم حتى في المذهب الديني ، فكانوا القائلين بالطبيعة الواحدة في السيد المسيح عليه السلام ، بخلاف الرأي الذي اخذت به الكنيسة الرومية الرسمية . وقد ظهر حب سكان الشام للفاتحين العرب ، وإعراضهم عن الذين كانوا بالامس اولياء امورهم من الروم ، اوضح مظهر في مدينة شيزر الواقعة بين حماة واللاذقية ، وهي التي ذكرها امرؤ القيس في شعره . فان هؤلاء استقبلوا العرب في ظاهر مدينتهم بالاغاني والأهازيج .

ولا ينكر احد ، ما للحجاز من المقام العظيم ، لانه مبعث الاسلام ، غير ان الشام قد اصبحت الان ـ بعد استيلاء العرب عليها ـ العضو الاول في الامبراطورية العربية خارج الجزيرة ، وقد آلت اليها من الحجاز زعامة الديار الاسلامية في فترة قصيرة ، وفيها رسخت القوى العربية ، حتى استتب للعرب نشر سلطانهم على جميع الديار ، من السند وفرغانة شرقاً ، الى الاندلس والاطلس غرباً ، وقد بلغ اتساع هذه الديار معظمه في عهد الشام .

وانفردت الشام بخصائص لم تكن سواها . فمن ذلك قُربهُا من الجزيرة واتصالها بالحجاز اتصالاً طبيعياً سهلاً . ومنها توسطها بين الاقطار الاسلامية : مصر وافريقيا من جهة ، والعراق وفارس وخراسان وما اليها من جهة اخرى . ومنها جوارها للروم ، وهي الدولة الوحيدة التي ظل الصراع بينها وبين العرب دهراً طويلاً .

وقد أعادت الشام فتح البلاد العربية بكاملها ، بعد ان استتب الامر لبني امية فيها . وكان ابو عبيدة قبل ذلك هو اول من وليها من عمال العرب ، وقد توفي بعد الفتح بقليل في عمواس بالطاعون ، الذي انتشر في فلسطين في ذلك الزمن . . وخلف ابا عبيدة في الولاية ، يزيد بن ابي سفيان ، وهو لم يلبث ان توفي كذلك بالوباء المذكور ، فآل الحكم بعده لاخيه معاوية ، وهو الذي جعل من الشام مركز قوة عربية ، برية وبحرية .

ولما نشب الخلاف على الخلافة في المدينة ، واثيرت العصبية بين بني هاشم وبني امية ، اتخذ معاوية من الشام مركزاً لحزب بني امية . . ومن الشام فتح بنو امية مصر ، وفتحوا الحجاز ، وفتحوا العراق ، ثم وسعوا رقعة الدولة شرقاً وغرباً ، وفتحوا افريقيا وخراسان ، وحافظوا على حدودهم الشمالية اتم محافظة ، بينما كان الروم يتطلعون بلهفة الى املاكهم الضائعة ، ويتحينون كل فرصة لاستردادها . . ولكن عبقرية معاوية ، قضت على كل آمالهم .

وان معاوية ، هو الذي حشد في الشام اكثر القبائل العربية واقواها ، واتخذ من السكان الاصليين اعواناً وعمالاً لبناء الاسطول العربي الاول ، الذي قضى معاوية به على تفوق الروم البحري ، وفتح قبرس ، وحاصر القسطنطينية . .

ومن خصائص الشام أيضاً ان العرب فيها حافظوا على عروبتهم وطبائعهم البدوية النقية ، فلم يختلطوا بالاعاجم ، ولم تطغ عليهم مدنية الاغريق . . ولكنهم لما انقلب الامر ، وانتقل مركز القوة الى العراق ، ضعفت العصبية العربية فيهم ، وفشت الشعوبية .

هذه المميزات التي تفردت بها الشام ، تحدونا على ان نواصل حديثنا عنها ، وأن نذكر شيئاً عن ادارتها وبعض شؤونها في العهد العربي ، قبل ذكر الفتوح في البلاد الاخرى . . فقد اطلق

الاغريق على البلاد المجاورة لصور اسم (سوريا). ثم عم استعمال هذا الاسم لجميع القطر ، الذي يُكَوِّن مع فلسطين وحدة جغرافية واحدة ، عرفت عند العرب باسم واحد هو (الشام)، وهو مأخوذ من موضع هذا القطر بالنسبة الى الحجاز . فان الواقف في الحجاز ، اذا اتجه نحو مطلع الشمس ، كانت الشام عن شماله ، واليمن عن يمينه .

أما (المقدسي) وهو العالم الجغرافي العربي ، الذي نشأ في القدس ، ووضع في اواخر القرن العاشر للميلاد كتابه (احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم)، المبني على خبرة واسعة وحسن اطلاع ، بعد رحلات طويلة قام بها في بلاد الاسلام ، فانه يذكر سبباً ثانياً لتسمية هذا القطر بالشام ، وهو سبب طريف يظهر مكانه الشام عند العرب . . فالمقدسي يرى ان جمال الشام هو كنسبة جمال (الشامة) في خد الحسناء ، ولعل اسم (الشام) اشتق من هذا التشبيه ، وأن الغوطة في صحراء الشام لاجمل - على رأي المقدسي - من الشامة في الوجه الصبيح .

ويقسم المقدسي الشام طبيعياً إلى أربعة أقسام ، وهي السهل الساحلي الذي تتخلله الأراضي المزروعة ، ومن مدنه الرملة وجميع مدن الساحل . والقسم الثاني هو القسم الجبلي وفيه الغابات والينابيع ، وتكثر فيه القرى والمزارع ، ومن مدنه بيت جبرين والقدس ونابلس واللجون ومدن البقاع وإنطاكية وغيرها .

ثم غور الاردن ، وتكثر فيه القرى والجداول ، ومن مدنه لعقبة (واسمها القديم ايلة) وتبوك واريحا وبيسان وطبريا ويانياس . اما القسم الرابع فهو المنطقة المجاورة للصحراء ، وهي جبال عارية عالية ، مناخها كمناخ البراري ، ولكن فيها القرى والينابيع والغابات ، ومن مدنها مؤاب وعمان واذرع او أذرعات (درعا) ودمشق وحمص وتدمر وحلب .

ومما يذكره المقدسي عن الغور قوله : كنت مقيماً يوماً في اريحا ، فقال لي الحكيم غسان : أترى هذا الوادي ؟ انه يمتد من هنا الى الحجاز ، ثم الى اليمامة وعُمان ، ثم الى البصرة وبغداد ، الى ان يصل الى الرُّقّة في غرب الموصل ، وهو دائماً وادي الحرارة والنخيل . . فما ابلغ هذه الصورة العامة لهذا الوادي ، الذي يطوق الشام وبعض العراق والجزيرة .

ويقول المقدسي أن أبرد مكان في الشام هو بعلبك ويقال أن أحدهم سأل البرْد : أين نجدُك فقال : في البلْقاء . فقال السائل : وإذا لم نجدك هناك ؟ فأجاب البرد : حقاً أن موطني في بعلبك . . وقال المقدسي أيضاً في وصف فلسطين : انها انفردت بأنها جمعت من الحاصلات في رقعة صغيرة ، ما لم يوجد مجتمعاً في رقعة أخرى على سطح الأرض ـ وهو في ذلك صادق ، لأن فلسطين قد جمعت المناخ المعتدل والحار والبارد ، كما جمعت السهل والجبل والغور .

ويذكر المقدسي ايضاً : ان في فلسطين سبعة أشياء لا توجد في غيرها وهي حب قريش والتفاح الصيداوي والزبيب العينوني والزبيب الدوري والخوخ الكافوري والتين السبيعي وتين دمشق . .

ويذكر المسعودي ، الذي سبق المقدسي بقليل : ان شجرة النارنج والأترج المدور ، وهو البرتقال ، جيء بها من الهند سنة ٣٠٠هـ اي قبل الف سنة واكثر ، وانها غرست اولاً في عمان ، ثم حملت الى البصرة والى العراق وسوريا . ويقول المسعودي : انها تكثر الآن في جميع مدن الساحل ، وفي شمال سوريا ومصر .

وقبل ان اختم هذه الكلمة عن الشام وموقعها ، أذكر الحدود التي اوردها ابن حوقل ، والاصطخري وقد كتب ذلك في القرن العاشر الميلادي ، قبل المقدسي بقليل ، وهي كما يلي : من المغرب بحر الروم ، وهو البحر المتوسط . ومن الشرق الصحراء ، من العقبة الى الفرات ، ويسير الحد مع الفرات الى حدود الروم . والحد الشمالي بلاد الروم . والجنوبي مصر وصحراء التيه .

وآخر نقطة في جنوب الشام ، هي رفح . وآخر الحدود في الشمال ـ الثغور او القلاع ، ومنها ملطية والحدث ومرعش وأَطَنَة وطرسوس . . وفي القرن الرابع عشر ، بعد انتهاء الحروب

الصليبية ، كتب ابو الفداء المؤرخ المشهور عن الحد الشمالي للشام فقال : انه يمتد من (باليس) على الفرات ، الى قلعة النجم والبيرة وقلعة الروم وحصن منصور ومرعش ، ثم الى ارمينيا وطرسوس على البحر .

(الأجناد)

كان أهم ما انصرفت اليه الافكار ، على اثر احتلال الشام ، او في اثنائه ، هو كيف يجب ان تكون علاقة العرب بسكان البلاد الاصليين ، فارتأت جماعة من أولي الكلمة من العرب ، ان يفرضوا عليهم الجزية ، ويتركوهم في أعمالهم وزراعتهم . ورأت جماعة اخرى ان يقتسموهم . وكتب ابو عبيدة بذلك الى عمر ، فأجابه ، أن يقر اهل البلاد في ارضهم ، على ان يؤدوا الجزية للمسلمين . ومن كلامه لابي عبيدة في هذا الشأن ، والاشارة هنا الى اهل البلاد : أتركهم عماراً للارض ، فهم أعلم بها وأقوى عليها ، وكف عنهم السبي ، وامنع المسلمين عن ظلمهم ، والاضرار بهم ، وأكل اموالهم . .

وكان السبي ، هو ما ألفه الناس في حروب ذلك الزمان ، فكان للغالب الحق المطلق في سبي النساء والاولاد ، وقتل الرجال ، ومصادرة الاموال . فوضع عمر شرعة جديدة بالكف عن السبي . وقد جعل الجزية أقل من الضرائب التي اعتاد اهل

البلاد دفعها للروم . واذا اضفنا الى ذلك تسامح العرب الديني ، بالمقابلة مع اضطهاد الروم للنساطرة واليعاقبة ، ادركنا سر ترحيب الشام ومصر بالعرب الفاتحين . ولعل قدوم عمر الى معسكر المسلمين في الجابية ، بعد معركة اليرموك ، انما كان لهذه الغاية ، ولوضع اسس السياسة الجديدة التي يجب ان يتخذها العرب في البلاد التي يستولون عليها ، واخراج الاجانب منها ، او ابقائهم على ما كانوا عليه . .

وجرياً على هذه السياسة ، اخرج عمر غير المسلمين من الجزيرة ، فهاجر يهود خيبر الى اريحا ، ورحل نصارى نجران الى الشام والعراق . وقد حظر عمر على العرب العمل في الارض خارج الجزيرة ، وامر باتخاذ معسكرات عربية صرفة في مراكز مختلفة في البلاد التي يفتحونها ، تكون بعيدة عن مدن الاقاليم ما امكن ، واصبحت هذه المعسكرات مع الايام ، هي مراكز الحكم والادارة وسميت اجناداً ، وكان اشهرها : الجابية وحمص وعمواس وطبريا واللد ، وقد نقل معسكر اللد فيما بعد الى الرملة . وكان في مصر معسكر الفسطاط . وفي العراق الكوفة والبصرة . وفي افريقيا القيروان .

وكانت الشام في عهد الروم ، مقسومةً الى خمسة اقسام ادارية : هي : (١) فلسطين الاولى ، وحاضرتها قيسارية ، على الساحل بين حيفا ويافا ، وتشمل جبل القدس وجبل نابلس

وما اليها الى غزة . (٢) فلسطين الثانية ، وحاضرتها بيسان ، وتشمل الجليل . (٣) فلسطين الثالثة ، وتشمل شرق الاردن والبتراء . (٤) فينيقية ، وحاضرتها صور ، وتشمل لبنان . (٥) سوريا ، الى الشمال من فينيقية ، وحاضرتها انطاكية . . وحافظ العرب على هذا التقسيم ، مع ادخال بعض التعديل عليه ، مما يوافق طبيعة البلاد ، فاتخذوا الغور مثلاً ، وهو الممتد من بحيرة لوط الى البقاع ، فاصلاً بين الاقسام الشرقية والغربية ، وجعلوا مرج ابن عامر والبقاع واول جبال طورس حدوداً بين الاقسام من الجنوب الى الشمال ، وجعلوا الشام كلها خمسة أجناد وهي .

الاول : جند فلسطين ، وهو القسم الواقع بين الصحراء جنوباً ومرج ابن عامر شمالاً ، وبين البحر ونهر الاردن . وكانت اللد حاضرته . ولما اختط الخليفة سليمان بن عبد الملك مدينة الرملة ، بالقرب من اللد والى الجنوب منها ، نقل مركز الجند اليها . وقد ذكر الاصطخري وابن حوقل جند فلسطين فيا كتباه ، انه يمتد من اللجون شمالاً الى رفح جنوباً ، وأن طوله مسير يومين على الخيال ، او اكثر قليلاً ، وعرضه من يافا الى اريحا ، قدر طوله تقريباً ، وقد جعلا اقليم الشراة الواقع بين العقبة وجبال مؤاب ملحقاً به .

ويقول اليعقوبي : ان سكان فلسطين على عهده (في القرن

التاسع) اكثرهم من قبائل لخم وجذام وعاملة وكندة وقيس وكنانة . . وعلى عهد ابن حوقل كانت الرملة عاصمة البلاد . . اما ياقوت (في القرن الثالث عشر) فيذكر أن عاصمة فلسطين هي القدس . . وقد اشار الله تعالى الى فلسطين في سورة الانبياء ، اذ قال عن ابراهيم : (يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم ، وأرادوا به كيداً ، فجعلناهم الاخسرين ، ونجيناه ولوطاً الى الارض الت باركنا فيها للعالمين) . . ويقول ياقوت : ان فلسطين هو ابن سام ابن ارام بن سام بن نوح . . ويقول الاصطخري عن التيه ، وكان تابعاً لفلسطين ، انه ارض عرضها اربعون فرسخاً ، وطولها كذلك ، تملأها الرمال ، الا ان بها عيوناً ونخيلاً في بعض الاماكن ، وتمتد من الجفار الى سيناء . . ويعرِّف الادريسي التيه ، بانه يمتد بين البحر الاحمر والبحر الشامي . . ويذكر الدمشقي (في القرن الرابع عشر) في جملة ما ذكره من مدن التيه ، مدينة السبعة ، وهي بئر سبع الحالية . . وقال الاصطخري عن الجفار ، وهو النقب اليوم ، انه واقع بين بحيرة التنين في مصر وحدود فلسطين ، وهو بلاد الرمال ، الملونة بالوان زاهية ، وفيها القرى والنخيل ، وحدودها البحر المتوسط وصحراء التيه وجزء من مصر يمتد الى السويس ، وكان فيها على عهد الفراعنة مدن عامرة .

الثاني : جند الاردن ، ويشمل الغور والبحر الميت وشمال فلسطين ، وحاضرته طبريا . قال ابن الفقيه (في القرن

العاشر) : إن من اعمال الاردن طبريا ونابلس وبيسان وجرش وعكا وصور . . وقال ابن حوقل عن الغور : انه يمتد الى العقبة . وقال الادريسي : ان الاردن يجري في الغور ، وتصب فيه الجداول من جهات طبريا وبيسان ونابلس وغيرها . وكان في جنوب بحيرة لوط ، مدينة يقال لها مدينة الشمس (ولعلها صُوغَر) ، وقد سميت البحيرة باسمها في كتاب الادريسي .

الثالث : جند دمشق ، وفيه قرى الغوطة ، وجميع الاقاليم التي تقع شرقي الاردن ، ومنها البلقاء ، ويضيف ابن الفقيه الى هذا الجند اقاليم جبيل وبيروت وصيدا وطرابلس والجولان وغيرها ، ويقول انها كانت في عهده (في القرن العاشر) من جند دمشق ، وقد جعل مدينة صور حداً بين جند دمشق وجند الاردن . . وفي عهد ياقوت (في اواخر القرن التاسع) كان في الغوطة قبائل من اصل غساني ، وكان الغساسنة قد سكنوا الغوطة وحكموها قبل الاسلام . والغوطة ، كما يقول ياقوت ، احدى جنات الدنيا الاربع . . وكانت بانياس حاضرة الجولان ، وهو احد اقاليم جند دمشق ، وبُصْرى حاضرة حوران ، وعمان حاضرة البلقاء ، واذرع حاضرة الشراة وهي جبال مؤاب ، وكلها من اقاليم جند دمشق .

الرابع : جند حمص ، وحاضرته حمص ، ومن مدنه سليمة وتدمر وكفرتاب واللاذقية وجبالة . وقد قسم هذا الجند فيما بعد

الى جندين وهما قنسرين (الى الجنوب من حلب) والعواصم (الى الشمال من حلب)، وصارت الاجناد بذلك خمسة . . وقد تم هذا التقسيم في عهد المنصور او الرشيد ، بعد ان اتسعت حدود الشام الشمالية بالفتوح ، التي جرت في عهد الخلفاء الاولين من بني العباس . وميزت (العواصم) عن بلاد الحدود التي عرفت فيا بعد باسم (الثغور). وقد كان لهذين الاقليمين (العواصم والثغور) اهميتهما واثرهما في تاريخ العرب والاسلام ، مما سنفرد له حديثاً خاصاً ان شاء الله .

وبقي هذا التقسيم في القطر الشامي حتى الحروب الصليبية ، فغير الصليبيون وبدلوا ، وأنشأوا في الاقاليم التي احتلوها ممالك ، اختلفت اسماؤها وحدودها . فلما انتهى امرهم ، بفضل ما قام به صلاح الدين الايوبي ، من اعمال البطولة التي لن ينساها احد . تجزأت الشام بعده الى تسع ممالك ، كانت حدودها في تغيير وتبديل ، الى ان كان عهد الاتراك العثمانيين .

وكانت الاقسام الادارية في اواخر العهد العثماني . قريبة الشبه بالأجناد العربية القديمة ، فكانت ولاية حلب في الشمال . والى الجنوب منها ولاية الشام شرقاً ، وولاية بيروت غرباً . وكانت القدس متصرفيةً قائمة برأسها ، وتشبه تماماً جند فلسطين الذي سبق ذكره . وكانت متصرفية قائمة برأسها ، وتشبه تماماً جند فلسطين الذي سبق ذكره . وكانت متصرفية عكا (وهي من

ولاية بيروت) تشبه جند الاردن ، وفيها نابلس وطبريا ، وولاية الشام تشبه جند دمشق .

ولقد وطد العرب اقدامهم في الشام بعد الاستيلاء عليها ، بعملين كبيرين : هما فتح البلاد المجاورة لها في الجنوب والشرق ، واقامة الحصون والحاميات على الحدين الاخرين ، وهما الشمالي من جهة الاناضول ، والغربي على ساحل البحر . . وأختم حديثي هذا ، بالوصف الشائق الذي اثبته المقدسي للحصون الساحلية ، وكانت تعرف (بالرِّباطات) تمييزاً لها عن حصون الشمال التي اطلقوا عليها اسم (الثغور) قال في وصف هذه الرِّباطات : إنها تقع على سواحل فلسطين ، وفيها مراكز المراقبة حيث كانت تجمع العساكر ، والواحد منها رباط . . وتاتي سفن الروم الى المواني على الساحل ، وعليها اسرى المسلمين الذين كان يغنمهم الروم في حروب الثغور . . ويُعَرض هؤلاء الاسرى في (المراكز) للفداء ، كل ثلاثة اسرى بمئة دينار . . فيتسابق المسلمون في تقديم الاموال ، ليستنقذوا بها الاسرى . . وفي كل رباط جماعة من المسلمين يعرفون لغة الروم ، فعندما تظهر سفينة رومية امام رباط ، تقرع اجراسها ، فان كان الوقت ليلاً تضاء ساريتها ، وان كان نهاراً توقد عليها نار لها دخان ، وقد اقيمت من هذه المراكز الى الرملة (العاصمة) مآذن عالية ، يكون في كل منها نفر من الرجال . فاذا جاءت سفينة الروم ، اضيئت المآذن التي يشاهدونها منها ، فتضاء المآذن

التي تشاهد ضوء هذه ،ـ وهكذا حتى يصل الخبر الى كل مكان بسرعة ، لا تتجاوز الساعة ، وتضرب الطبول حالاً في العاصمة ، فيهرع الناس الى الرباطات ، ومعهم اسلحتهم . . ويذكر المقدسي ، من هذه المراكز التي كان يجري فيها التفادي ، ويقوم الجند على حراستها ، المدن الآتية : غزة وميماس وعسقلان واشدود ويُبْنة ويافا وأرسوف .

(فتح العراق)

تقع في شمال جزيرة العرب صحراء السماوة ، وتمتد شمالاً بين منطقتين مخصبتين ـ هما الشام والعراق ، وتتصل بالبحر الأبيض المتوسط ـ وكانت صلة العرب بالأمم التي عمرت ما بين نهري دجلة والفرات ، قديمةً متينةً ، كالصلة التي كانت لهم بامم الشام ، وفي التاريخ القديم ، هاجر بعض سكان الجزيرة الى ما بين النهرين ، كما هاجر غيرهم الى مصر والشام .

وقد كانت اول مدنية ازدهرت في تلك البقعة الخصبة ، بين أعظم نهرين في غرب آسيا ، سامية الأصل ، وأول مشترع في التاريخ ، وهو حمورابي ، من اصل عربي قديم .

وكانت القبائل العربية قبل الاسلام بقليل ، مرتبطةً بغيرها من الأمم المجاورة . فمنها ما كانت صلته بالروم ، وتجارته مع الشام ، ومن هؤلاء الأنباط والغساسنة وعرب الحجاز

والأردن ، ومنها ما كانت داره العراق ، وصلته بالأكاسرة ، وتجارته مع فارس ، ومن هؤلاء امراء الحيرة ، اللخميون ، الذين مدحهم الحارث بن حلزة وطرفة والنابغة ، وفاخرهم عمرو بن كلثوم ، وقد عرفوا بالمناذرة .

ومن القبائل المتاخمة للحيرة ، والتي كان لها اتصال بآل ساسان ، قبائل بكر بن وائل الكبيرة ، ثم بنو أسد ، وقد قتل هؤلاء عاملهم الكندي بتحريض المناذرة ، وهب ابن القتيل ، وهو أمرؤ القيس المشهور ، يستنجد الروم على اعدائه الموالين لأعداء الروم . وكان اشتراك العرب في النزاع بين الفرس والروم ، من أبرز الاعمال السياسية التي قام بها العرب قبل الاسلام .

وقد دخل المنذر ملك الحيرة القدس سنة ٦١٤ يوم احتلها الفرس . ودروز الجبل يرجعون في اصولهم الى تنوخ ـ من امراء الحيرة اللخميين ، وكانوا قد اختلفوا مع الفرس بعد واقعة ذي قار ، فألغى الفرس امتيازات الحيرة ، ونصبوا على الاقليم التابع لهم ، اميراً تحت اشرافهم المباشر ، هو إياس بن قبيصة .

وبقي اشراف الفرس على أطراف الجزيرة ، حتى جاءت الجيوش العربية ، قد كت عرش الأكاسرة ، وازالت ملكهم من الوجود . وهذا النفور الذي نشأ بين الفرس ، وقبائل العرب المتاخمة لملكهم ، بعد طردهم ملوك الحيرة ، كان من اول العوامل التي حملت العرب على غزو فارس .

كان خالد بن الوليد ، في حروب الرِّدَّة ، قد بلغ شرقي نجد ، فاقترح عليه المثنى بن حارثة ، امير شيبان ـ من قبائل بكر بن وائل ، ان يشترك معه في غزو اطراف العراق ، كما كان يفعل غزاة العرب . واستشار خالد ابا بكر ، فأقره على ذلك ، واشترك مع المثنى في غزوة ، كانت أول غزوة اسلامية كبيرة خارج الجزيرة ، وذلك في اوائل سنة ٦٣٤ .

وقد نجح خالد والمثنى في غارتهما المفاجئة على الحيرة ، وهزما الحامية الفارسية ، وحاصرا المدينة مدةً ، الى ان قبل حاكمها العربي ان يؤدي جزيةً مقدارها ستون الف درهم ، اي نحو ثلاثة آلاف جنيه ، وهو مبلغ قليل ، ولكن العرب استكثروه وقتئذ ولم يطلبوا عليه مزيداً .

في هذه الاثناء ، كان رجال المدينة يفكرون في غزو الشام . فلما استقر رأي ابي بكر على ذلك ، انتدب له اقدر قائد مسلم ، هو خالد بن الوليد ، وكتب اليه يامره بالشخوص الى الشام ، ليتولى قيادة البعوث الاسلامية فيها ، وقد قال له في كتابه : « أما بعد ، فاذا جاءك كتابي هذا ، فدع العراق ، وخلِّفْ فيه اهله الذين قدمت عليهم وهم فيه ، وامض متخففاً في اهل القوة من أصحابك الذين قدموا معك الى اليمامة ، وصحبوك من الطريق ، وقدموا عليك من الحجاز ، حتى تأتي الشام ، فتلقى

ابا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين ، فاذا التقيتم ، فأنت امير الجماعة والسلام عليك ».

وهكذا اضطر خالد ابن ان يترك حليفه المثنى منفرداً . فجمع الفرس جيشاً كبيراً ، وانتظروا المثنى حتى اذا قطع الفرات ، بعد أن اخضع اكثر البلاد غربي النهر ، قابلوه في معركة عرفت بموقعة الجسر ، لانها كانت قرب معبر على الفرات ، وفيها غلب رجال المثنى وقتل اكثرهم وفر الباقون .

فاضطر المثنى الى طلب نجدات من الخليفة عمر ، وكان فتح الشام قد قارب النهاية ، فسارت فصائل من الجيوش العربية بقيادة عياض بن غنم الى جزيرة ابن عمر وشمال العراق ، وأخضعت القبائل العربية في اعالي الفرات ، بينما أرسل عمر نجدات جديدةً الى العراق ، كان أكبرها بقيادة سعد بن ابي وقاص احد ابطال بدر . وعندما وصل سعد ، كان المثنى قد توفي متاثراً بجراحه .

كان الفرس ينظرون الى غزوات المثنى ، نظرهم الى غزوات البدو الاعتيادية الموقتة ، فلم تثر في نفوسهم قلقاً ، وما وجهوا لكبحها عنايةً ، ولكنهم اذ علموا بانتصار العرب الحاسم في الشام ، ورأوا قوات المسلمين تواجههم على جميع حدودهم الغربية ، من خليج العجم الى اعالي الفرات ، فطنوا لفداحة الامر . وكان يشغلهم اختلاف على الحكم بعد موت كسرى ،

فولوا ابنته بوران ، وهذه انتدبت القائد رستم ، وكان في خراسان ، واشتهر بقوته الحربية ومقدرته على التنظيم وعهدت اليه في أن يتولى الادارة العامة بالنيابة عنها . فجمع رستم جيشاً قوياً ، وأخذ يتحين الفرص ، ليضرب العرب في معركة قاضية .

ولكن سعد ابن ابي وقاص ، لم يقدم على مقابلة الفرس في معركة حاصمة ، لعلمه بتفوقهم في العدد والعُدَد ، وقربهم من ديارهم ، وانما لجأ الى الخطة التي سار عليها خالد قبل اليرموك . فأخذ يغزو ويرتد الى الصحراء ، فيصيب الفرس في رجالهم وفي اموالهم ، ويفسد عليهم خططهم .

ولما يئس القائد رستم من اجتياز العرب للفرات ، عبر هو بقوته النهر ، الى اطراف الاراضي الزراعية عند حافة الصحراء ، وعسكر مقابل معسكر العرب في اوائل صيف سنة ٦٣٧ . ولا شك ان رستم المحنك كان يدرك انه لا يستطيع ان ينال من العرب ، وهم على مقربة من معقلهم الصحراء ، نصراً حاسماً ، وكأنه أراد ان يخدعهم . فأرسل الى سعد يطلب المفاوضة ، فأرسل سعد اليه المغيرة بن ابي شعبة ، فقال له رستم من كلام : قد علمت انه لم يحملكم على ما انتم فيه ، الا ضيق المعاش وشدة الجهد ، ونحن نعطيكم ما تستفيدون به ونصرفكم ببعض ما تحبونه .

فقال المغيرة : نحن ندعوك الى عبادة الله وحده ، فان فعلت ، والا فالسيف بيننا وبينكم . . فغضب رستم وأقسم ان يبيد العرب قبل ضحى غده . . وكانت معركة القادسية ، الفاصلة في فتح العراق ، وقد دامت ثلاثة ايام بي بلياليها .

ومن جميل ما يروى اثناء هذه المعركة الحامية ، ان الفرس استعملوا في اولها الفيلة ، فوجفت خيول العرب منها خيفة ، وكادت تلوي راجعةً ، فما كان من فرسان العرب ، وفي طليعتهم عمرو بن معدي كرب ، الا أن ترجلوا وضربوا بسيوفهم خراطيم الفيلة ، فأدبرت وداست باقدامها رجال الفرس .

ثم عمد فرسان اسد الى حيلةٍ اخرى ، وهي انهم ركبوا جمالاً مجللةً ، وتقدموا بها نحو خيل الفرس ، فازورّت ، وتبعتها خيل العرب ، فانكشف امامها مشاة الفرس . .

ومن طرائف ما يحكى عن معركة القادسية ، أن أبا محجن الثقفي ، حبسه سعد بن ابي وقاص في قصرة لشربه الخمر . فلما اشتد القتال ، طلب من زوجه سعد أن تسمح له بفرس سعد (البلقاء) ليركبها الى حيث تدور رحى الحرب ، ووعدها ان يعود الى قيده ، بعد القتال ، فأذنت له ، وخاض ابو محجن المعركة ، وابلى فيها بلاء حسناً لفت اليه الأبصار .

وكان سعد يراقب سير المعركة فقال : لولا أن ابا محجن في

الحبس ، ولولا ان فرسي في مربطها ، لقلت ما يصنع مثل هذا غير فارس مثل ابي محجن ، وفرس مثل البلقاء !.. ولما عاد ابو محجن ، وقابل سعداً قال له : والله لا حبستك أبداً ! فقال له : والله لا شربتها ابداً ..

وفي آخر ليلة من المعركة ، خاض العرب مخاضةً على الفرات ، وجاءوا الفرس من خلفهم ، فارتبكت صفوفهم ، وعمت فيها الفوضى ، وكثر القتل ، واختلط الناس ، واستطاع احد فرسان العرب (هلال بن علقمة) ان يصل الى سرير رستم ، ففرَّ رستم وقد كسر ظهره ، وألقى بنفسه في النهر . ولحق هلال به ، فأمسك برجله وقتله . ثم صعد سريره وصاح : قتلت رستم ورب الكعبة !. وبذلك تم نصر الله للمسلمين .

ويقال إن من امراء الفرس الهاربين بعد نصر القادسية ، كان الهرمزان الذي دبر مقتل الخليفة عمر . وهكذا فان هذا الفارسي ، بعد ان شهد هزيمة قومه في الميدان ، اراد ان يتخذ من الغدر سلاحاً ، لينتقم لنفسه ولقومه ، ولكن هيهات ان ينصر الله الغادرين المغتالين .

فلم تقم للفرس في العراق بعد ذلك قائمة ، وأصبح العراق كله بعد هذه المعركة التي وقعت على حدود الصحراء (قرب النجف الاشرف الان) تحت تصرف جيش سعد بن ابي

وقاص ، وقد تتبع فلول الفرس حتى نهاية سهل دجلة ، عند أول الجبال في شرق العراق . وهنا ، في جلولاء قرب خانقين ، حاول الفرس ان يثبتوا ، وكان ذلك في أواخر سنة ٦٣٧ ، ولكن ثباتهم لم يدم طويلاً ، وهزموا نهائياً .

وبعد ذلك تقدمت القوة التي قادها من شمال سوريا عياض بن غنم ، فافتتحت تكريت والموصل . ولم يقف العرب عند حدود الجبال الفاصلة بين العراق وبلاد فارس ، كما وقفوا عند جبال طورس بين الشام والاناضول ، بل جدوا في اللحاق بالعدو المنهزم ، الى ان سحقوا مقاومته في معارك اخرى ضمنت لهم فتح بلاد فارس وخراسان ، والقضاء على مُلْكِ الاكاسرة القضاء المبرم ، بعكس الامبراطورية اليزنطية ، التي ظلت تكافح المسلمين في الاناضول ، اكثر من ثمانية قرون .

كانت المدائن عاصمة الفرس قرب موقع بغداد ، فلما هزموا هزيمتهم الشنعاء في القادسية ، تقهقروا مرتدين اعن العاصمة ، بسرعة لم يستطيعوا معها ان يحملوا اموالهم ، فوقعت جميع قصور المدائن بما فيها من نفائس وكنوز ، غنيمةً باردة في ايدي المسلمين ، واصبح ايوان كسرى المشهور ، تحت تصرف سعد .

لقد رحب سكان العراق ، واكثرهم من الآراميين الساميين ، بالعرب ـ ترحيب اهل الشام بهم . وكانت هجرة العرب الى هذا القطر الغني الخصب سريعةً ، كما كانت هجرتهم

الى الشام بعد اليرموك . وفي وقت قليل أصبح العراق قطراً عربياً قوياً ، ومركز الفتوح في الشرق ، فيه كان معسكرهم الكبير (في الكوفة والبصرة) ومنه كانوا يزحفون .

وفي أقل من سبع سنوات ، اصبح العرب سادة (الهلال الخصيب)؛ من جبال بلاد فارس الى البحر الابيض المتوسط . ومن هنا أجهزوا على الفرس بفتوحهم ، التي امتدت الى حدود الصين ، وأضعفوا بيزنطية بضربات قاصمة انزلوها بقوتها المادية وقوتها المعنوية ، وسلخوا عنها جميع املاكها في افريقيا ، كما انتزعوا منها سيادة البحر المتوسط . ثم حصنوا الحدود الشمالية للشام ، واتخذوا فيها ثغوراً ، يتحصنون بها في الشتاء ، ويغزون منها في الصيف .

رحم الله المثنى ، ورحم الله سعداً ، فقد ضما بلاد الرافدين الى حظيرة العرب والاسلام . وكان لهذا القطر شأنه الخطير في حضارة العرب على عهد العباسيين ، ولا يزال من مفاخر ديار العرب والاسلام .

(فتح مصر)

تمت الفتوح العربية في اقطار الشرق الادنى في مرحلتين ، كانت الاولى منهما بين اوائل سنة ٦٣٤ وصيف سنة ٦٣٧ ميلادية ، واتخذت فيها اعمال العرب الحربية شكل الغزوات ،

فكانوا يغيرون على القرى والقلاع المجاورة للصحراء ، ثم يرتدون كلما قوبلوا بقوات كبيرة ، الى معقلهم في الصحراء . وفي هذه الفترة كانت المناوشات على حدود الشام ، واحتلال الحيرة وشرق الاردن واطراف الغوطة .

وانتهت هذه الفترة بالانتصارين الباهرين اللذين فتحا امام الجيوش العربية الشام والعراق ، الاول في اليرموك في صيف سنة ٦٣٦ ، والآخر في القادسية في صيف سنة ٦٣٧ . وقد قويت بعدها شوكة العرب ، وسحقت امامهم كل مقاومة قام بها الفرس والروم ، فساروا في فتوحهم على منهج جديد ، هو الفتح المنظم ، لا الغزو المتقطع ، وكان فتح مصر في هذا الدور من التنظيم ، وكانت بواعثه كثيرة ، نُـجْمِل اهمها في هذا الحديث .

كان البحر الاحمر طريقاً للتجارة الواسعة بين الشرق والغرب ، وهي التي ادت الى نشوء الدول العربية القديمة في اليمن وحضرموت ، ووطدت مركز مكة وقريش . وقد كانت السيادة في هذا البحر لملوك سبأ وحمير . فانتزعها منهم الروم ، وأنشأوا في القُلْزُم (اي السويس) قاعدة بحرية عظيمة ، اخذت تهدد تجارة العرب ، واصبحت مصدر خطر على حكومة الاسلام الاولى في الحجاز . فلو عجز العرب عن فتح مصر ، لاستطاع الروم ان يجردوا حملة قوية على سواحل البحر الاحمر العربية .

وقد ادرك العرب اهمية السيادة البحرية بعد انتصارهم في الشام ، فان قيسارية مثلاً ، وكانت قاعدة الروم البحرية وحاضرتهم في جنوب الشام ، قاومت الفتح العربي سبع سنوات ، لاتصالها البحري ببلاد الروم ، وكان الروم يعتمدون على قيسارية والاسكندرية ، لغزو الشام من مصر ، حالما تتهيأ لهم الاسباب لذلك .

فلو عجز العرب عن فتح هاتين المدينتين ، وعجزوا عن انتزاع السيادة البحرية في البحر المتوسط ، لما استتبت لهم الامور طويلاً في الشرق الادنى . ومع ان خسارة الشام كانت ضربة اليمة للروم ، الا ان دولتهم ظلت قوية في الاناضول وفي البحر وفي شمال افريقيا ، فكان لا بد للعرب من القضاء عليها ، او اصابتها بضربات اخرى ، قبل ان يطمئنوا الى ما احرزوه من الانتصار في الشام .

وقد تم لهم ذلك فعلاً ، وانزلوا الضربات الشديدة بالامبراطورية الرومية ، وانتزعوا منها قواعدها البحرية في السويس والاسكندرية وقيسارية وقبرس ، وسلخوا عنها مصر وشمال افريقيا ، ولكنهم فشلوا في انزال الضربة القاضية بها ، اذ وقفت في وجههم جبال طورس برا ، واستعصت عليهم القسطنطينية بحراً .

وهناك اسباب اخرى ، حملت العرب على غزو مصر . منها

طمعهم في ثروتها وخيراتها ، وتهاونهم بامرها ، لان سكانها ، والسواد الاعظم منهم قبط ، كانوا كسكان الشام ، كارهين للروم ، راغبين في التحرر من رقهم ، وكان فتح مصر اسهل على العرب من فتح الشام ، اذا استثنينا الاسكندرية ، التي دافع عنها الروم ، كما دافعوا عن قيسارية ، لاهميتها البحرية ، ولان سكانها ، مثل سكان قيسارية ، كان معظمهم من الروم ، لا من سكان البلاط الأصليين .

والمتواتر في الاسفار التاريخية العربية ، أن عمرو بن العاص ، هو الذي اشار على الخليفة عمر بن الخطاب بفتح مصر ، ولعل الذي حمله على ذلك ، انه عرف مصر ، واتصل بها في الجاهلية ، وكان مغامراً ، محباً للسيادة ، مولعاً بالامارة ، ولا سيما في مصر .

وقد فتحها اولاً لعمر بن الخطاب ، ثم فتحها لمعاوية بن ابي سفيان . وكان سلوكه في مصر ، ونزوعه الى الأثرة والاستقلال ، مما حمل الخليفة على التدخل في امور مصر . . وقد اعتزل عمرو هذه الامارة ، عندما عين عثمان بن عفان ، عبد الله بن ابي سرح ، عاملاً للخراج ، مستقلا عن ابن العاص ، اذ عد عمرو ذلك تجاوزاً على سلطته ، وكتب الى الخليفة يقول : ان مثلي مع ابن سرح ، مثل من يمسك بقرني البقرة ، ليحلبها غيره . . وقد تنحى عمرو عن السياسة حيناً ، وسكن في

جنوب فلسطين . فلما ثارت الفتنة الداخلية ، انضم الى معاوية ، على ان يستقل بمصر . وقد ساعد معاوية كثيراً بدهائه ، وأعاد مصر الى سلطانه .

ظهر عمرو بن العاص ، يوم كان زاحفاً الى مصر لفتحها سنة ٦٣٩ في حدودها الشرقية ، ومعه اربعة آلاف جندي ، سار بهم على الطريق الساحلي ، الذي تمتد فيه اليوم سكة حديد القنطرة وغزة ، حيث تكثر المياه ، وقابل اول حامية رومية في (الفرما) قرب القنطرة . فاحتل هذا الموقع ، ثم انثنى عن الطريق الساحلي نحو حدود الصحراء الشرقية ، مؤثراً ذلك على سلوك الاراضي العامرة ، جرياً على اساليب العرب .

كانت مراكز الروم في مصر السفلى ، تقع في الاسكندرية عاصمة القطر في ذلك الحين ، وقاعدتها البحرية ، ومظهر الحضارة الاغريقية في الشرق ، وفي حصن بابليون ، حيث القاهرة الآن ، وكان موقعاً حربياً خطيراً ، وفيه احتشدت قوات الروم التي كانت خارج الاكسندرية ، وعلى رأسها الحاكم العام وامير البلاد ، وهو المعروف عند العرب باسم المقوقس .

ورأى عمرو ان يكون زحفه الى هذا الحصن ، حتى اذا قضى على حاميته ، هان عليه الباقي . فكتب الى الخليفة يعلمه بالامر ويستنجده ، وتابع مسيره ، وهو يقاتل هنا وهناك ، حتى بلغ

عين شمس (هليوبوليس)، قرب مصر الجديدة ، واحتلها ، وكان ذلك في شهر تموز سنة ٦٤٠ .

وفي هذا الوقت وصلت اليه نجدة من الخليفة ، قوامها اربعة آلاف رجل ، بقيادة الزبير بن العوام ، ومعه فرسان مجربون ـ وسار عمرو من عين شمس ، حتى اتى الحصن ، وحاصره مدة طويلة .

ورأى المقوقس ان لا قبل له بمقاومة العرب ، فأظهر رغبته في الصلح ، وطلب المفاوضة ، فعرض عليه العرب ان يختار بين الاسلام والجزية . فتردد طويلاً ، ثم قبل ، على ان يسمحوا له بعرض الامر على الامبراطور هرقل . . ولم يلبث ان شخص الى الاسكندرية ، ومنها الى القسطنطينية .

غير أن هرقل لم يرض برأي المقوقس ، لأنه كتن ، كما يظن ، عازماً على محاربة العرب ، واسترداد الشام منهم . وكان في نيته ، أن يهاجم العرب من الأناضول من جهة الشمال ، ومن البحر من الغرب . ومن مصر من الجنوب ، ورأى في إستسلام المقوقس ، ما يقلب خططه رأساً على عقب ، فرفض شروطه وعزله .

غير ان العرب لم ينتظروا قبول هرقل بشروطهم . وجاء الزبير بن العوام بسلم نصبه على احد جدران الحصن المنيع ، حتى اذا اعتلى الجدار ، كَبَّرَ ـ كبَّرَ معه العرب بصوت كهزيم الرعد .

فذعر الروم وهربوا الى جزيرة الروضة ، وكانت بجوار الحصن ، وظل الاقباط في الحصن ، وكان رئيسهم الديني ، قد امرهم بالاستسلام ، وبتسهيل مهمة العرب ، ففعلوا ، وكانوا عوناً للفاتحين . وقد تم تسليم حصن بابليون في نيسان سنة ٦٤١ .

واصبحت البلاد بذلك ، تحت تصرف العرب ، وقد ساروا فيها شمالاً الى ان بلغوا الاسكندرية وحاصروها .

وكان هرقل قد مات قبل سقوط حصن بابليون ، وكان ابنه صغيراً ، فتسلمت مقاليد الامور بالنيابة عنه ، امه الامبراطورة ، وكان من أمرها ، انها رغبت في وضع حد للحرب في مصر ، فأعادت إليها المقوقس ، وعهدت إليه في مصالحة العرب ، بالشروط التي يرضاها .

وعاد المقوقس الى الاسكندرية في ايلول سنة ٦٤١ ، وهو يرجو ان يصالح العرب ، على ان يقرُّه على ولاية مصر تحت اشرافهم ، ويستقل عن القسطنطينية . ورضي عمرو بن العاص ان يحقد معه صلحاً بشروط عادلة ، فيها كل الرعاية والرحمة للاقباط ، بشرط ان يترك الروم الاسكندرية قبل شهر ايلول من سنة ٦٤٢ . ومات المقوقس قبل ان يجني ثمار صلحه .

ويذكره العرب بالخير ، لانه مهد لهم فتح اكبر قاعدة بيزنطية في الشرق بعد القسطنطينية . ولا شك انه لولا مساعدة المقوقس

في هذا السبيل ، لطال حصار الاسكندرية . ومن الدلائل على ان الروم كانوا يحرصون على ابقاء هذه المدينة قاعدة لهم . لاستعمالها ضد العرب في المستقبل ، أنهم حاولوا استردادها بعد ذلك بثلاث سنوات .

وكان معظم سكانها من الروم لا من الاقباط ، فليس بعجيب ان يكونوا شديدي التعلق ببزنطية ، وكانت الاسكندرية واحة افريقية في ارض مصرية . ولما رأى هؤلاء السكان اسطولاً رومياً يدنو من ساحلهم ، ثاروا على الحامية العربية الصغيرة في المدينة ، وسهلوا للروم الاستيلاء عليها . الا انهم لم يمكثوا فيها طويلاً ، واعاد عمرو فتحها من جديد ، قبل ان تمضي سنة على نزول الروم فيها .

وجرياً على عادة العرب في الشام والعراق ، نقلوا عاصمة القطر ، من الاسكندرية لصبغتها الاعجمية ، الى مقر معسكرهم الذي اتخذوه قرب حصن بابليون ، حيث اختط عمرو مدينته التي عرفت باسم الفسطاط اي السرادق او الخيمة الكبيرة ، وبنى فيها جامعة المعروف بجامع عمرو . . وملك مصر يصلي فيه اخر جمعة من رمضان في كل سنة ، وهو قريب من مقياس الروضة .

وقد كانت اكثر القبائل التي اشتركت في فتح مصر ، من جنوب بلاد العرب ، كما جرى في الشام . وقد اتخذ العرب من

مصر قاعدة جديدة ، وجهوا منها زحوفهم التالية ، فاحتلوا شمال افريقيا ، وبنوا اسطولاً ، استعملوه لحماية سواحل مصر والشام ، ثم لانتزاع قبرس وارواد من الروم ، والاغارة على كريت والجزر الاخرى ، حتى تمت لهم سيادة البحر الابيض المتوسط .

واني بمناسبة فتح مصر اود ان اشير الى اكذوبة اوردها عبد اللطيف البغدادي ، في القرن الثالث عشر ، وتناولها المؤرخون ، حتى قامت الادلة على بطلانها ، واعني بها ما رواه ، من ان عمر بن الخطاب ، اشار على عمرو بن العاص ، او امره ، باحراق مكتبة الاسكندرية ، فكانت كتبها وقوداً لحمامات المدينة ، مدة ستة اشهر كاملة . . والروايات الدقيقة التي اثبتها المؤرخون الاجانب انفسهم ، تدل على ان مكتبة الاسكندرية ، قد احرقت قبل فتح العرب ، بزمن طويل ، كما انها تدل على ان رواية البغدادي ، لا تقوم على اساس من الصحة .

ان سهولة فتح مصر ، توضح خطورة الانتصار الذي احرزه العرب في اليرموك ، اذ ان خالداً بعد ان هزم اكبر جيش استطاع هرقل حشده ، لم يتمكن الروم من الوقوف امام العرب بقوات كبيرة تماثل ما حاولوا الوقوف به في اليرموك . . وبعد معركة خالد الخالدة ، عجز الروم عن خوض معركة برية ناجحة . . وبعد

سقوط قيسارية والاسكندرية وفيرس ، ضعفت شوكتهم البحرية ، وقل خطرها على الاسلام .

ثم جاء الاسطول العربي ، فطردهم من البحر المتوسط ، كما طردوا من البلدان الواقعة في جنوبه وشرقه . وعندما توفي الخليفة الثاني (عمر بن الخطاب) كانت ديار العرب ، تمتد من طرابلس غربا ، الى جبال البرزخ في شرق ايران ، والى أعالي الفرات شمالاً . . والنزاع بين العرب والروم بعد فتح مصر ، اتخذ ثلاثة اوجه نفصلها في المستقبل ان شاء الله وهي : (١) حوادث الحدود بين الشام والاناضول) (٢) التنازع على سيادة البحر المتوسط وجزره (٣) محاولة العرب القضاء على القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية .

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

ديار العرب والإسلام

(٣)

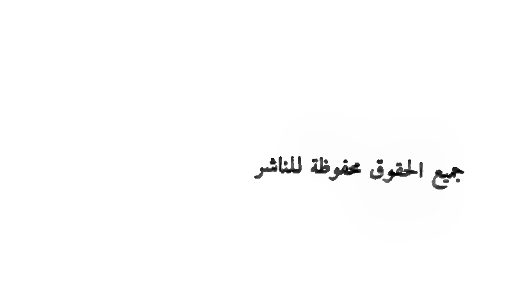
دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

ديار العرب والإسلام

(٣)

دار الفكر اللبناني



(فتح فارس وخُراسان)

بلغ الزحف العربي بعد القادسية وجلولاء الخط الفاصل بين الجنس السامي والجنس الآريّ ، قرب الحدود التي تفصل اليوم بين العراق وإيران . واتخذت أعمال العرب العسكرية بعد جلولاء (سنة ٦٣٧) شكلاً جديداً ، اقتضته طبيعة الأرض هناك ، بين وادي دجلة والفرات من جهة ، وهضبة فارس وجبال كردستان من جهة أخرى . وكانت فتوح العرب في فارس وخراسان وما وراء نهر جيحون طويلة شاقة ، استغرقت زهاء أربعة عقود من السنين . وقد نجح العرب ، وتغلبوا على كل ما قام في وجههم من العقبات ، ومدوا سلطانهم إلى ما وراء سيحون وحدود الصين . غير أن اللغة العربية ، والثقافة العربية ، لم تتعديا جلولاء . وبقيت هذه حدّاً بين العرب الساميين ، والعجم الآريين .

ولا بد لنا قبل الاسترسال في وصف أعمال العرب العسكرية ، من الوقوف قليلاً ، لنصف طبيعة البلاد التي كانت

مسرحاً لنشاطهم ، والتي قدّر لها أن تكون في جملة ديار الاسلام .

وأوّل ما نذكره من ذلك ، تلك الهضبة العالية جداً المنبسطة ، الواقعة في شمال حملايا في قلب آسيا ، وتعرف بعُقْدَة بامير ، أو سقف العالم ، وهو ما يدل على ارتفاعها العظيم . ومنها تتفرع سلاسل الجبال إلى كل جهة . وقد وقف الاسلام عند هذه العقدة ، لم يتجاوزها شرقاً ، فلم تبق حاجة والحالة هذه ، لوصف طبيعة البلاد الواقعة إلى الشرق منها . أما من جهة الغرب ، فتتفرغ من هذه العقدة ، سلسلتان من الجبال ، أحداهما شمالية ، وتفصل بين الجنس الآري والجنس المغولي ، والأخرى جنوبية وتفصل بين الهند وهضبة ايران . . وتتفرع السلسلة الشمالية شرقي بحر قزوين إلى فرعين أيضاً ، جنوبي وشمالي ، ينقطع الشمالي منهما عند بحر قزوين ، ثم تمتد جبال القوقاز كأنها منه ، ويسير الجنوبي في شمال إيران ، ثم يعود فيلتقي بالسلسلة الجنوبية التي تفصل بين إيران والهند ، ثم بين إيران والعراق . ونقطة التقاء السلسلتين الكبيرتين تسمى عقدة أرمينيا ، وفيها جبل أراراط العالي ، الذي تواترت الأقوال بأن سفينة نوح عليه السلام ، استوت عليه بعد الطوفان .

عند هذه العقدة أيضاً ، وقفت فتوح العرب . ومنها تخرج السلسلتان الجبليتان من جديد ، كل واحدة إلى جهة ، فتضمان

بينها الأناضول . والجنوبية من هاتين السلسلتين هي جبال طورس ، التي وقفت عندها فتوح العرب شمالاً . والشمالية تسير في إيران وأفغانستان وبلوخستان . والهضبة بين السلسلتين هي موطن الجنس الآري . ثم تأخذ الأرض شماليَّ الفرع الأعلى ، في الانحدار التدريجي إلى سهول سيبيريا ، وفيها موطن الجنس المغولي ، بينما تنبسط الأرض جنوبي الفرع الأدنى ، وهو الجنوبي ، فتصبح سهولاً ، وهي العراق وسوريا والجزيرة العربية ، ـ وكلها موطن الجنس السامي .

وظلت هذه الحدود الطبيعية ، هي الحدود الفاصلة ، بين مناطق مختلفة ، وأجناس مختلفة ، وحضارات مختلفة ، لم تتبدل بتبدل العصور والادهار ، مع أن الجيوش الكبيرة التي وطئتها ، قد اكتسحتها ، وجمعت بين أطرافها . . فالاسكندر المكدوني وقف عند نهر سيحون ، وهو الحد الفاصل بين الهضبة والجبال . وهنا وقف قتيبة بن مسلم ، الفاتح العربي العظيم . ومن هنا سار السلاجقة والمغول والتتر ، حتى بلغوا البحر المتوسط .

كانت البلاد الواقعة بين (عُقد بامير) وبحر قزوين ، مبعث الحركات الآسيوية الكبرى ، وهي بلاد صحراوية في طبيعتها ، كصحراء العرب ، ولكنها باردة ، وتشبه الصحراء العربية بقلة المطر وجفاف الهواء . وسكانها قبائل رُحَّل ، وعندهم الإبل والخيل ، والرجل منهم يقضي نهاره ممتطياً جواده ، وقد يقضي

عمره كذلك . . وإن هذه الصحراء الباردة قد قذفت (كما فعلت الصحراء الحارة) بموجات بشرية عظيمة ، اتجهت إلى الغرب أو إلى الشمال الغربي . . فالقبائل المغولية الشرقية ، التي خرجت من جبال (آلياي) ، غزت سكان الغرب في الهضبة ، وساقتهم أمامها ، فارتحلوا إلى بلاد الساميين ، وبعضهم اجتازوا الحدود بين آسيا وأوروبا . وأن جميع شعوب أوروبا ، وأكثرها من أصل آسيوي ، من هضبة إيران ، قد امتزج بعضها القبائل الغازية ، وسار البعض الآخر أمامها في الممر الواسع الواقع بين جبال أورال وبحر قزوين ، وهو الذي أطلق عليه بعضهم اسم (بَوَّابة أوروبا) . ـ منه عبرت القبائل الآرية إلى سهول روسيا ، فبقي فيها بعضها ، ولم يحتمل البعض الآخر بردها الشديد ، فيمموا سواحل البحر المتوسط . ودفع الهونيـون (وهم من تلك الأجناس) قبائل القوط والفندال أمامهم إلى غرب أوروبا ، كما دفع المغول السلاجقة والأتراك إلى الأناضول وسواحل البحر المتوسط الشرقية . ومن المتفق عليه ، أن شعوب فنلندا والمجر والبلغار ، وهي من أصل آسيوي أيضاً ، قد استقرت في أوروبا قبل ظهور الاسلام بقليل .

ونعود الآن ، بعد هذه المقدمة ، وهذا الوصف الجغرافي الذي لا بد منه ، إلى ذكر الأعمال العسكرية التي قام بها العرب في بلاد فارس ، وكانت امبراطورية عظيمة ، تمتد من الفرات إلى حدود بلاد المغول ، وكانت في جوار البلاد العربية ، كما كانت

الأناضول في جوار الشام . وقد عجز العرب عن فتح الأناضول ، ونجحوا في فتح فارس ، كما نجحوا في نشر الاسلام هنا وهناك .

اتخذ العرب في العراق بعد فتحه ، مراكز عسكرية في البحرين والكوفة والبصرة ، كانت مبدأً لغزواتهم وحملاتهم في فارس وخراسان . وقد زحفوا أولاً إلى الجانب الشرقي من شط العرب ، وهو الجزء المنخفض الواقع على الخليج الفارسي التابع اليوم لإيران ، وقد كان قديماً موطناً لمملكة عيلام ، وتخماً من تخوم مملكة مادي وفارس ، واسمه اليوم عربستان ، وأكثر سكانه عرب ، وحاضرته الأهواز ، وكان يعرف إبّان الفتح العربي باسم خوزستان . وكان العرب يغيرون على خوزستان هذه ، من البحرين ومن البصرة ، ثم شفعوا هذه الغزوات بحملات ، وجهوها عن طريق خانقين إلى همذان .

وإن الذي قام به سعد بن أبي وقاص في ذلك الوقت ، ليشبه الخطة الحربية التي قام بها الجنرال وَيْفِل في الحرب الحاضرة . فقد تقدمت القوات البريطانية إلى إيران ، من البصرة والخليج الفارسي ، عن طريق عبادان ، ومن بغداد عن طريق خانقين . . وكانت الأعمال العربية الأولى تتقدم بسهولة ، دون أن تلقى مقاومة تذكر . غير أن يزدجرد ملك فارس ، لم يلبث أن جمع من فارس وخراسان قوات كبيرة ، وزحف بها لمقابلة العرب ، واشتبك الفريقان في المعركة الفاصلة الكبيرة ، التي

أطلق عليها العرب اسم (فتح الفتوح) ، لأنها فتحت أمامهم جميع الشرق . ولولا النزاع الأهلي الداخلي بينهم ، لاستطاعوا بلوغ أمنيتهم القصوى في تلك الأنحاء بسرعة عجيبة .

وقعت معركة فتح الفتوح هذه ، في نِهاوَنْد الواقعة إلى الجنوب من همذان ، وكان ذلك سنة ٦٤١ أي بعد القادسية بأربع سنوات . وقاد المسلمين فيها النُّعمان بن مُقَرِّن المُزَنِيّ وكان على جند الكوفة . وكانت القوات العربية قد احتشدت في جهات الأهواز وأصبهان ، لتقطع على الفرس خط الرجعة . وكان الفرس قد حشدوا لقتالهم مئة وخمسين ألفاً من الرجال ، وتحصنوا في الخنادق ، وكان كثيرون منهم قد ربطوا أنفسهم بالسلاسل مخافة الهرب . . وعجز العرب عن اقتحام تلك الخنادق ، إذ لم يعتادوا هذا النوع من الحرب ، لأن فنَّهم العسكري إنما كان يقوم على الحركة ، لا على الخنادق والحصون ، فكان لا بد من إخراج الفرس من خنادقهم ، فتظاهروا بالانكسار والهزيمة ، فخرج الفرس يريدون اللحاق بهم ، فأنثنى العرب عليهم وقاتلوهم قتالاً شديداً ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، ثم زحفوا إلى همذان والرَّيّ ، وكانت غنائمهم في الرَّيّ مما لا يحصى ، وهي كغنائمهم في المدائن . وقد فتحوا بعد ذلك أذربيجان وأرمينيا ، وتقدموا شرقاً إلى نهر جيحون ، وجنوباً إلى كرمان وحدود الهند . ولكنهم لم يلبثوا أن ابتلوا بنزاعهم الداخلي ، واشتدت الفتنة بينهم ، فلم يستتب الأمر لهم

في خراسان ، إلى أن كان عهد الحجاج أمير العراق ، فأعاد إلى البلاد طمأنينتها التي فارقتها قرابة نصف قرن . وكان الحجاج قد وَلىَّ على خراسان القائد النابغة قتيبة بن مسلم الباهليّ ، فجمع العرب ، وكانوا منقسمين إلى يمنية زعامتها للأزد ، وقيسية وزعامتها لتميم . واتخذ مدينة مرو ، قاعدة لفتوحه الشرقية ، التي بلغ بها أقصى ما بلغته الجيوش العربية من تقدم . واستقرت الأمور في خراسان بعد ذلك ، وهاجر إليها من البصرة والكوفة نحو خمسين ألف أسرة ، وكانت هجرتها من أكبر أسباب ذلك الاستقرار .

وأختم حديثي الليلة ، بكلمة الخليفة عمر بن الخطاب ، التي ألقاها على الناس عندما جاءه رسول الأحنف بن قيس ، يبشره بنصر نهاوند ، قال : ألا وإنَّ ملك المجوس قد ذهب ، فليسوا يملكون من بلادهم شبراً . ألا وان الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم ، لينظر كيف تعملون ، فلا تُبَدِّلَوا فيستبدل الله بكم غيركم ، فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلاَّ من قبلكم . . . ولقد صدق عمر الذي كان خير وزير حربية ، وخير سياسي ، وخير حاكم أخرجته جزيرة العرب . . رسم خطط الفتح ، ووضع دستور الامبراطورية ، ونظام إدارتها ، وترك لمن جاء بعده ميراثاً عظيماً ، فحافظوا عليه إلى حدّ كبير ، ولكنهم لم يتـمُّوا رسالة عمر بأكملها ، ووقع ما كان يخشاه .

(تغلغل الاسلام في قلب آسيا)

آسيا هي القارة الجبارة بين قارات العالم السِّتّ ، وفيها أضخم التضاريس الطبيعية وأبرزها ، ومساحتها لا تقل عن ثلث مساحة اليابسة كلها ، وفيها أوسع السهول وأعلى الجبال وأكبر البحيرات والأودية . وقلب هذه القارة الماردة ، لا يزال بعيداً عن البحث العلمي الدقيق ، ومعرفتنا به لا تتناسب مع ما لأواسط آسيا ، من أثر بعيد في تاريخ البشرية . فهذا القلب ، هو موطن الجنس المغولي والجنس الآري ، وكلاهما يملآن اليوم أوروبا وأميركا واستراليا ، فضلاً عن معظم آسيا ، وذلك بعد الموجات البشرية العظيمة ، التي اعتاد قلب آسيا ان يدفعها إلى جميع الأنحاء ، كما يدفع القلب الدم إلى جميع أطراف الجسم .

هذا القلب العظيم في هذه القارة العظمى ، يؤلّف الأجزاء الآتية : (١) تركستان الروسية ، وهي مقاطعات التركمان والأزبك والكُرْج . (٢) تركستان الصينية . (٣) منغوليا أو بلاد المغول . (٤) التُّبت أو تيبت . أما تركستان الروسية وتركستان الصينية ، فهما إسلاميّتان بكاملهما . وأما منغوليا ففيها أكثرية إسلامية ، وإليها يهاجر اليوم مسلمو الصين . وكان الصينيون القدماء قد بنوا سورهم الكبير المشهور ، اتّقاء لغزوات سكان منغوليا . . وغرضي في هذا الحديث اليوم ، أن أضع صورة واضحة مختصرة لقلب آسيا الاسلامي ، وأن أبيِّن كيف تم تغلغل الجيوش العربية في تلك الربوع .

إن قلب آسيا هذا يقسم إلى ثلاثة أقسام ، تمتد بين (عقدة بامير) وهضبة تيبت من جهة ، وبحر قزوين من جهة أخرى . ففي الوسط حوض واسع من الصحراء الباردة ، تتخلله الواحات ، وتحيط به الجبال من الجنوب والشرق . وإلى الغرب من هذا الحوض ، في نجد إيران ، يسكن شعب متحضر آرامي الأصل . وإلى الشمال منه في منحدرات جبال الكرج أو كرجستان ، يسكن الأتراك المغول وهم لا يزالون على البداوة ، ودأبهم التنقل من مكان إلى آخر مسافات شاسعة على ظهور الخيل . وفي هذا الحوض امتزج الجنسان والثقافتان . . وقد تقدم أنه صحراء باردة قليلة المطر كثيرة الرمال ، وأكثر سكانه قبائل رحَّل . ويجري فيه نهر جيحون ونهر سيحون ، ويصبان في بحر (أو بحيرة) أورال . وفي أواسط آسيا أنهار كثيرة ، لا يصل أكثرها إلى البحر ، بل تغوص في الرمال ، أو تصب في بحيرة أو أكثر في ذلك الحوض . وأودية هذه الأنهار واحات في الغالب ، تزدهر فيها زراعة الحبوب والقطن والفواكه .

والغالب على سكان الحوض ، أن يكونوا ودوابّهم على الجبال المحيطة بصحرائهم صيفاً ، وعلى ضفاف الأنهار وحافات الواحات شتاء . وهناك بحيرات مِلْحَةٌ ، وكثبان رمل ، كما في دهناء الجزيرة العربية ، وبقاع أخرى كثيرة ، تكسوها طبقة رقيقة من التراب الذي تذروه الرياح ، فإذا نزل المطر في الربيع ، اكتست تلك البقاع عشباً ، وأصبحت مراعي صالحة .

وفي واحات الصحراء المدن الكبرى تفصل الواحدة عن الأخرى مسافات بعيدة ، وبينها قفر واسع ، وأكثرها واقع على الطريق التجارية ، التي تخترق آسيا من الشرق إلى الغرب ، وعليها سارت التجارة الاسلامية فيما مضى ، من بكين عاصمة الصين ، إلى بغداد عاصمة العالم الاسلامي ، مارّة بكشغر وطشقند وسمرقند وبخاري وفارس . وأصبحت اليوم في موقع هذه الطريق سكة حديد تركستان الروسية .

وكان في هذا الحوض فيما مضى من الدهر ، بحيرات كثيرة ، وقد تبخرت لكثرة الجفاف ، وأصبح أكثرها قيعاناً مخصبة ، بالنسبة إلى ما حولها من الصحراء المجدبة . والهواء هناك جاف ، يخفف من حدة البرد في الشتاء والحرّ في الصيف ، ويجعل المناخ محتملاً على رغم شدة تغير درجة الحرارة . . ومما يستفاد من الأبحاث الجيولوجية في هذا الحوض ، انه تعاقبت عليه أدوار من القحط تارة والخِصْب طوراً ، مما جعل الهجرة منه وإليه مستمرة ، والاضطراب فيه متعاقباً . فقد اجتاحت تلك البلاد مثلاً موجة من القحط في القرن الخامس ، وسرت فيها موجة من الخصب في القرن التاسع ، وقس على ذلك ما حدث فيها من هذا وذاك في الأدوار المختلفة . . وفي البلاد اليوم آثار كثيرة لمدن كانت في غابر الزمان ، عامرة بالحياة والمدنية ، ثم انتابتها الزلازل والسيول والطوفان وأعمال التخريب الأخرى .

لم تمتد إلى هذه البلاد سلطة الساسانيين ، بل وقفت عند بلخ الواقعة شرقي خراسان . وفي القرن الخامس نزلت تلك الربوع ، قبائل الهيطل وامتزجت بسكانها . ثم امتدت إليها سلطة خانات الترك الغربيين ، فانتقلت سلطة الهيطل إلى الجنوب . . ولما تتبع العرب فلول الفرس بعد نصر نهاوند ، وقفوا عند حافة هضبة فارس الشرقية العالية ، حيث الحدُّ الجغرافي بين النجد والحوض المنخفض . وكان الوادي الواسع الممتد أمامهم ، ينقسم إلى شطرين مختلفين ، شمالي وجنوبي ، بينهما سلسلة من الجبال تخترقها بعض الطرق ، وتقوم عليها بعض الحصون . وفي الشطر الشمالي من الوادي المذكور ، بلاد الصغد وفيها بخاري وسمرقند وكيش ، وفي الجنوبي نهر جيحون ، بين بامير والهضبة ، وفيه بلخ وهرات وتركستان السفلى .

كان هذا الحوض من أرقى البلاد التي فتحها العرب . وقد تم لهم ذلك بمعركتين حاسمتين ، جرت إحداهما في أول الحوض عند بلخ . والأخرى في الشرق وراء سيحون ، وبها أبعدوا خطر الترك عن الحوض . ثم قاموا بغارات في الجهات الشرقية من الحوض ، في فَرْغانة وبلاد الشاش ، ولكن هذه لم تخضع لسلطانهم .

وأول مقاومة جدية لقيها العرب بعد نهاوند ، كانت إلى

الشرق من مدينة مرو ، حيث اضطرَّ الأحنف بن قيس ، أن يعود إلى هذه المدينة ، بعد أن جاوزها شرقاً . وقضى العرب مدة ، يغزون مدن حوض جيحون ويرتدون ، لأن سلطانهم هناك لم يكن قد توطد ، وذلك لثلاثة عوامل : أحدهما عدم استقرار الحكم العربي في خراسان . والثاني النزاع الأهلي الداخلي بينهم . والثالث الخوف من تدخل قبائل الترك القوية وامبراطور الصين . وكانوا كلما تقدموا في بلاد الصُّغْد والهيطل وطخارستان ، اضطرتهم المنازعات الداخلية إلى التراجع ، إلى أن تستتب الحالة في البلاد ، فيعودون إلى ما كانوا عليه من الزحف والغزو .

فعبد الله بن عامر والي البصرة على عهد عثمان بن عفان ، قد قضى على مقاومة الفرس قضاء مبرماً . وعاد إلى البصرة ومعه ألف من أشد رجال بخارى ، جعلهم حرساً خاصاً له . ثم كان النزاع بين علي ومعاوية ، مما اضطر إبن عامر المذكور ، أن يعيد فتح خراسان على عهد معاوية من جديد . وكان زياد إبن أبيه ، أوّل من نظم إدارة خراسان ، ووحد السلطة في يد العامل المقيم في مرو ، بعد أن كانت البلاد مناطق تقاسمتها القبائل العربية . وسار عبيد الله بن زياد سيرة أبيه . . وعادت الفتوح فتقدمت شرقاً ، إلى أن حالت دونها الفتنة الجديدة ، وخرج إبن الزبير على بني أمية . وظلّت الحال على ما وصفنا ، حتى ولي الحجاج أمر العراق ، فولّى المُـهَلَّبَ بن أبي صُـفْرة الأزدي خراسان . ولم

يلبث المهلب أن جمع كلمة العرب ، ووطد سلطانهم في تلك الأصقاع . غير أنه لم يتمكن من القيام بغزوات جديدة في الشرق ، لانصرافه إلى حرب الخوارج . ثم صار أمر خراسان لقتيبة بن مسلم الباهلي ، ولاه الحجاج أمرها ففتح بخارى وسمرقند وفرغانة ، وسار براية الاسلام ورسالة الاسلام إلى حدود الصين .

ويعزى انتصار العرب الباهر في حروب قتيبة ، إلى نبوغ الحجاج وبطولة قتيبة ، فالحجاج كان يضع خطط الفتح ، وقتيبة ينفذها خير تنفيذ ، فكانت عبقرية الحجاج في هذا ، لا تنقص عن عبقرية عمر بن الخطاب ، غير أن قتيبة كان دون خالد بن الوليد .

استطاع قتيبة أن يجمع كلمة العرب في خراسان وكانوا منقسمين بين أزد وتميم ، وكانت عشيرته قليلة وعصبيته ضعيفة ، فرضي به الفريقان رئيساً ، مع انه كان من قيس . وقد اكتسب قتيبة كذلك حب الفرس واحترامهم ، وأدخلهم في جيشه واتخذ منهم بطانة . وبرزت عبقرية قتيبة في معاملته لسكان البلاد المغلوبة ، فقد كان معهم لَيِّن الجانب كثير التساهل ، وعقد معهم صلحاً على شروط سخيَّة . ولكنه أخذهم بالعنف والقسوة حين نكثوا عهده ونقضوا ميثاقه . وكانت مدينة (بايْكَنْد) من المدن التي صالحته ثم خرجت عليه ، فضربها بشدة أوقعت الرُّعْبَ في نفوس سكان المدن الأخرى وأمرائهم .

وكانت شدته في موضع الشدة ، ولينه في موضع اللين ، من مكمِّلات صفاته الحربية .

واستمرت حروب قتيبة أكثر من عشر سنوات(بين سنة ٧٠٥ وسنة٧١٦) تمكن من خلالها من تثبيت الحكم العربي في صخارستان والحوض الجنوبي . ثم احتل بخاري بعد معركة فاصلة . ووطد سلطان العرب في جميع بلاد الصُّغد . وقام فيما عدا ذلك بغزوات جريئة في فرغانة وبلاد الشاش . وأبعد خطر القبائل التركية عن البلاد التي فتحها . ولكن الفتنة ، لم تلبث أن عادت إلى الظهور بعد موت قتيبة ، وذلك بتحريض خان الترك ، وخروج بعض الفئات العربية على سلطان بني أمية . غير أن عمر بن هبيرة عامل الخليفة عمر بن عبد العزيز ، استطاع أن يعيد الأمن إلى نصابه ، وجرياً على سياسة الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وبفضل سياسته وحسن عقيدته ، استطاع أن يستميل إليه دهاقين البلاد وحكامها ، فأحبوا الاسلام وأسلموا ، وأصبحوا من أحسن الناس إخلاصاً ووفاء . وأصبح إقليمهم من مفاخر ديار الاسلام ، وفيه ظهرت الدولة السامانية ، وظهرت بخارى وسمرقند في حالة من السؤدد والجاه ، لا تقل عن بغداد . وفي بخارى ظهرت عبقرية الرّازي وابن سينا ، اللذين وضعا للطب كتباً ، أزالت عن بصائر أوروبا غشاوة القرون الوسطى .

(توطيد الحكم العربي في شمال أفريقيا)

كان للسلاح العربي أيام بيض ومعارك غُـرٌّ ، نشرت راية العروبة والاسلام ، في قارات العالم القديم الثلاث ـ آسيا وأفريقيا وأوروبا . وقد اختلفت هذه القارات في التأثُّر بهذا الفتح . فأوروبا ناوأت الفتح العربي ، ووقفته عند أطرافها الثلاثة : في الشرق عند القسطنطينية ، وفي الجنوب في سواحل إيطاليا ، وفي الغرب في سهل (تُور) في غرب فرنسا . وقضت أوروبا على مدنية العرب التي شادوها جنوبيٌّ (البرانس) في الأندلس الخضراء ، بعد أن عمروها ثمانية قرون . فأوروبا والحالة هذه ، أقلُّ القارات محافظة على آثار الفتح العربي والحضارة العربية ، ولم يبق لنا فيها إلاَّ آثار (الحمراء والزهراء) وما كان لمدنية الأندلس من أثر في عمارة أوروبا ونهضتها الحديثة .

وفي آسيا بقيت جميع البلاد التي أخضعتها جيوش العرب ، محافظة على الاسلام ، وعلى صلتها ببلاد العرب مهد الاسلام . ولكن البلاد الواقعة شرقي العراق وشمالي الشام ، لم تصطبغ بالصبغة العربية ، ولم تتأصل فيها اللغة العربية ، أو القومية العربية .

أما أفريقيا ، فإن البلاد التي دانت للفاتحين العرب ، حافظت

على طابعها الاسلامي ، واندمجت في الوطن العربي والقومية العربية . وقد هاجر إليها العرب أفواجاً وقبائل ، كما هاجروا إلى الشام والعراق ، وكما هاجروا إلى مصر وهي إقليم من أقاليم أفريقيا . . وتقدم العرب في هذه القارة الواسعة ، في اتجاهين مختلفين وأسلوبين مختلفين . ففي الشمال ساروا غرباً على سواحل البحر الأبيض المتوسط ، غزاة فاتحين أولاً ، ثم بناة مرشدين ثانياً . وفي الشرق ساروا تجاراً مبشرين على ساحل أفريقيا الشرقي ، وحملوا مع تجارتهم اللغة العربية والدين الاسلامي . وتعاون الأسلوبان على إحاطة أفريقيا بهالة عربية إسلامية ، تطوقها من زنجبار على المحيط الهندي ، إلى مراكش على المحيط الأطلسي ، وصارت لهم ولغيرهم أعظم طريق للقوافل في قلب أفريقيا ، من مصوّع إلى تمبكتو وساحل المحيط ، تسير في بلاد عربية إسلامية ، وتغصّ بقوافل التجارة العربية ، وحجاج بيت الله الحرام .

تسمى أفريقيا (القارّة السوداء) . والحق أن سكان أواسط أفريقيا ، إلى الجنوب من الصحراء الكبرى ، هم من الزُّنوج . أما سكان الشمال ، حيث مصر وبرقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، ـ فمن الحاميين ، من الجنس الأبيض لا الأسود ، والصحراء تفصل بين الجنسين . وقد كان شمال أفريقيا على الدوام جزءاً من البحر المتوسط ، لا من أفريقيا ، فمن مَلَك السيادة على هذا البحر ، رسخت قدمه في شمال أفريقيا لا

محالة . وكان العرب أول من مد سلطانه إلى قلب أفريقيا ، وجمع بين الجنسين الأبيض في الشمال ، والأسود في الجنوب ، في وحدة دينية وتجارية .

ومعلوم أن الرومان ، بعد أن قهروا الفينيقيين على أثر حروب طويلة ومعارك طاحنة ، كان همهم انتزاع السيادة البحرية من قرطاجنة ، ليتسنى لهم التوسع في استعمار أفريقيا . غير أن الحكم الروماني ، لم يجاوز سواحل هذه القارة ، وبقي سكان البلاد الأصليون ، وهم البربر ، مناوئين للرومان وللبزنطيين ، لم يتأثروا بدينهم ولا بثقافتهم . . والبربر قوم رحّل كالعرب ، فطروا على الحرية والشجاعة وبساطة العيش ، فكان تقارب مزاجهم ومزاج العرب ، خير وسيلة لامتزاج الشعبين واندماجهما ، وبذلك نجح العرب في أقل من قرن ، في بلوغ ما أخفقت فيه روما في أكثر من تسعة قرون . ولا يزال تمسك شمال أفريقيا بالعروبة والاسلام ، شاهداً على قوة البناء الذي أسسه عقبة بن نافع المزني ، وحسان بن نعمان الغسّاني .

ما كاد العرب يستولون على مصر ، حتى أدركوا الخطر الذي يتهددهم من الامبراطورية البيزنطية في الغرب في برقة ، وفي الشمال في البحر الذي كانت سيادته للروم . وكان في الجنوب دولة (النوبة) في السودان ، وهي مشايعة لبيزنطية . ولهذا بادر عمرو بن العاص ، بعد فتح الاسكندرية ، إلى إرسال حملة على برقة ، فاكتسحتها واستولت على (سرين) وكانت مدينة

مشهورة بتجارتها وثقافتها . ووقفت هذه الحملة عند حدود طرابلس الغرب . إلى أن كان عهد عبد الله بن أبي سرح ، عامل الخليفة عثمان بن عفان في مصر ، فانتزع ـ بالتعاون مع معاوية أمير الشام ـ سيادة البحر من الروم ، ثم قام بحملات جريئة في شمال أفريقيا ، وعقد صلحاً مع النوبيين .

أما فتح أفريقيا ، فيما وراء طرابلس ، فلم يباشر ، إلا بعد أن اختطَّ عقبه بن نافع ، عامل معاوية ، مدينة القيروان في تونس ، بالقرب من قرطاجنة ، وذلك سنة ٦٧٠ أي بعد فتح مصر بثلاثين سنة . ومن هذه القاعدة ، تقدّم العرب غرباً ، وفي طليعتهم عقبة بن نافع ، حتى بلغ بهم أمواج المحيط الأطلسي . ثم لقي حتفه بعد ذلك (سنة ٦٨٣) في حروبه مع البربر ، في الجزائر ، ولا يزال قبره فيها مزاراً للناس إلى هذا اليوم .

وأدرك العرب أنّ مناوأة الروم والبربر في وقت واحد لا تجدي ، وأنها من خطل السياسة ، فتفرغوا للروم أولاً ، ولم يهتموا بإخضاع البربر ، إلاّ بعد أن فازوا بسيادة البحر ، وطردوا الروم من حصنهم في قرطاجنة ، وقد فتحوها سنة ٦٩٥ . ثم خسروها سنة ٦٩٧ . ولكنهم لم يلبثوا أن أعادوا فتحها في السنة التالية . وفي هذه الأثناء ، كان الأسطول الرومي قد توارى من عرض البحر ، وكان الجيش العربي والأسطول العربي ، قد وقفا

على أبواب القسطنطينية . وكانت قبرص ورودس قد أصبحتا في حوزة العرب . وبذلك ختمت سيادة البيزنطيين على شمال أفريقيا وشرق البحر المتوسط ، وانحصر حكمهم في البحر في صقلية وجنوب إيطاليا ، ثم خسروا صقلية ، ومدينة (سالرنو) الواقعة جنوبي (نابلي) مدة من الزمن .

وبعد القضاء على سلطان الروم في أفريقيا ، تفرغ حسان بن نعمان الغساني للبربر . وكانوا قد تجمعوا حول أمرأة مغامرة قوية اجتذبت قلوبهم ، بما كان لها من سلطان ديني ، وعرفت عند العرب باسم (الكاهنة) . وقد اعتصمت بالجبال ، ومن حولها رجالها ، وكانوا ألوفاً مؤلفة . فسار حسان إليها ، واشتبك معها في معركة كان النصر فيها حليف البربر ، ودارت الدائرة على العرب فانهزموا ، وكتب حسان إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يقول : أن أمم المغرب ، كلما بادت منهم أمة خلفتها أمم . . فأجابه الخليفة يأمره بالكف عن القتال والانسحاب إلى القيروان .

وخلا الجو للكاهنة مدة خمس سنوات ، كانت خلالها سيدة أفريقيا بلا منازع ، وقد أعملت في البلاد طولاً وعرضاً يد التخريب والتهديم ، حتى ييأس العرب من أفريقيا ، فيتركوها وشأنها . وكان بين الأسرى العرب الذين وقعوا في أيدي البربر خالد بن يزيد ، ويقال أنه استطاع أن يكاتب حساناً بعورات

البربر ، ويحضّه على ملاقاتهم . وأرادت الكاهنة أن تخدع حساناً ، فأرسلت خالداً ومعه أولادها ليستأمنوه . ثم تقدمت بجندها للقتال ، تريد أن تفاجىء العرب من حيث لا يدرون . فقاتلها حسان وهزم جندها وقتلها ، ثم استولى على بلاد البربر كلها . وقد أُتيح له أن يوطد الحكم العربي في جميع أنحاء الغرب ، وكانت معاملته للبربر على أعظم جانب من الحسنى ، لأنه ترك لهم استقلالهم الداخلي ، وساوى بينهم وبين العرب . وكان هذا وغيره مما قرَّب بين الفريقين ، فامتزجا ، واعتنق البربر الإسلام ، فازدادت صلتهم بالعرب وازداد إقبالهم على لغة العرب .

وما استتب الأمن في أفريقيا ، حتى أخذ العرب يهاجرون إليها . وهاجر إليها من المدينة أناس كثيرون ، هرباً من وجه مسلم بن عقبة ، قائد جيش يزيد بن معاوية . وكان قد زحف إلى الحجاز في فتنة عبد الله بن الزبير . فقد التحق جميع من نجا من (معركة الحرَّة) بجند أفريقيا . وكان بين هؤلاء المهاجرين جمهور من الخوارج ، لم يكن همهم فيها إلاّ تثقيف البربر بأصول الدين . وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز أكثر الناس اهتماماً بأمر الاسلام ، ونشر تعاليمه وفضائله بين تلك القبائل .

ولم يجن حسان ثمرة جهاده العظيم في تلك الربوع . فقد كانت أفريقيا تابعة لمصر ، وكان أمير مصر في ذلك العهد عبد

العزيز بن مروان . وحدث أن موسى إبن نصير مولى عبد العزيز ، قد غضب عليه الخليفة عبد الملك بتهمة اختلاس من بيت المال في خراسان وأراد عقابه ، فشفع عبد العزيز إلى أخيه في موسى ، ودفع عنه الأموال المطلوبة ، ثم استقدمه إليه إلى مصر ، وولاه أفريقيا خليفة لحسان . . ويقال أن عبد الملك أراد أن يعيد حساناً إلى عمله فأبى وقال : لا ألي لبني أمية . . وولي موسى أفريقيا ، ورأى تعاون العرب والبربر فيها ، فاستغل ذلك بمهارة وحذق ، وقام بحملته المشهورة في إسبانيا ، ـ وكان انتصاره تاج الانتصارات العربية على الاطلاق .

وهكذا تم للعرب نشر سلطانهم في شمال أفريقيا في اثنتين وسبعين سنة . فقد اجتاز عمرو بن العاص حدود فلسطين إلى عريش مصر سنة ٦٣٩ . واجتاز طارق بن زياد المضيق بين أوروبا وأفريقيا ، والذي عرف بعد ذلك باسمه ، سنة ٧١١ .

ولئن كانت هذه الفترة من الزمن طويلة ، غير أن العرب قد حصلوا فيها على أعظم النتائج ، وأصبحت البلاد كلها ، الواقعة بين البحر الأحمر والمحيط الأطلسي ، بلاداً عربية دماً ولحماً ولساناً وديناً ، وأصبح الساحل الجنوبي والشرقي ثم الغربي من البحر المتوسط وما بينهما ، بلاداً واحدة تخفق راية العروبة عليها ، على هيئة (ن) عظيمة ، طرفها الشرقي في أطنه (في الأناضول) والغربي في البرانس (بين أسبانيا وفرنسا) ، وكانت

(نقطة النصر) ، أي نقطة هذه النون ، جزيرة صقلية .

وسنرى كيف أن هذه (النون) قد أصبحت معجماً لمآثر العرب ومفاخرهم وحضارتهم ، التي زخرت بها البلدان ، ونعمت الأمم ، من دمشق والقاهرة ، إلى القيروان وقرطبة ، فنعم ما صنع الأجداد ، ونعم ما تركوا .

(كيف تمت سيادة العرب على البحر المتوسط)

بقي البحر الأبيض المتوسط مركز الحضارة والتجارة ، منذ كان للانسان حضارة وتجارة ، إلى أن نازعه المحيط الأطلسي هذا المركز ، واحتل المقام الأول في تجارة العالم . وكان البحر المتوسط الهدف الأكبر لجميع الأمم ، التي بسطت سيطرتها على سواحله ، ولم تستطع أمة منها ، تثبيت أقدامها على هذه السواحل ، إذا هي عجزت عن امتلاك تلك السيادة . . فقد ملك الفرس يوماً الساحل الممتد من القسطنطينية حتى حدود مصر ، ولكن سيادة اليونانيين البحرية قضت على نفوذهم ، فلم ترسخ أقدامهم على ذلك الساحل . وهذا ما جرى للأشوريين والحثيين ، فلم يثبت بنيانهم أمام أعاصير الزمن ، لأنه بنيان لم تؤيده السيادة البحرية .

كان المصريون ، وهم في أوج عظمتهم ، سادة البحر المتوسط

والبحر الأحمر . ثم انتقلت هذه السيادة إلى اليونانيين ، وبها نشروا ثقافتهم ومدنيتهم ، من أقصى الشرق إلى صقلية وجبل طارق . وآلت هذه السيادة بعدهم ، حيناً من الدهر ، إلى الفينيقيين ، حتى ظهرت عليهم روما ، ثم بيزنطية . ومن الروم انتقلت سيادة البحر إلى العرب ، وظلت في أيديهم إلى ما بعد الحروب الصليبية، ثم أورثوها المماليك في مصر ، والأتراك العثمانيين في الدولة العثمانية ، وقد ضمنت هذه السيادة للعرب ، توطيد أقدامهم في البلاد التي فتحوها على السواحل .

لما اجتاح العرب الشام ومصر ، ورثوا في هذين القطرين ، مراكز تجارية ، ودور صناعة للسفن . فقد كانت الاسكندرية أغنى مدينة في العالم في ذلك العهد ، وكانت قاعدة بحرية عظيمة للروم ،، وكانت لهم قواعد أخرى في قيسارية والقلزم وغيرهما . وقد أدرك العرب أهمية السيادة البحرية ، عندما نزل الروم إلى الاسكندرية ، وكانت في أيدي العرب مدة ثلاث سنوات ، كما لمسوا أهمية التجارة في البحر المتوسط ، ورأوا ما يحول دونها من الصعوبات والأخطار ، ما دام الأسطول الرومي واقفاً لهم بالمرصاد ، يقطع عليهم الطرق البحرية ، ويتهددهم بكل ويل . وكان الأمر كذلك ، بعد أن احتل العرب قرطاجنة ، وعاد الروم فانتزعوها منهم . وقد أيقن العرب من كل ذلك ، إن لا سلامة لهم في الأقطار التي اكتسبوها ، إلا إذا تسنى لهم التغلب على أسطول الروم ، وطرده من البحر .

إن شرف إنشاء النواة الأولى للأسطول العربي الأول ، وكسب أول معركة بحرية ، يعود إلى معاوية بن أبي سفيان (وكان وقتئذ أميراً للشام) ، وإلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، أمير مصر ، وشقيق عثمان بن عفان في الرضاعة . وكان معاوية أول من فكر في اقتحام البحر ، فكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك ، وقال له في جملة ما كتب : إن الواقف على ساحل البحر في إقليم حمص ، يسمع صياح الديكة في أقرب الجزر إلى الساحل الشامي ، وهي (يريد الجزر) لا تزال في أيدي الروم ، وهم منها يقدرون أن يغيروا على الشام . . وكان الخليفة يوجس خيفة من البحر ، فخشي أن لا يدرك العرب فيه النجاح الذي حالفهم في المعارك البرية ، لأنهم لم يألفوا مثل ذلك . ويقال أنه استشار عمرو إبن العاص في ذلك وسأله أن يصف له البحر ، فقال عمرو في وصفه : انه البحر ، سماء وماء ، الراكب فيه ، دود على عود ، فالخارج منه مولود ، والداخل إليه مفقود . . فأبى الخليفة أن يأذن لمعاوية في ركوب البحر . وبقيت هذه الرغبة في نفس معاوية ، وهو يتحين الفرص لتحقيقها ، إلى أن كان عهد عثمان بن عفان ، فعرض الأمر عليه ، ورضي عثمان بذلك ، على أن يخير الناس في ركوب البحر ، وأن لا يؤخذوا إليه قسراً . . وتم لمعاوية ما أراد ، وبنى أسطوله ، وقام به بحملات صغيرة كثيرة على شواطىء الروم ، كان أشهرها فتح قبرس سنة ٦٥٤ .

وكان عبد الله بن أبي السرح من رأي معاوية في أهمية السيادة البحرية ، وكانت الحملة الأولى على قبرس بقيادة إبن سرح نفسه ، واشترك فيها أسطول الشام وأسطول مصر . . وفي هذه الحملة لم يمكث العرب طويلاً في قبرس ، بل صالحوا أهلها ، على أن يؤدُّوا للعرب جزية مقدارها سبعة آلاف دينار كل سنة ، وللروم مثلها ، وأن ينبؤا المسلمين بكل تعدٍّ للروم عليهم ، وأن ينزل العرب على أهل الجزيرة ، كلما وقعت حرب بينهم وبين الروم . . غير أن الروم لم يعبأوا بشيء من كل هذه الشروط ، وعادوا فاستردُّوا الجزيرة ، ولم يعد العرب إليها ويمتلكوها ، إلاَّ في القرن التاسع .

وأخذ العرب بعد حملتهم الأولى على قبرس ، يحاولون بسط سيادتهم على البحر المتوسط . وقد تمْ لهم ذلك بعد هذه الحملة بربع قرن ، وأصبحت لهم السيادة التي أرادوها . وقد شجعهم هذا على إرسال أسطول ضخم ، تبلغ سفنه الألف ، إلى القسطنطينية لحصارها . وكانت أهم معركة مهدت لهم كل هذا ، المعركة المعروفة بذات الشَّواري ، التي حدثت بعد فتح قبرس بقليل ، على عهد امبراطور البيزنطيين في ذلك الوقت قسطنطين الثاني إبن هرقل .

وقد أُطلق عليها هذا الاسم ، ـ إمَّا لكثرة السفن واختلاطها بعضها ببعض أثناء القتال ، أو لكثرة ما غرق من سفن اليوم

فيها ، وبقاء سواري هذه السفن ظاهرة فوق سطح الماء ، أو لأنها وقعت تجاه ساحل الأناضول ، حيث تغطي الأشجار الكثيفة ، سفوح الجبال القريبة من مكان المعركة ، فتظهر كأنها سوار .

كان للعرب في هذه المعركة ، أسطولهم المصري وأسطولهم الشامي . وهم إنما تمكنوا من بنائهما وتجهيزهما بهذه السرعة ، بفضل القواعد البحرية التي انتزعوها من الروم ، وبفضل مهرة العمال من سكان مصر والشام ، الذين اشتغلوا بإخلاص في بناء هذه السفن وتجهيزها وخدمتها ، وكانوا بحارتها ، في حين أن العرب لم يكونوا فيها إلّا جنوداً محاربين . وكان نجاحهم أنهم استطاعوا أن يحولوا المعركة (في البحر) إلى معركة برية . وذلك أنهم اقتربوا بسفنهم حتى حاذت سفن الروم ، ثم ربطوا هذه بتلك ربطاً محكماً بالحبال ، وشرعوا في القتال على ظهور تلك السفن ، التي أصبحت ميداناً ، وأخذ الفريقان يناجزان بعضهما بعضاً بالسيوف والحراب . ولم تلبث المعركة أن أصبحت على هذه الصورة ، مجزرة هائلة ، سالت فيها الدماء غزيرة ، حتى صبغت وجه البحر ، وحتى أصبح البحر لكثرة ما غرق فيه من السفن ، أشبه بغابة احترقت أشجارها . . وكان الأسطول الرومي يقوده الامبراطور ، وقد نجا بنفسه مثخناً بالجراح ، بعد أن فقد أسطوله ورجاله .

كانت هذه المعركة نصراً مبيناً للعرب ، تشبه نصرهم في

اليرموك . . ففي اليرموك ، أحرز العرب نصرهم الأول على الروم في البرّ ، وفي هذه ، أحرزوا نصرهم الأول في البحر . وبين المعركتين نحو عشرين سنة . غير أن خالد بن الوليد ، بطل اليرموك ، عرف كيف يستثمر نصره إلى أقصى حد ، بينما إبن سرح لم يتسن له شيء من ذلك ، ـ وليس اللوم على هذا القائد الباسل ، فاتح برقة وطرابلس وقبرس ، وإنما عِلَّة ذلك ، هي الفتنة التي ثارت على الخليفة عثمان بن عفان ، وانتهت بقتله ، وآلت إلى إنقسام الأمة ، وإلى الحروب الأهلية التي نشبت بين أحزابها . . وقد كان علي في الحجاز ، وعائشة في العراق ، ومعاوية في الشام ، واستدعي إبن سرح من مصر . . وإن هذه الحوادث المؤسفة ، قد أخرت العرب عن متابعة أعمالهم البحرية ، ولم يعودوا إليها ، إلاّ بعد أن استتب الأمر لمعاوية ، فعاد إلى ما انقطع منها ، بهمته المعروفة وطموحه العجيب ، وعاد إلى مهاجمة الروم في البحر ، وأرسل إلى القسطنطينية سنة ٦٦٩ أسطولاً بقيادة ابنه يزيد ، وجيشاً برياً بقيادة فضل الله بن عبيد الأنصاري ، على أن تلتقي القوتان أمام أسوار العاصمة الحصينة .

ووصلت القوتان إلى أسوار عاصمة الروم في ربيع تلك السنة ، وضربتا عليها الحصار . وقد أظهر يزيد بن معاوية في ذلك ضروباً من الشجاعة والبطولة ، ما لُقِّبَ لأجله بفتى العرب . وتوفي في أثناء هذا الحصار قائد الجيش البري أبو أيوب

الأنصاري ، حامل راية النبيّ ﷺ . وكان أبو أيوب هذا ، هو أول من نزل النبي في داره في المدينة ، يوم هاجر إليها من مكة . توفي أبو أيوب ودفن تحت أسوار القسطنطينية ، وبقي قبره مزاراً للنصارى في بلاد الروم . ثم بنى عليه الأتراك العثمانيون جامعاً ، كان يتقلد فيه سلاطينهم سيوف الخلافة . . فسبحان من جعل هذا الأنصاري الوقور ، موضع تبجيل العرب والروم والترك على السواء .

وجهّز معاوية في أواخر أيامه ، حملة بحرية قوية ، قهرت الأسطول الرومي ، وهزمته إلى بحر مرمرة . ثم حاصرت عاصمة البيزنطيين حصاراً دام سبع سنين ، وكان أطول حصار عرفه التاريخ . واستطاع العرب في أثنائه أن يحتلوا رودس وكريت . ولم يعودوا من هذا الحصار ومن هذه الأعمال الباهرة ، إلاّ لما تفاقم في بلادهم من الحوادث والفتن ، على أثر وفاة معاوية . وبقيت حالة الاضطراب هذه ، ضاربة أطنابها في البلاد ، إلى أن ولي الخلافة عبد الملك بن مروان . وفي عهد سليمان ، عاد العرب فقاموا بحملة جديدة على عاصمة الروم ، وكانت آخر حملاتهم عليها . . وباحتلال العرب صقلية في القرن التاسع ، وببسط سيادتهم على اسبانيا ، أصبح البحر المتوسط جميعه في قبضتهم ، وقد اتخذوا في سواحل إيطاليا ، مراكز تجارية خطيرة ، واحتكروا تجارة البحر من شرقه إلى غربه .

وقد أثبت العرب بكل هذا الذي قدمناه ، أنهم أمة جبارة في البر والبحر ، كما أنهم كذلك في التجارة أيضاً . وكانت لهم رحل وأسفار في بحار الهند والصين ، وفي كنتون وشنغاي وجزر المحيط الهادىء ، وقد كثرت جالياتهم واتسعت تجارتهم ، ومخرت سفنهم في كل مكان . وإن الجاليات العربية في جاوة والملايا وجزر الفيلبين والجزر الأخرى في المحيط الباسيفيك ، لتشهد بحذقهم وبراعتهم في كل فنّ .

(فتح الأندلس)

أشباه الجزر في جنوب أوروبا ثلاثة : اليونان وإيطاليا وإيبريا ، وهذه أكبرها ، وتشمل اسبانيا والبرتغال ، وتختلف عن إيطاليا واليونان ، بموقعها الجغرافي ، كما تختلف بتاريخها . فإيطاليا واليونان بلدان جبليان ، تخترقهما سلاسل الجبال . أما إسبانيا فسطحها نجد عالٍ ، تخترقه أو تحيط به ، سلاسل جبال ، لا يبرز ارتفاعها إلاّ عندما تهبط فجأة إلى السهل أو شاطىء البحر . وشكل إسبانيا يشبه المربع ، فلهذا قلبها بعيد عن البحر ، وهو لهذا كثير الحر نهاراً ، والبرد ليلاً ، مع اختلاف كبير كذلك في درجة الحرارة صيفاً وشتاء . وجبال البرانس تفصل اسبانيا عن باقي أوروبا ، وقديماً قيل إن أوروبا تبتدىء من البرانس ، لا من جبل طارق .

هذا الاختلاف في الموقع والمناخ بين أسبانيا وباقي أوروبا ، يتممه الاختلاف في تاريخ هذه البلاد عن تاريخ أوروبا . ففي أسبانيا أسّس العرب حضارة عربية قلباً وقالباً ، زخرت بها البلاد طوال ثمانية قرون ، تركت أثرها في لغة البلاد ، وفي دم أهلها وتاريخها ، كما أن مفاخر العمارة العربية ، لا تزال آية الفنّ في قرطبة وغرناطة ، وقنوات الماء العربية ، لا تزال تسقي أشجار البرتقال في بلنسية ، وهي الأشجار التي نقلها العرب إلى تلك البلاد .

وجد العرب في اسبانيا مناخاً شبيهاً بمناخ بلادهم في الجزيرة ، وكذلك في الشام ومصر ، وفي شمال أفريقيا ، وإليها نقلوا أنواعاً كثيرة من أشجار الشرق الأدنى المثمرة ، كما نقلوا نظام الري في مصر والعراق . وقد أطلقوا عليها إسم (الأندلس) نسبة إلى قبائل الفندال التي نهبت روما ، واجتاحت شمال أفريقيا ، ثم عبرت البحر إلى اسبانيا وانتشرت فيها . واليوم ينحصر إسم الأندلس (فندالوسية) في مقاطعة الجنوب ، حيث قرطبة وغرناطة وأشبيلية . . ونجد الأندلس تحيط به حافات من الجبال ، كما يحيط مثلها بنجد الجزيرة العربية ، وبالحجاز واليمن وحضرموت . وقد أطلقوا على الجبال في إسبانيا إسم (سيرا) ، فمنها في الشمال سيرا نفادا ، وفي الجنوب سيرا مورينا . و(سيرا) عربية الأصل ، لأن العرب كانوا قد أطلقوا على تلك الجبال إسم جبال السّراة ، وحمل الاسبان هذا الاسم إلى

اميركا ، فأطلقوه على بعض الجبال فيها . . وكذلك معظم الأنهار في اسبانيا ، لا تزال تحتفظ بأسمائها العربية ، فمن ذلك : الوادي الكبير الذي عليه أشبيلية ، والوادي اليانع ، ونهر التاج وعليه طليطلة . . وفي أحواض الأنهار ، حيث الصيف الحار والتربة الخصبية ، عرف العرب كيف يستغلون ثروة البلاد ، حتى جعلوا منها جنة الله في أرضه .

إن حوض الإيبر في الشرق ، وحوض الأندلس (فندالوسية) في الجنوب ، تطبق عليهما الجبال . فإذا نزل أحد إلى البر من جهة جبل طارق ، اعترضته جبال شاهقة ، فإذا اجتازها بلغ الحوض ، ثم النجد الآخر . والأمطار في الوسط وفي أحواض الأنهار قليلة ، ولولا مهارة العرب في نظام الري ، لما تمكنوا من الانتفاع بخصب البلاد الطبيعي . وفي الأندلس نزل العرب بلاداً تشبه بسمائها الصافية ومناخها المتقلّب ، وكذلك بكرومها وزيتونها وبرتقالها ونخيلها وغلالها ، ما ألفوه في الشام والعراق ومصر .

وقد استهدفت بلاد الأندلس ، قبل مجيء العرب إليها بقرنين ، لهجوم البرابرة . فقد اجتاحوا الأمبراطورية الرومانية ، ثم زحفوا إلى اسبانيا وعاثوا فيها فساداً ، حتى جعلوها خراباً يباباً . وكانت أسبانيا تابعة لامبراطورية روما ، فلما فسدت هذه ، دب الفساد إلى اسبانيا أيضاً ، فكثر فيها العبيد ، وانتشر الفجور ، وعمَّ الجور وفقد الأمن . وجاءها ، وهي في هذه

الحالة ، القوط (سنة ٤٥٦) فطردوا الفندال وحكموا البلاد ، إلى أن جاء العرب واستولوا عليها ، وتنفس الناس الصعداء ، بعد الذي عانوه من ظلم الحكام وعسف الرؤساء . وتم هذا في عهد عبد العزيز بن مروان أمير مصر .

وكان عبد العزيز بعد أن ولي مصر لأخيه عبد الملك ، قد استقدم إليه موسى بن نصير ، وكان في خدمة بني أمية ، وولاه أفريقيا ، وكانت بادراتها تابعة لمصر ، وكان الأمن قد استتب فيها وبطل النزاع بين العرب والبربر . ولما قدم موسى إلى القيروان ، كانت طنجة وسواحل المحيط الأطلسي ، لا تزال في أيدي البيزنطيين ، فاحتلها موسى ، ولم يبق خارج الحكم العربي منها إلاّ مدينة (سبتة) الواقعة على الساحل الافريقي في الجهة المقابلة لجبل طارق ، وكانت علاقتها بالروم قد تراخت ، بعد الذي حل بهم من الانحدار في البحر ، وأصبحت علاقتها باسبانيا أشد وأمتن .

وكانت سبتة هذه نقطة الاتصال بين العرب وأسبانيا ، وكان أميرها (جوليان) ينقم على رذريق ، الذي قتل ملك القوط واغتصب عرشه ، ولعله كان ينقم عليه لأمور أخرى ، فصحت عزيمته على الانتقام منه ، ولم ير إلاّ أن يرميه بجيش العرب ، وهو يعلم أن رذريق مهما كان قوياً ، فإنه لا يستطيع الثبات أمام العرب ، أو يقوى على مقاومتهم . ومما زاده تصميماً على ذلك ،

أن أبناء الملك القتيل واخاه ، كانوا يطلبون الانتقام كذلك ، ويدبرون المكايد لرذريق . . وكان موسى بن نصير في ذلك الوقت ، قد خلَّف على طنجة طارق بن زياد ، قائد حرسه ، وعاد إلى القيروان .

إن قرب أسبانيا من ساحل افريقيا ، ووجود سبتة بين العرب والقوط وموالاتها للعرب ، وهجرة اليهود إلى أفريقيا لكثرة ما كان يقع عليهم من الحيف والاضطهاد في اسبانيا ، ـ كل ذلك قد هوَّن على العرب أمر أسبانيا ، ومهد لهم السبيل إليها . . ويقال أن موسى بن نصير ، استشار الخليفة الوليد في ذلك . وكان الخليفة متحفظاً في جوابه ، فلم يمنع موسى من التحرش بالقوط ، ولم ينصح له بقذف الجيش العربي إلى ما وراء البحر ، وإنما أشار عليه بأن يرسل السرايا في حملات صغيرة ، لتناوش القوط ، وتقف على مبلغ قوتهم ، وتلقي الرعب في قلوبهم .

والبعثة الحربية الأولى التي أرسلها لهذا الغرض ، كانت بقيادة أبي الزوراء طريف ، وقوامها خمسمئة جندي ، ربعهم من الفرسان . واسم (طريف) هذا ، سميت به فيما بعد مدينة صغيرة على ساحل الأندلس ، غربي جبل طارق . وكان أمير سبتة قد جهَّز سفناً ، نقل عليها هذه الحملة ، وذلك في شهر تموز سنة ٧١٠ . ولم تلبث الحملة أن عادت بعد أن قامت بمهمتها خير قيام . . وفي السنة التالية أرسل موسى حملة أخرى أكبر من

الأولى ، بقيادة طارق بن زياد حاكم طنجة ، وكان بربرياً من موالي موسى . وكان جيشه سبعة آلاف رجل ، اجتاز بهم المضيق ، وعرضه نحو ثلاثة عشر ميلاً ، ونزلوا في الساحل الاسباني عند الصخرة التي عرفت فيما بعد بجبل طارق . وكانت هناك مدينة في موضع (الجزيرة الخضراء) ، فاحتلها طارق ، ثم تقدم شمالاً في سهل الأندلس . ونمي إليه أن رذريق القوطي قد هبَّ لملاقاته بجموعه الجرارة ، فلم يرهبه ذلك ولم يثنه عن عزمه ، فأرسل إلى موسى يطلب نجدة ، وسارع لمقابلة القوط بجيشه الصغير .

ولم يتأخر موسى بن نصير عن إمداد طارق ، فأرسل إليه نجدة من خمسة آلاف جندي ، أصبح لطارق بهم جيش من اثني عشر ألفاً ، قذف بهم في المعركة الأولى ، التي نشبت بين العرب والقوط في اسبانيا ، وكانت حامية ، بل كانت الفاصلة ، لأنها فتحت أمام العرب بلاداً عظيمة مساحتها قدر مساحة فرنسا . وقد وقعت هذه المعركة الخالدة (في ٩ تموز سنة ٧١١) عند وادٍ سماه العرب فيما بعد (وادي بكة) . ويجري الماء في هذا الوادي إلى أن يصب في البحر عند رأس (الطرف الأغرّ) ، وهو المكان الذي قهر فيه الأميرال نلسون الانكليزي ، أسطول فرنسا وأسطول أسبانيا معاً سنة ١٨٠٥ ، وقضى بذلك على سيادة نابوليون البحرية .

كان لرذريق في هذه المعركة جيش عظيم ، لا نسبة بينه وبين

جيش العرب الصغير ، ولكن كان ينقصه كثير من المزايا الحربية والمعنوية . وقد أقام على ميمنة جيشه وميسرته أميرين من القوط ، هما ولدا الملك الذي قتله رذريق واغتصب ملكه ، وإنما جعلهما قائدين ليترضاهما ، ولكنهما خذلاه في أحرج المواقف . وكان معظم رجال هذا الجيش ، من العبيد والفلاحين الناقمين على حكم القوط وسوء إدارتهم ، بخلاف جيش طارق، فقد كان على قلّته قوياً باسلاً مدرباً ، اندفع إلى ميدان القتال اندفاع السيل ، وفي مقدمته طارق البطل ، الذي أظهر من الجرأة والاقدام والعبقرية الحربية ، ما يجعله شبيهاً بخالد .

وكان موسى بن نصير ، يخشى أن يتوغل طارق في البلاد ذلك الجيش الصغير ، فأرسل يستدعيه إلى أفريقيا . غير أن طارقاً كان يرى ، أن الفرصة التي سنحت له الآن ، قد لا تسنح مرة أخرى . فاسبانيا بلا جيش يدافع عنها ، وبلا ملك يحسن تدبيرها ويجمع كلمتها . ولهذا لم يذعن لأوامر موسى ، وتابع تقدمه . . وكان يهود أسبانيا ، يضمرون منذ زمان طويل ، كل عداء للقوط ، للأسباب التي تقدمت ، وقد عزموا على إعلان ثورة عامة في البلاد ، والاشتراك مع العرب في إنزال الضربة القاضية بالطغاة . وكان الاضطهاد الذي مني به اليهود في اسبانيا القوطية ، من أفظع ما سجله التاريخ ، ولا يدانيه إلّا ما لقيه اليهود والعرب معاً ، بعد ثمانية قرون ، عندما دارت الدائرة عليهم .

كانت عاصمة القوط في طُلَيْطَلَة ، وهي واقعة على نهر التاج ، في مركز حربي خطير في قلب البلاد . فلما احتل طارق قرطبة وأشبيلية ، وبلاداً أخرى سلمت بلا مقاومة ، ترك القلاع والحصون ، واتجه نحو العاصمة . . وفي هذه الأثناء نزل موسى بن نصير إلى برّ اسبانيا بجيش ، قوامه عشرون ألفاً ، أكثرهم من جند الشام المدربين . ففتح جميع الحصون التي عجز عنها طارق ، ثم لحق بطارق قرب طُلَيْطِلَة . ولما دنت جموع العرب من العاصمة ، قام اليهود بثورتهم ، فذعر الناس وعمهم الرُّعب ، وقد خرجوا من العاصمة ، ولاذوا بالفرار إلى الجبال القريبة ، وسلمت المدينة ، ودخلها موسى ، وعين عليها حاكماً ، أحد أبناء الملك الذي قتله رذريق . وكانت أسرته كلها تميل إلى العرب ، وقد آثرت البقاء في العاصمة ، فأعاد موسى إليها أملاكها السابقة ، وأضاف إلى ذلك أملاك أمراء القوط الآخرين . . ولم يلقَ العرب بعد فتح طليطلة مقاومة تذكر ، وقد تقدموا في الجهات الشمالية الشرقية ، فاحتلوا سيراقوزا وفي الجهات الشمالية الغربية ، حتى بلغوا خليج يسكاي .

بعد أن تم لموسى فتح الأندلس ، استدعاه الوليد بن عبد الملك ، فجاء سنة ٧١٥ وفي حاشيته أربعمئة أمير من أمراء القوط ، وآلاف كثيرة من خدمهم ، وأسرى الحرب ، وأحمال الغنائم التي لا تحصى . وقد استقبل الخليفة هذا القائد العظيم في جامع دمشق ، ـ فكان منظراً لم تر روما مثله في أعز أيامها . .

وتوفي الوليد بعد ذلك بقليل ، تاركاً لأخيه سليمان ، هذه الامبراطورية العظيمة ، من حدود الصين إلى حدود فرنسا .

(الامبراطورية العربية في أوج عظمتها)

في الشهر الثاني من سنة ٧١٥ كانت دمشق ، عاصمة الأمويين ، تستقبل الفاتح العربي ، موسى بن نصير ، الذي قدم من الأندلس ، وفي حاشيته أربعمئة أمير قوطي ، وثلاثون ألف أسير من خدم هؤلاء الأمراء . ورأى أهل دمشق ، ما لم تر مثله هذه المدينة في حياتها الطويلة ، (وهي كما هو معلوم أقدم مدينة في العالم) . . رأوا أمراء القوط بشعرهم الأشقر المسترسل ، وبتيجانهم الذهبية المرصعة بالأحجار الكريمة ، وبأحزمتهم المزركشة وهي من الذهب الخالص . . ورأوا الغنائم التي مرّت أمامهم ، في ذلك الموكب العظيم ، الذي لم تحظ بمثله روما في أوج عزها .

وكان في استقبال هذا القائد ، الخليفة نفسه (الوليد بن عبد الملك) ، وهو الذي استدعاه ، فسار إليه من طليطلة إلى دمشق ، وبينهما مسير ثلاثة أشهر . . ومثل موسى بين يدي أمير المؤمنين ، في جامع دمشق الكبير . . وكان هذا آخر عمل قام به الوليد ، وقد قرّت عيناه قبل موته ، بعظمة ما فتح الله به على المسلمين في عهده . وبايع الناس بعده ، أخاه سليمان .

وكان سليمان بهيَّ الطلعة فصيح اللسان طموح النفس .
وخؤولته من بني عبس ، قبيلة عنترة فارس العرب . وقد ربـي
في البادية ، شأن أكثر أمراء بني أمية . ومات في أوائل العقد
الخامس من عمره ، وكان حكمه القصير الذي لم يزد على ثلاث
سنوات ، مملوء بالأعمال الجليلة ، وكانت خاتمة أمجاد العرب .

فقد وقف الفتح بعد سليمان ، وفقد الملك بعد بني أمية عربيته
الخالصة . . وفي عهد سليمان تم بناء مدينة الرَّملة ، عاصمة
فلسطين إذ ذاك ، وكان قبل خلافته ، والياً على فلسطين ، ومقرُّ
ولايته مدينة الـلُّدّ . فلما رقي عرش الخلافة ، أراد أن يكون له ما
كان لأبيه عبد الملك ، ولأخيه الوليد ، من الفضل في الفتح
والعمارة ، فأمر ببناء الرملة . . ويقول المقدسي المؤرخ المشهور
في القرن العاشر الميلادي : ان مسجد الرملة ، أجمل من مسجد
دمشق ، ويسميه الجامع الأبيض ، لأنه كان من الرُّخام الناصح
البياض ، وإن محرابه ، أجمل محراب في بلاد الاسلام ، بعد
محراب الحرم الشريف .

وأما الفتح ـ فقد عمد سليمان إلى تتويج الفتوح العربية
بعمل ، لو تم لغـيَّـر مجرى التاريخ . فقد وضع هذا الخليفة
الطموح خطة ، كانت غاية في الدقة والإحكام ،لِـحَـمْلَةٍبرية
وبحرية على القسطنطينية . ولكن الوفاة عاجلته فلم تتم ،
وعادت جيوشه ، لأن أمر الخلافة كان الشغل الشاغل لأمراء

العرب وقوادهم ، على أثر وفاة كل خليفة ، ولا سيما ، وان إبن سليمان كان صغيراً ، والناس يخشون أن يثور النزاع بين الأمراء الطامحين إلى العرش .

وفي سنة ٧١٧ ظهر أمام القسطنطينية ، جيش عربي عظيم ، يقوده مسلمة إبن عبد الملك ، أشجع رجال بني أمية وأبرزهم فروسية . وقد اجتاز مسلمة بقواته الأناضول في طريق الساحل أولاً ، ثم سار في جهة الشمال الغربي يريد البوسفور ، وكان جيشه ثمانين ألفاً ، وهو أكبر جيش ساقه العرب في فتوحهم ، وكان هدفه ، أعظم هدف سعت إليه قوة عربية . . وفي أوائل أيلول من تلك السنة ، اجتاز بحر مرمرة ، أسطول عربي ، قيل أن سفنه كانت ألفاً وثمانمئة . وقامت هاتان القوتان العربيتان ، بأكبر حصار استهدفت له القسطنطينية في تاريخها . واستمرّ الحصار طويلاً ، وقاومت عاصمة الروم هذه المحاولة ، فثبتت ولم تُسَلِّم ، وساعدها على ذلك عدة أمور ، منها أنها كانت مركزاً تجارياً عامراً ، وقد حاصرها العرب قبلاً بقيادة يزيد بن معاوية سبع سنوات كاملة ، فاتخذت لمثل هذا الحصار كامل أهبتها من الزاد والذّخيرة . ومنها أن مرفأ العاصمة البيزنطية ، كانت تسده جنازير الحديد الضخمة ، في أضيق مسافة بين المدينة وشاطىء آسيا ، ومن جرّاء ذلك ، عجزت السفن عن بلوغها ، كما عجزت عن سد طريق البحر الأسود إليها ، فبقي هذا الطريق مفتوحاً ، كما بقي إتصال العاصمة بموانئ البحر الأسود سالماً

ومن ذلك أيضاً النار اليونانية التي اخترعها الروم من مواد سريعة الالتهاب ، فيها الكلس والكبريت والنفط وغيرها ، فكان الروم من سفنهم وأسوار مدينتهم ، يقذفون سفن العرب بها . . ومن ذلك أيضاً وفاة الخليفة سليمان . . ولعل هذا كان أكبر حافز للعرب على ترك عاصمة الروم وشأنها ، والاسراع بالعودة إلى الشام ، وهم لو ظلُّوا على حصارها ، لفتحوها لا محالة ، ولو طال أمد الحصار .

وكان امبراطور الروم في ذلك الوقت (واسمه لاون) من أقدر قياصرة الروم ، الذين ولوا الحكم بعد هرقل . وقد استطاع بحسن حيلته ، أن يحصل على معاونة قبائل البلغار ، فأمدوه بأكثر من عشرين ألفاً من رجالهم . ومما كان عوناً للروم أيضاً ، أن شتاء تلك السنة ، كان شديد الوطأة ، فأصاب الأسطول العربي برزايا كثيرة ، كان أشدها فتكاً تلك العاصفة الهوجاء ، التي ثارت عليه في بحر إيجة وهو عائد إلى بلاده . . ولم يحاول العرب بعد هذه الحملة اقتحام القسطنطينية براً ، ولا بحراً .

وبعد أربع عشرة سنة من ذلك التاريخ ، ارتدَّت الموجة العربية في الغرب عن سهول فرنسا . وكان ذلك في عهد هشام بن عبد الملك . وكان العرب قد قطعوا جبال البرانس ، بين أسبانيا وفرنسا ، أيام سليمان بن عبد الملك ، واحتلوا على حدود فرنسا الجنوبية بعض المواقع التي اتخذوها قاعدة لزحفهم إلى قلب أوروبا . وفي سنة ٧٣٢ وصل عبد الرحمن الغافقي أمير الأندلس

إلى سهل تور ، بعد أن احتل العرب مدينة بوردو على ساحل فرنسا الغربي ، وهي عاصمة فرنسا الثانية ، وإليها انتقلت الحكومة الفرنسية يوم وقعت باريس في أيدي الغزاة في حرب السبعين ، والحرب العالمية الحاضرة .

أمام تور هذه ، تقابل الجيشان ، العربيُّ بقيادة عبد الرحمن الغافقي ، والفرنجي بقيادة شارل مارتل ، وكان سلاح الفرنجة الفؤوس الطويلة الضخمة ، غير أن فرسان العرب كانوا أسرع منهم حركة وأدرى بفنون الحرب . ولولا أن أُصيب العرب بنكبتهم ، لفازوا ونالوا من أعدائهم ما أرادوا ، فقد قتل قائدهم عبد الرحمن ، واختلف أمراء الجيش فيما بينهم ، وكان من أمرهم أنهم تركوا ميدان القتال ، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة في فرنسا . وهم لو اتفقت كلمتهم ، وواصلوا زحفهم ، لكان القسم الجنوبي من فرنسا ، وإيطاليا برمتها ، في متناول أيديهم . وانتهى عهد بني أمية ، وحدود الامبراطورية العربية ، جبال البرانس في أسبانيا ، وجبال طورس شمالي الشام ، ونهر سيحون بين بلاد فارس وبلاد المغول .

هذا الفتح العظيم ، تم للعرب في أقل من قرن ، كانت المرحلة الأولى منه في الشام ، بقيادة بطل اليرموك . ثم اتسعت دائرة الفتح في مرحلته الثانية ، فبلغت حدود الدولة قرطاجنة غرباً وبلخ شرقاً . وفي المرحلة الثالثة ، بلغ الفتح أقصى

الغرب ، على سواحل المحيط الأطلسي ، وشمال فرنسا في أوروبا ، وقلب آسيا شرقاً ، من سيحون شمالاً إلى السِّند جنوباً . وقد تمت المرحلة الأولى من هذه المراحل الثلاث ، في عهد عمر بن الخطاب . وكان أبطال الحلقتين الآخريين خلفاء بني أمية . وكان الفتح يسير بخطى حثيثة في كل مكان ، إلاَّ إذا ثارت فتنة أو ثورة في البلاد .

والقرن الأول الهجري ، هو العصر العربي من تاريخ الاسلام . فهذه الفتوح العظيمة ، قام بها السلاح العربي ، وهذه المعارك التاريخية الحاسمة كسبها قواد عرب أفذاذ ، أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص والمثنَّى وسعد بن أبي وقاص وقتيبة بن مسلم وعقبة بن نافع وعبد الله بن عامر ، وكان الجيش في كل مكان ، من أبناء القبائل العربية ، وقد قاموا بأمور عظيمة لا تجارى : كوَّنوا أمبراطورية ، دخل في حوزتها معظم العالم المتمدن المعروف وقتئذ . ونشروا في أرجائها دين العرب ولغة العرب .

وكانت الدَّواوين على عهد سليمان بن عبد الملك ، قد أصبحت كلها عربية بعمالها ولغتها ، وأصبحت اللغة العربية ، هي اللغة الرسمية لجميع البلاد ، وضربت الدراهم والدنانير على طراز خاص ، واستعاض الناس بها عن النقود الأخرى (الأجنبية) التي كانوا يتعاملون بها قبلاً ، وانتشرت المدارس

العربية شيئاً فشيئاً في المعسكرات والمدن ، وعمَّ تعليم القرآن ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وكثر اعتناق الموالي له ، واختلاطهم بالعرب ، مما أضعف العصبية العربية ، وقضى عليها في بعض الأطراف ، ولكنها بقيت محافظة على الاسلام ، إلاّ اسبانيا .

وإن العرب ، قد تبوّأوا هذا المركز الممتاز ، في تاريخ البشرية ، بما خصَّهم الله به من المزايا والصفات ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

سلسلة مختارات اسلامية

سلسلة مختارات إسلامية

كلمات ومواقف خالدة

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

كلمات ومواقف خالدة

دار الفكر اللبناني



بسم الله الرحمن الرحيم

« أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً ، وَلَيَنْصُرَونَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌ عَزِيزٌ * » .

صدق الله العظيم

الكلمات خالدة

عبور دجلة

عندما وصل سعد بن ابي وقاص الى شاطىء دجلة رأى على مد البصر من الشاطىء الاخر : « المدائن » معقل كسرى وقصرة الابيض في بهائه .

ولم يجد سبيلا ، الا ان يعبر مع رجاله على خيولهم ، وتقدم عاصم بن عمرو ومعه ستمائة من اهل النجدة فساروا حتى بافوا شاطىء دجلة ، يريدون أن يعبرون أولاً ليحموا الشاطىء من الجانب الاخر ، فلما وجد بعض رجاله يترددون تلا قوله تعالى « وما كان لنفس ان تموت الا بأذن الله كتابا مؤجلاً » ثم رفع رأسه فاقتحم النهر واقتحمه زملاؤه فلما رأى القعقاع بن عمرو « الكتيبة الاولى » يتقدم في سحبها ونظر فاذا جنود العدو على الجانب الاخر يتاهبون لردها ، امر سائر اصحابه الستمائة فدفعوا خيولهم الى النهر ، فدخلوه كما دخله عاصم واصحابه .

وتولى العدو العجب لهذا الصنيع فلما رأوا عاصما واصحابه

يتوسطون النهر ارسلوا فرسانهم ليمنعوهم من الخروج وليقاتلوهم في الماء ورأى عاصم ذلك فقال لاصحابه :

الرماح ، الرماح ، اشرعوها وتوخوا العيون وخرجت كتيبة الاهوال سالمة .

أجود منك

روى معن بن زائدة : قال :

لما هربت من الخليفة المنصور خرجت من باب حرب . بعد ان اقمت اياما ، وخففت لحيتي وعارضتي ، ولبست جبة صوف غليظة .

قال فتبعني اسود متقلدا سيفا ، حتى اذا غبت عن الحي ، قبض على خطام الجمل فاناخه وقبض علي وقال :

ـ انت معن بن زائدة ، قلت يا هذا ، اتق الله ، اين انا من معن ، قال : دع عنك هذا فانا والله اعرف بك .

قلت : فهذا جوهر حملته معي باضعاف ما بذله المنصور لمن جاءه بي فخذه ولا تسفك دمي .

قال هاته فنظر اليه ساعة ثم قال :

ان الناس قد وصفوك بالجود فاخبرني :

هل وهبت قط مالك كله . قلت لا . قال فنصفه ، قلت لا ، قال فثلثه : قلت لا ، حتى بلغ العشر فاستحييت ، فقال : ما ذاك بعظيم ، انا والله رجل ورزقي عشرون درهما وهذا الجوهر قيمته الف دينار وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك لجودك المأثور بين الناس ولتعلم ان هناك من هو اجود منك .

خذ ثأرك

قال ابراهيم بن سليمان بن عبد الملك :

هربت من عدوى فمررت على الكوفة فاذا باب كبير ورجل وسيم ما ان راني حتى سالني عن امري .

فقلت : رجل خائف وم ومستجير بك فاجارني . وقدم لي خير ما عنده .

وكان يركب كل يوم في الفجر ولا يرجع الا في المساء .

فسالته ذات يوم ، فقال ان ابراهيم بن سليمان بن عبد الملك قتل ابي ظلما ، وانا اطلبه لادرك ثأري .

فقلت له يا هذا قد وجب حقك ، انا ابراهيم فخذ ثارك .

فتبسم وجهه واحمرت عيناه وفكر طويلا ثم قال :

لن انقض عهدي واخرج عني فلست امن على نفسي واعطاني الف دينار فرفضتها .

علمي معي

قال الامام الشافعي :

لما ختمت القرآن دخلت المسجد اجالس العلماء واحفظ الحديث وكان منزلنا بمكة في شعب الحفيف . وكنت فقيرا بحيث لا املك ما اشتري به القراطيس فكنت اخذالعظم واكتب فيه حتى ملأت حجرة كبيرة بهذه العظام ثم صبرت على نفسي عاما كاملا فحفظت ، كتبت على هذه العظام عن ظهر قلب وقلت في ذلك شعرا :

علمي معي اينمـا يممت بنفسـي
قلبي وعـاء لـه لا بـطن صنـدوق
ان كنت في البيت كان العلم فيه معي
وان كنت في السوق كان العلم في السوق

لا تعصين له امراً

اوصت امرأة مسلمة ابنتها ليلة زفافها فقالت :

يا بنية : انك قد خلفت العش الذي درجت فيه والموضع

الذي خرجت منه الى وكر لم تعرفيه وقرين لم تالفيه ، كوني له أمة يكن لك عبدا واحفظي عني خصالا عشرا يكن لك دركا وذكرا .

اما الاولى والثانية . فحسن الصحبة بالقناعة وجميل المعاشرة بالسمع والطاعة ، ففي حسن المصاحبة راحة القلب ، وفي جميل المعاشرة رضا الرب .

والثالثة والرابعة . التفقد لموضوع عينه والتعاهد لموضع انفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم انفه منك الا اطيب ريح ، واعلمي ان الكحل احسن الحسن المودود ، وان الماء اطيب الطيب الموجود .

والخامسة والسادسة ، فالحفظ لماله والرعاية لحشمه وعياله ، واعلمي ان الاحتفاظ بالمال حسن التقدير والارعاء على الحشم حسن التدبير .

والسابعة والثامنة . التعاهد لوقت طعامه والهدأة عنه وقت منامه ، فحرارة الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة .

والتاسعة والعاشرة : لا تفشين له سرا ولا تعصين له امرا فانك ان افشيت سره لم تأمني غدره وان عصيت امره اوغرت صدره .

لئلا يظن ان ظلمته

كان السلطان نور الدين محمود يلعب الكرة في دمشق ليروض خيله ويمرنها فرأى رجلا يحدث آخر ويشير بيده الى نور الدين فأرسل اليه يسأله عن حاله .

قال : لي مع الملك العادل حكومة وهذا غلام القاضي .

فألقى نور الدين « الجوكان » من يده وخرج من الميدان وسار الى القاضي وهو حينئذ « كمال الدين الشهر زورى » .

وأرسل الى القاضي يقول : انني قد جئت محاكما فاسلك معي ما تسلكه مع غيري ، فلما حضر ساوى بينه وبين خصمه وحاكمه فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين .

فقال نور الدين حينئذ للقاضي ، ولمن حضر :ـ هل ثبت لك عندي حق . . قالوا : لا

قال : اشهدوا انني قد وهبت له هذا الملك الذي حاكمني عليه وهو له دوني ، وقد كنت اعلم ان لا حق له عندي ، وانما حضرت معه لئلا يظنَ اني قد ظلمته .

هيبة السلطان

قدم عمر بن الخطاب الى الشام على حماره فتلقاه معاوية في موكب نبيل فأعرض عنه عمر ، فجعل يمشي الى جنبه

راجلا ، فقال له عبد الرحمن ابن عوف :
اتعبت الرجل ، فاقبل عليه وقال :

يا معاوية : انت صاحب الموكب مع ما بلغني من وقوف ذوى الحاجات ببابك .

قال : نعم يا امير المؤمنين .
قال : ولم ذلك ؟!
قال : لاننا في بلاد لا تمنع من الجواسيس ولا بد لهم ما يرعوهم من هيبة السلطان فان امرتني بذلك اقمت عليه وان نهيتني عنه انتهيت
قال : ان كان الذي قلت حقا فانه رأى اريب وان كان باطلا فانها خدعة اديب .
لا آمرك ولا أنهاك

العقد المعار

قال علي بن أبي رفع ؛ كنت على بيت مال علي بن أبي طالب وكاتبه . فكان في بيت ماله عقد لؤلؤ كان قد أصابه يوم البصرة فأرسلت إلى بنت علي بن أبي طالب تقول بلغني أن في بيت المال عقد لؤلؤ وهو في يدك وأنا أحب أن تعيرني أتجمل به في يوم الأضحى ـ فأرسلته إليها عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام وإذا أمير المؤمنين رآه عليها فعرفه فسألها عنه فقالت له . فأرسل إلي فقال : أتخون المسلمين يا إبن أبي رافع قلت معاذ الله . قال

كيف أعرت بنت أمير المؤمنين العقد الذي في بيت مال المسلمين بغير ألفي ورضاهم . فقلت قد وعدت بأن ترده سالماً إلى موضعه . فقال رده من يومك وإياك أن تعود لمثله فتنالك عقوبتي . ثم قال : ويل لابنتي لو كانت أخذت العقد على غير عارية مضمونة مردودة فكانت إذن أول هاشمية قطعت يدها في سرقة » .

مواقف

شجاع امام المطرب

احبط « الحجاج بن يوسف الثقفي » مؤامرة عبد الرحمن بن الاشعث لخلع عبد الملك بن مروان خليفة المسلمين ، وبعث من يحاربه ويخمد فتنته في ارض العراق . ولما احس « ابن الاشعث » بسوء مصيره ، القى بنفسه من اعلى برج فمات منتحرا قبل ان يظفر به الحجاج .

وجلس الحجاج في دار امارته بمدينة الكوفة ليحاكم اعوان ابن الاشعث الذين زينوا له الخروج على طاعة خليفة المسلمين في فترة حرجة من ايام المسلمين حيث الفرس يناولونهم في الشرق ، والرومان يتربصون بهم الدوائر في الغرب .

وكان الحجاج على قسوته وبطشه باعداء الاسلام ومناوئى دولة بني امية يحب ان يسمع دفاع كل واحد عما أتاه من عصيان لطاعة خليفة المسلمين .

ـ ابن الاشعث ـ فقام وتقدم الى حيث يجلس ـ الحجاج ـ ثم قال : ايها الامير . ان لي عليك حقا ويدا .
قال الحجاج : وما حقك علي ؟
قال الرجل : سبك ابن الاشعث وشتمك يوما فرددت عنك
قال الحجاج : ومن يعلم ذاك ؟

قال الرجل وهو يتفرس في وجوه الحاضرين من زملاء المؤامرة : انشد الله رجلا فيكم سمع مقالتي دفاعا عن الامير الا شهد به .

وجاء الدور على رجل من اعوان فقام رجل من الاسرى فقال : قد كان ذاك ايها الامير .

قال الحاج : اذن يخلى سبيلي لصدقه .

ثم التفت الحجاج الى الرجل الاخر يخاطبه : فما منعك ان تنكر كما انكر صاحبك ؟

قال الرجل : لقديم بغضى اياك ايها الامير وكراهتي ان يذكرك احد بخير وضحك الحجاج ثم قال : ويخلى سبيل هذا لشجاعته امام الموت .

مواقف

أول العدل

كان « يحيي بن اكتم - الوزير يماشي « المأمون » الخليفة العباسي يوما في بستان مؤنسة بنت المهدي خارج مدينة بغداد ، والشمس عن يسار يحيي والمأمون في الظل وقد وضع يده على عاتق يحيي وهما يتحادثان حتى بلغ المأمون حيث اراد ، ثم كر راجعا من نفس الطريق التي بدأ فيها فقال ليحيي .

- كانت الشمس عليك لانك كنت عن يساري ، وقد نالت منك ، فكن الان حيث كنت ، واتحول انا حيث كنت انت .

قال يحيي الوزير :

- والله يا امير المؤمنين لو امكنني ان اقيك هول المطلع بنفسي ففعلت .

فقال المامون :

- لا والله ما بد من ان تاخذ الشمس مني مثل ما اخذت منك .

ولما لم يكن الخليفة « المأمون » يحب ان يراجعه في الحق احد ، فقد تحول يحيي واخذ من الظل مثل الذي اخذ منه المأمون .

وقال المأمون معقبا :

ـ اول العدل ان يعدل الرجل على بطانته ، ثم على الذين يلونهم حتى يبلغ العدل الطبقة الدنيا .

حسين الطوخي

مواقف
عمر يحارب الروتين

■ حين ولى خلافة المسلمين « عمر بن عبد العزيز » تأمن خلفاء بني امية ، كانت امور الدولة الاسلامية قد اصابتها بعض الشروخ ، وبعض من سوس الفساد والاهواء قد عرف الطريق الى اساليب الحكم منذ خلافة يزيد بن معاوية التي اريقت خلالها دماء المسلمين انهارا منذ مقتل الحسين ابن علي رضي الله عنهما .

غير ان « عمر بن عبد العزيز » اعلى وارشد خلفاء بني امية ، لم يأل جهدا في رأب الصدع ، وتقويم ما اعوج من امور الدولة الناشئة ، واختار لنفسه ان يركب الصعب ، وان يرضى رب العباد قبل ان يستجلب رضاء العباد .

ورغما عن قصر مدة خلافته التي لم تزد عن عامين وبضعة اشهر ، فقد كان يحارب الفساد في كل موضع ، ويحاسب عماله وامراء ولايات الدولة ادق حساب ، فيعزل على الفور من تثبت عليه تهمة الرشوة والاثراء الحرام من اموال المسلمين ولم تكن تاخذه في الحق لومة لائم . .

وكان قد اقام على المظالم رجلا من خيار المسلمين واعفهم قلبا وانظفهم نفسا ويدا وهو « عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ».

غير ان « عبد الحميد » بسبب خشيته من شدة حساب الخليفة له ، كان يراجعه فيما يصدره اليه من اوامر وتعليمات حتى لا يقع في خطأ او يكبوبه تصرف ما . .

وكان ان تضايق منه الخليفة لما كثرت مراجعته له التي تعطل بدورها قضاء امور المسلمين ، فبعث اليه « عمر » كتابا يقول فيه :

« انه ليخيل الي اني لو كتبت اليك ان تعطي رجلا شاة لكتبت إلّي : أضان أم ماعز ، ولو كتبت إليك باحدهما لكتبت الي : اصغير ام كبير . فاذا اتاك كتابي هذا فلا تراجعني في مظلمة .

من ادب النبوة

التواضع

قال رسول الله صلي الله عليه وسلم « من تواضع لله رفعه ».

لا يعرف الناس فضيلة تجعل صاحبها حبيبا الى الناس اثيرا لديهم ، كما يعرفون ذلك لفضيلة التواضع . . ولذلك كان

اسلافنا الصالحون حرصاء اشد الحرص على ان يطاردوا بكل ما يستطيعون رذيلة الكبر في صدورهم التماسا لرضوان الناس وحسن ثواب الله .

وليس كل احد قادرا على قهر شهوة الكبر بين جنبيه الا ان يمنحه الله من عونه وتأييده ما يستطيع به الانتصار على نفسه ، والانتصار على النفس هو اصعب ضروب الانتصار على الاطلاق .

واكثر الذين حرصوا على تحصيل فضيلة التواضع وتجنب رذيلة الكبر كانت لهم وسائل ميسورة ، غير ان هناك وسيلة لا تكاد تخطر على قلب بشر الا ان يكون صاحب عزمة صارمة وخوف من الله شديد ، وهي الوسيلة التي لجأ اليها امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وليس سواه يستطيع ان يصنع في هذا الباب مثل هذا الصنيع .

كان للمسلمين نداء اذا استمعوا اليه قاموا الى مسجد رسول الله مسارعين .

وذات يوم استمعوا الى المنادي يقول : الصلاة جامعة . فعرفوا ان ثمة أمرا خطيرا يريد ان يتحدث به الى المؤمنين امير المؤمنين ، فنهضوا الى المسجد حتى اذا امتلأ بهم جاء عمر فرقي المنبر والافكار حائمة حوله ، والابصار متطلعة اليه ، ماذا

يريد أن يقول ؟ وأي نازلة دعت أمير المؤمنين أن يجمعهم على غير ميعاد وأن يجيء فيجلس على منبر رسول الله في نظرة خاشعة ورأس منكس وتأمل عميق .

ولم يطل الامر بعمر حتى وقف فحمد الله واثنى عليه وقد كاد الناس يحبسون انفاسهم حتى لا تفوتهم كلمة مما سيقوله امير المؤمنين . وقال عمر : ايها الناس : لقد كنت في الجاهلية ارعى الغنم لخالاتي في قميص لا يجاوز ركبتي ، فاذا اقبل المساء رحت بالغنم فقبض لي قبضات من التمر اتبلغ بهن ماشاء الله . وها أنذا اليوم امير المؤمنين وليس فوق سلطاني سلطان الا لله رب العالمين .

وازدادت الافكار انطلاقا حوله ، والابصار تطلعا اليه . ماذا بعد ذلك ؟

وهم ينتظرون ما وراء ذلك ، ولكن عمر لم يكن يريد شيئا وراء الذي قال ، فنزل عن المنبر . .

لم يقل سوى هذه الكلمات التي استمع اليها الناس ، وكان استعجابهم منها اعظم من اعجابهم بها ، ولم يجرؤ واحد منهم ان يسأل عمر عما قال ، ولا لماذا قال ما قال . . الا عبد الرحمن بن عوف من السابقين الى الاسلام ، فقام اليه يقول له :

ما هذا الذي صنعته بنفسك يا أمير المؤمنين ؟. انك لم تزد على أن حقرت لنا نفسك .

فالتفت اليه عمر في رزانة المؤمن الواثق بحسن تصرفه وبأنه انما يتفيأ رضوان الله ، ولا يبالي امر الناس . ثم قال : يا ابن عوف . لقد رأيت نفسي تكاد تجمح بي الى آفاق بعيدة فيها هلاك الدين ، فأحببت ان اذكرها بما كانت فيه وبما صارت اليه فقلت ما سمعتم .

هذا لون من مراقبة الانسان الكبير نفسه لا يقدر عليه ولا يجد السبيل إليه إلاّ مثل عمر ، ممن آمن بالله اوثق الايمان ، وخشى الله اعظم الخشية ، ونظر الى الدنيا بكل ما فيها ومن فيها على انها طريق الى رضوان الله ، ومطية الى حياة خالدة لا يزول نعيمها ولا يبلى جديدها . والمعصوم من عصم الله .

النبوة

القهقهة

كان رسول الله ﷺ يضحك مما يضحك منه الناس ، وكان جل ضحكة التبسم حتى تبدو نواجده ، وربما ذكر الناس عنه أن كثرة الضحك تميت القلب .

هذا الحديث أصل يرجع إلى الأخذ به والتأدب بأدبه الكبار

والقادة وأهل الوقار فهؤلاء جميعلاً لا يليق بهم الاغراق في الضحك حتى يبلغ بهم درجة القهقهة التي تكون عادة عند الذين تستخفهم الملحة أو النكتة أو النادرة ، والخفة مما يستعصم منه الكبار في كل زمان ومكان . .

وليس يستطيع المرء مجاوزة هذه الصورة دون ان يتمثل ما قرره فقهاء الحنفية من ان القهقهة في الصلاة تبطل الصلاة . وتفسد الوضوء مما . فيسائل المرء نفسه او جلساءه او الحنفيين من اهل العلم عن العلاقة بين القهقهة وبين فساد الوضوء . . فان من الميسور تعليل فساد الصلاة بانها سوء ادب بين يدي الله . ولهذا بطلت بالقهقهة . ولو ان بطلان المقاصد كان مفسدا للوسائل لامكن قسور انتقاض الوضوء في يسر وسهولة من حيث كان الوضوء وسيلة الى الصلاة . . فلما بطلت الصلاة فسد الوضوء . . ولكن احدا لم يقرر ـ فيما نعلم ـ ان بطلان المقاصد مفسد للوسائل . .

الصوم في غير رمضان

قال رسول الله ﷺ « لا تصوم المرأة ـ وزوجها شاهد ـ يوما من غير رمضان الا باذنه »

اول ما ينبغي التنبه له ، والتنبيه اليه هو كلمة : « شاهد » في هذا الحديث فان معناها حيث وردت في كلام فصيح هو الحضور وعدم الغياب .

وعلى هذا يكون معنى الحديث ان الزوجة لا يجوز لها شرعا ان تصوم في غير رمضان صيام تتطوع اذا كان زوجها مقيما غير مسافر وحاضرا غير غائب ، مالم يأذن لها زوجها في هذا الصيام .

وعلى هذا المعنى نفسه قول الله تعالى « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » يعني ـ جل ثناؤه ـ ان من حضر مقيما غير مسافر شهر رمضان فعليه ان يصوم فيه ، فليس المراد من شهود الشهر مشاهدته بحاسة البصر كما يفهم هذا كثير من الناس على طريق الخطأ ، فان المريض والمسافر يرى كل منهما الشهر ولا يكلفه الله صيامه فالامر بالصيام راجع الى الحضور بغير سفر والصحة بغير مرض وليس راجعا الى المشاهدة ونهى الرسول المرأة عن صيام التطوع الا بأذن زوجها ، يقويه ويؤيده ما قاله رسول الله في حديث آخر في مجلس له بين اصحابه .

فقد جاءت امرأة شاكية اليه زوجها ـ وكان زوجها في مجلس النبي ـ فقالت : زوجي يمنعني اذا صمت ، وينهرني اذا صليت ، ولا يصلى الصبح حتى تطلع الشمس .

واستمع النبي الى الشكوى كما استمع مجلسه اليها ، وابتدر الزوج يقول : نعم يا رسول الله ، اما قولها انني امنعها اذا صامت فانها تنطلق تصوم وانا رجل شاب واما قولها انني انهرها اذا صلت فانها تقوم الى الصلاة فتطيل القراءة ، واما

قولها انني لا اصلي الصبح حتى تطلع الشمس فاني من قوم قد عرف لنا ذلك فلا نصلي حتى تطلع الشمس .

فقال النبي للزوجة ، لا صيام للمرأة بغير اذن زوجها ، ثم قال لها لو قرأت في صلاتك سورة واحدة قصيرة لكفاك ذلك . ثم قال للرجل واما انت فاذا استيقظت فقم الى الصلاة .

وبهذا يستبين على اوضح وجه ان الاسلام هو دين الفطرة وأن الامر فيه كله قائم على التيسير دون التعسير .

البر . .

قال رسول ﷺ « البر حسن الخلق ».

كل عمل صالح يستجلب حب الناس ورضوان الله يسميه اهل اللغة برا ، فالكلمة اللينة في مواجهة السفهاء بر ، والاغضاءة الكريمة عن تفاهة التافهين بر ، وكل عمل تستقر به في الجماعة السكينة ويسود السلام بر . وقد اعطى الله تعالى نبيه جوامع الكلام فجمع معاني البر في كلمتين « حسن الخلق » .

وهكذا كان ﷺ بعلم اصحابه كلما وجد الى تعليمهم سبيلا ، فهو المعلم ، وهو المربى ، وهو القائد في الجيش ، وهو القاضي في المسجد ، وهو الامام في الصلاة ، وقبل ذلك

كله وبعد ذلك كله هو روح اصحابه الذين كان يحيا بينهم فيحيون به في نعيم مقيم .

وكما كان عليه السلام يعلم بالكلمة تبلغ اعماق نفوس اصحابه فيلتزمون حدودها ، ويتقيدون بمواردها ومصادرها ، كان يعلمهم بالاغضاءة عنهم او التبسم لهم او القيام من مجلسهم ، فكل حركة من حركاته ، وكل سكنة من سكناته ، كانت بينهم ولهم ذات دلالات يقفون عندها ، ويستنتجون منها ، ويتبادرون الى العمل بما تستوجبه وتشير اليه .

فاذا انبسطت اسارير وجهه الشريف لكلمة يقولها قائل اقبلوا عليها واخذوا بها وحرصوا على تردادها . واذا غضب غضبة تغير لها وجهه تجنب الناس كل سبيل اليها ، فكان عليه السلام معلما ومؤدبا بكل قول يقوله وكل خلجة يختلج بها وجهه .

غير ان التأديب والتعليم من طريق القول شيء ومن طريق التزام ما يستوجبه هذا القول شيء اخر ، فليست العبرة بقول قائل يتشدق بما يقول ، ولكن العبرة كل العبرة في التزام يدعوه الى ان يحققها في نفسه قبل ان يدعوهالآخرين الى تحقيقها في نفوسهم . فالقد فالقدوة وحدها هي الطريق الى التربية والتأديب .

وما اكثر ما نرى على وجه الارض امما سيدة في دنيا

الناس ، وليس لها قوانين مكتوبة وانما لها تقاليد يحترمها الكبير وينشأ عليها الصغير ، فالتربية بالقدوة فيها أجدى من التربية بالحديث عنها . .

وقد اجمع الناس من قبلنا على الصدق الصادق في القاعدة المسلمة التي جاء بها القرآن الكريم :

« لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا »، فهذه الاسوة اكرم ثمرا واجمل عاقبة ، وايسر سبيلا واقرب استجابة من التربية والتأديب بالمقالات والخطب والشعارات .

النصيحة

قال رسول الله ﷺ « الدين النصيحة »

يقول العربي : نصح الخياط الثوب ، يعني انه لم يترك فيه فتقا ولا خللا .

فالنصيحة ـ حيثما وردت في كلام فصيح ـ تدور حول الصلاح والاستصلاح ، ولكل باب من ابواب الخير آداب يبلغ المرء برعايتها غايته المنشودة من النصح ، فقد روينا عن الاسلاف ان النصيحة في الملأ فضيحة ، فاذا اردت أن تنصح انسانا يعنيك مرة فلا تبذل له نصحك علانية او خشونة

وفظاظة ، فان ذلك ربما حمله على العناد . والعناد دائما شر مطايا السوء .

ثم ان الناس امام النصح صنفان : فمنهم الكبير الشريف ، ومنهم الصغير الخسيس ، ويمتاز الصنف الاول بحسن الادب في تلقي النصح ، وحسن الاستماع الى بذل النصيحة ، و ويمتاز الصنف الثاني بسوء الادب والتسافه على الناس .

ونضرب لك مثالين يتضح بهما الفرق بين الكبير والصغير ، والشريف والخسيس :

المثال الاول : دخل احد اصحاب النبي على سيدنا معاوية ـ وهو امير المؤمنين ـ فقال له معاوية : ما أنعمنا بك يا ابا فلان ، يعني ما الذي جعلك تسعدنا بزيارتك هذه ؟

فقال صاحب النبي : حديث سمعته من رسول الله وهو يقول : « من ولاة الله شيئا من امور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وفقرهم ، احتجب الله دون حاجته وفقره يوم القيامة » .

واستمع الرجل الكبير الشريف معاوية الى هذه النصيحة الغالية في ادب كريم ، ثم امر بتأسيس ديوان يتلقى شكايات الشعب حتى لا يحتجب الله عنه يوم القيامة .

المثال الثاني : دخل احد اصحاب النبي على عبيد الله بن

زياد ـ وكان حاكم اقليم وليس أمير المؤمنين ـ فقال له : « يا بني سمعت رسول الله يقول : « إن شر الرعاة هم الذين يسرقون رعاياهم سوقاً عنيفاً يبلغ بهم نهاية الجهد » .

فلم يكن من هذا الامير الصغير الخسيس الا ان قال له : اجلس فانما انت من نخالة اصحاب رسول الله .

وخجل الصاحب الكريم رضي الله عنه ثم قال : ان اصحاب النبي لم تكن فيهم نخالة ، انما النخالة بعدهم وفي غيرهم .

ولست ترتاب ـ حفظك الله ـ في أن الناصح دائما رابح لانه قد أدى الذي عليه ، واما المنصوح فانه ربما ظفر بالخير الكثير اذا انتصح واستجاب كما فعل سيدنا معاوية ، وربما باء بالاثم الكبير كما فعل عبيد الله بن زياد .

ابناء الانبياء

هود

بعد حادث الطوفان واستئصال شأفة الوثنية باغراق الكافرين من قوم نوح . لم ينقطع امل الشيطان ولا عمله في اغراء الباقين من ذرية نوح بالوثنية والشرك .

وظهر اثره اول ما ظهر بعد هذا الحادث في قوم عاد ، وكانوا عربا يسكنون الاحقاف ـ وهي جبال مكونة من الرمل المنعقد ـ

باليمن بين عمان وحضرموت . تطل على البحر . وتسمو الشحر .

فبعث الله فيهم هودا رسولا اليهم . يدعوهم الى اخلاص العبادة له ، ويذكرهم بانه لا اله غيره ، (قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك في سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين ، ابلغكم رسالات ربي وانا لكم ناصح امين .

أو عجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم . واذكروا اذا جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا الاءالله لعلكم تفلحون ، قالوا اجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤ نا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين) .

وغرهم ما كانوا عليه من قوة فقالوا : من أشد منا قوة ؟ ولم يذكروا ان الله الذي خلقهم هو اشد منهم قوة ، ولما قال لهم هود (أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . واذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله واطيعون . واتقوا الذي امدكم بما تعلمون . امدكم بانعام وبنين . . وجنات وعيون اني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، فاتقوا الله واطيعون ، قالوا سواء علينا اوعظت ام لم تكن من الواعظين) .

لذلك امسك الله عليهم المطر فاصابهم الجدب ثلاث سنين - كما قيل - وارسل في سمائهم سحابة ظنوها تحمل لهم الخير والغيث ، واستبشروا بمقدمها . وقالوا (هذا عارض ممطرنا). فكان الجواب (بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب اليم ، تدمر كل شيء بامر ربها) . . ثم كان امرهم كما يقول الله : (فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم)

كانت الريح تنتزعهم وتقتلعهم من مساكنهم وتكبهم على وجوههم جثثا هامدة . والسماء تمطرهم بالعذاب . والصواعق تنقض عليهم وظل هذا العقاب كما يقول الله : (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية ايام حسوما فترى القوم فيها صرعى كانهم اعجاز نخل خاوية).

وقد اعتزلهم هود ومن معه من المؤمنين في مكان صانه الله وحماه . كما يقول الله : (ولما جاء امرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ) . .

وبناء البيت

اذا أطلق اسم البيت كان المراد به بيت الله الحرام ، فهو كما يقول الله فيه : « ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين » وقد قرن الله به اليمن والامن واشار اليه بما ينم عن عظمة قدره حيث قال : « فليعبدوا رب هذا البيت الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ».

وقد كان هذا البيت موجوداً قبل ابراهيم بدليل رحلته اليه مع زوجه هاجر . ووليده الوحيد اسماعيل ، ثم تركهما عنده ودعائه عند مغادرته بقوله : « ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ».

ويظهر من قوله تعالى : « وعهدنا إلى إبراهيم واسماعيل آن طهراً يبني للطائفين والعاكفين والركع السجود » وقوله : « وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل » ان عملهما كان تجديداً وإعادة بناء ، ولم يكن بدء إنشاء ، وإن كان بعض المفسرين يرى غير هذا الرأي ويؤول قوله تعالى : « ان أول بيت وضع للناس » . بأنه أول بيت وضع لعموم الناس في تقدير الله وعلمه .

وايا ما كان الرأي فالاتفاق منعقد على ان ابراهيم واسماعيل كانا يرفعان قواعد البيت ويقولان « ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك وارنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم ».

وقد استجاب الله دعاءهما فجعل من ذريتهما أمة مسلمة

ويبعث في هذه الامة رسولا منها اليها والى الناس كافة . فكان كما يقول الله فيه : « هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » وكما يقول الله فيه : « وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ».

كما اراهما مناسك الحج ، واماكن العبادة ، وفرض على الناس حج هذا البيت كما يقول : « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » وجعله قبلة المسلمين في كل صلاة يؤدونها لله كما يفهم من قوله : « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ».

مع الملك

خرج ابراهيم من محنة القائه في النار سالما منتصرا على قومه . كما يقول الله : « وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين »، وعظم امره وخطره حتى هز جوانب الملك فاستدعاه الملك او امر باحضاره اليه .

وكان قد طغى وبلغ به الطغيان ذروة التكبر والتجبر فادعى لنفسه الربوبية ، فلما احضر اليه ابراهيم سأله عن ربه . فقال : « ربى الذي يحيي ويميت ».

قال الملك : انا احيي واميت ، ويذكر بعض المفسرين انه

امر باحضار رجلين حكم عليهما بالقتل فعفا عن احدهما وقتل الآخر ، وقال : انا أمت هذا واحييت ذاك .

ورأى ابراهيم في ذلك المنطق مغالطة قد تنطلى على السامعين والحاضرين ممن تاثروا بقدرة الملك ، ودانوا له بالخضوع والطاعة فلجأ الى دليل اخر يفحمه ، ويقطع عليه طريق المغالطة والادعاء . وقال : « ان الله ياتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ».

فالشمس مسخرة محكومة بنظام وهي تطلع كل يوم من المشرق . وتسير في فلك لا تحيد عنه ، فان كنت ـ كما تزعم ـ قادرا لا تعجز حكيما لا تخطىء ، حقيقا بان تدعى ربا او الها . فأت بها من المغرب بدل المشرق وانشىء لها نظاما اخر يدل عليك ، ويظهر قدرتك . . . ؟

ولم يجد الطاغية جوابا لهذا السؤال ، ولا قدرة على مواجهة هذا التحدي الا الصمت والحيرة كما يقول الله : « فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ».

اما ابراهيم عليه السلام ، فقد رأى ان يهاجر من هذه الارض مع زوجه ، وابن اخيه لوط . الى ارض اخرى يجد فيها متنفسا لدعوته . ووجهته الحجاز كما جاء في القرآن الكريم « وقال أني ذاهب إلى ربي سيهدين » .

الاعتقاد

سلامة القلب شرط لسلامة الاعتقاد (اذا جاء ربه بقلب سليم) والقلب في لغة القرآن الكريم ، ولغة العرب قبل ان تسرى إليها ظنون الشعوب غير العربية بسوء الاستعمال يعني اللب ، ويعني جهاز العلم والفقه ، فالقلب مصدر الايمان النابع من العلم والعقل وفي هذا يقول الله (لهم قلوب لا يفقهون بها) ويقول (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) ويقول (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) .
لهذا فان المؤمنين على عهد الرسول الكريم لم يسألوه وقد امنوا بقلب سليم ـ الا القلة التي كشف الله نفاقها ـ عما لا قدرة للعقل بتحديد بعد ان آمن القلب ، وآمنت النفس ونشطت الحواس والايدي والابصار للعمل في سبيل الله .

ولهذا ـ من منطلق اليقين ـ خمدت في حياة المسلمين الاولى الواعية بالهدى ، والمتدبرة للقرآن والذكية باللغة كل فلسفات الظن ، ووساوس الفضول ، وانتصرت كلمة الله بهم ولم تهن ، وازدادت عرى وحدتهم ولم تنفك .

لقد نشطوا لعمل كثير دعا الله اليه . . نشطوا لتحرير اخوانهم في الشام والعراق واليمن ومصر . ولتقديم صورة الايمان مجسدة . ولاسقاط ربوبية البشر حتى ولو كان

قسطنطين الاعظم . او هرقل . . لكي تكون الربوبية حقا لله وحده .

كانت اجسادهم على قوتها دون نشاط انفسهم المؤمنة . . النفس قوية . . . والجسد محدود . . لذلك عملوا حتى الموت . . حتى الاستشهاد بغير حد !

لذلك لم ينشأ فيهم سفهاء علم الجدل والكلام . . ولا أولئك الذين قالوا بفلسفاتهم وهم يمنون على الله اسلامهم (لقد آمنا بك . . فقل لنا من انت . . من انت يا رب . . حتى نعمل بما امرت) واذا لم يقل الله لهم من هو لانهم لم يعرفوه ولم يبصروه بالعقل . . فقد حاولوا ان يعرفوه بالجدل . . بالفلسفة على الورق !

المنافقون

ليس النفاق دينا او مذهبا ، ولكنه الحال الذي يظهر فيه شكل الدين او المذهب بينما يختفي مضمونه . لذلك كان النفاق قناعا زائفا من الايمان الذي يخفى وراءه فتنة الكفر والشك . .

ولذلك فالنفاق في خطره الذي هو اشد من خطر المجاهرة بالكفر هو موقف احباط خفي داخل جماعة المؤمنين يستوجب الحذر والتقصي والتعقب لانه المنبع الذي لا يراه احد لتكاثر

جميع الخلافات في الرأي ، والتشكيكات في العقيدة ومذاهب الابتداع المتنوعة التي تقوض وتفك وحدة الامة حول دينها الحق .

المنافقون هم اذن المعترضون الذين يتحركون في الظلام ليتاح لهم اكبر قدر من حرية الحركة لترويج الآراء الخلافية ، والافكار الهدامة فالمنافقون اخوان الكفار يصارحونهم بالولاء وفي هذا يقول الله : « ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا ».

والمنافقون يلبسون الأقنعة على نفاقهم وهم يظهرون الايمان وفي هذا يقول الله : « ومن اهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم ».

والمنافقون يحاولون ان يخدعوا الله عن نشاطهم الخفي لهدم دعوته وفي هذا يقول عنهم : « ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ».

لذلك فان امرهم لا يلبث ان ينكشف ، واقنعتهم تتمزق ، ويأمر الله رسوله بقتالهم في قوله : « يا ايها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ».

لقد عاش المنافقون يرون ان « الظاهر » قياسا على انفسهم هو خلاف « الباطن »، وهكذا عندما اتيحت فرصة اخرى

لظهور المنافقين في الدولة الاسلامية الكبيرة ـ بعد الخلفاء الراشدين ـ برزت تلك الفرق الباطنية التي تؤسس بتأويل الظاهر في آيات القرآن تأويلا باطنيا مذاهب عديدة تخالف الشرع وتوافق النفاق !

الجبرية

من قبيل القول في القدر ، والزيغ به ما قالت به « الجبرية » التي نزعت الى نفي الفعل عن ارادة الانسان واحالته على الله ، فالانسان عندهم لا يوصف بالاستطاعة والقدرة والارادة ، وانما هو في نظرهم « مجبور في افعاله ».

مثل هذا القول فتنة لانه ينتهي الى ان الانسان (مجبور على المعاصي) وهذا اقبح ما يقال في حق الله الذي يدعو الى الهدى ، ويثيب عليه . .

وقد كان أول شيوع هذه الفتنة في أقوال « الجبرية » في أول العصر الاموي ثم نفخ فيها اهل الزيغ والمجادلة من اعداء الامة واعداء الله حتى صارت مذهبا في اخر عصر الامويين .

ومما يروى في حظر هذا المعتقد على الايمان السليم ما ذكر من الكلام عبد الله بن عباس يخاطب به جبرية أهل الشام وهو يقول لهم : « أما بعد أتأمرون الناس بالتقوى وبكم ضل

المتقون ، وتنهون الناس عن المعاصي وبكم ظهر العاصون ، يا ابناء سلف المنافقين ، واعوان الظالمين ، هل منكم الا مفتر على الله ، يجعل اجرامه عليه سبحانه ، وينسبه علانية اليه ».

وفي تاريخ ظهور هذه النحلة الغاوية تظهر اصابع اليهود ، فقد تبين في اشهر الاقوال ان اول من دعا بذلك القول بين االمسلمين في العصر الاموي هو « الجعد بن درهم » الذي تلقاه عن يهودي بالشام هو « ابان ابن سمعان » وان أبان هذا قد تلقاه عن طالوت بن اعصم اليهودي ايضا وان الجعد قد نشر هذا بالبصرة ، وان ابرز من تلقوه عنه كان الجهم بن صفوان .

واذا كان مصدر هذا المذهب يهوديا فقد كان زعيمه الذي نشط به وهو الجهم بن صفوان خراسانيا ، اتخذ خراسان ميدانا لدعوته ، فلما قتل اتخذ أتباعه من نهاوند مركزاً لنشاطهم وقد ظل هذا المذهب سائدا هناك حتى تغلب عليه مذهب اخر هو مذهب ابو منصور الماتريدي . . .

لم يكن القول بالجبر هو وحده كلام الجهم وتفلسفه في دعوته بل قال باشياء غريبة اخرى زعم فيها ان الجنة والنار تفنيان ، وان الخلود المذكور في القرآن هو طول البقاء والمكث ثم ياتي بعده الفناء . .

ولذا تقدم السابقون واللاحقون بالرد على هذه النحلة ودحضها كثير من الفقهاء واهل الحديث .

القدرية

كما غالى « الجبرية » في قولهم بنفى العقل تماما عن الانسان جاء « القدرية » معهم - فيما اصاب المسلمين من عمل اعدائهم فقالوا بنفى الفعل تماما عن الله . فالارادة والقدرة والفعل كلها في زعمهم للانسان . بل انهم بهذا اعطوا للانسان سلطانا على القدر ، ونفوه عن الله العالم الازلي

ولقد سماهم الناس « القدرية » مع انهم ينفون القدر عن الله ، فقيل ان ذلك من قبيل تسمية الاشياء باضدادها ، وقيل بل ان مخالفيهم سموهم بذلك لينطبق ما ورد عنهم في الاثر « القدرية مجوس هذه الامة ».

وقد كان اول ظهور هذه النحلة في البصرة . . ظهرت كما ظهر غيرها في مضطرب الافكار ، وسوق البيع للاخرة ، والشراء للدنيا . .

وقيل ان اول من صاغ لهذا القول شكلا هو معبد الجهني وغيلان الدمشقي اللذان اخذا هذا القول من رجل من غير المسلمين في العراق وهكذا حمل أوزار هذه الدعوة في العراق معبد الجهني ، وحملها في الشام غيلان .

ولقد بلغ من مغالاة غيلان بنفسه ان كتب الى الخليفة الاموي العادل عمر بن عبد العزيز يدعوه الى مذهبه في رسالة

حماسية جوفاء فاستدعاه عمر بن عبد العزيز وناقشه فيما يدعيه وقطع حجته ، حتى وعد ان يرجع عن كل ما قال به ويروى في هذا انه قال لعمر بن عبد العزيز بعد ان بهته برهان الحق « يا امير المؤمنين .. لقد جئتك ضالا فهديتني ، واعمى فبصرتني ، وجاهلا فعلمتني ، والله لا اتكلم في شيء من هذا الامر ».

ولكن غيلان القدرى يعود بعد موت عمر بن عبد العزيز الى نفس نشاطه الاول فياتي به هشام ابن عبد الملك في عهده ، يقطع حجته في مناظرة مشهورة مع فقيه الشام الامام الأوزاعي وبذلك ملك الحجة لقتله .

ولكن المذهب لم يمت بموت غيلان بل رجع عند بعض اتباعه الى ما يشبه جذوره الاولى وهي « الثنوية » التي تجعل العالم محكوما بقوتين النور والظلمة ، والتي تنسب لله فعل الخير ولانفسهم فعل الشر بغير ارادة .. كما زعموا .

الانصار

اذا كانت الهجرة على الجهاد في سبيل الله قد منحت المهاجرين الدرجة العظمى في الايمان بالله ورسوله فان النصرة لله ورسوله تأتي لاولئك الذين « أووا ونصروا » في المدينة بدرجة السابقين الى الله بعد المهاجرين ليكونوا معهم عماد

الدعوة ، وطلائع الحق والنصر فالله يقول « والذين اووا ونصروا اولئك هم المؤمنون حقا » ويقول : « والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار . . ».

فالنصرة لرسول الله ، وقبل ذلك لكل الانبياء ، هي الواجب العام على كل المؤمنين ، اولئك الذين لا يصح قولهم بالايمان الا اذا نشطوا الى نصرة الله ورسوله بكل ما يملكون من مال ونفس ، والله يقول : « يا ايها الذين آمنوا كونوا انصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من انصارى الى الله قال الحواريون نحن انصار الله ».

والهجرة في حد ذاتها هي نصرة لله ورسوله ، ولكنها في مقام العمل الصالح ، والجهاد الصادق تاتي في القمة من جهد هذا الانتصار لله ورسوله والحق الذي دعا اليه .

ولقد فاز المهاجرون الى المدينة من قريش بهذه الدرجة ، وكان وراءهم على السبق انصار المدينة من الأوس والخزرج ، أولئك الذين بايعوا رسول الله ـ قبل الهجرة ـ بيعة العقبة الاولى في خفية من قريش في احد مواسم الحج والذين بايعوه في العام الذي يلي ذلك بيعة العقبة الكبرى التي عاهدوا لله فيها ان يمنعوا النبي مما يمنعون منه نساءهم وابناءهم . . وعلى الا يسلموا رسول الله اي لا يخذلوه ويدعوه لاعدائه مهما بلغ من شدة الحرب عنه وعن دعوته الى الله من خسارة الاموال وقتل القادة منهم والرجال . .

كانت هذه البيعة مع قادة الأوس والخزرج وشيوخهما اول عزة المؤمنين ، واول انفتاح الطريق الى الهجرة ، واول الخطى في تلك المسيرة العظيمة التي انتهت الى فتح مكة وسقوط راية الشرك ، بعد ان انتهت الى وحدة الاوس والخزرج ، وسقوط حصون اليهود وسكون رياح الفتنة التي هبت طويلا منهم على العرب ليقتلوا ويتمزقوا ويذلوا . .

واذا أتم الله على نبيه فتح مكة ، وتطهير بيت الله ، والعفو عن عشيرته . . كان على الانصار ان ينظروا اليه وقد ازفت عودتهم « ايعودون بالنبي ام يؤثر الوطن الاول » . . . ولكن الرسول يقول لانصار الله في اعظم وفاء لهم « معاذ الله . . . المحيا محياكم . . . والممات مماتكم » .

المعتزلة

نشأ المعتزلة في العصر الأموي ولكن أبرز ما يروى عنهم وما شغلوا به الفكر الاسلامي كان في العصر العباسي فإليهم يعزى تأييد القول بخلق القرآن ، وما تعرض له بعض أئمة الفقهاء ، وأهل السنة والحديث وعلى رأسهم أحمد بن حنبل من تنكيل المأمون وإيذائه .

وأكثر المؤرخين للفكر الاسلامي على أن رأس المعتزلة هو « واصل إبن عطاء » وانه كان ممن يحضرون مجلس « الحسن البصري » لمذاكرة العلم فثارت مسألة الحكم على من يرتكب

« الكبيرة » أمؤمن هو أو كافر . . قال واصل بخلاف رأي الحسن « ليس بمؤمن مطلقاً ، بل هو في منزلة بين المنزلتين » يعني بين الايمان والكفر . . ثم اعتزل مجلس الحسن ، واتخذ له حلقة أخرى في المسجد .

فهل استطاع المعتزلة على طول ما شغلوا المسلمين وأضجروهم بالكلام أن يسموا لهم هذه « المنزلة بين المنزلتين » ؟ . . وإن يقربوهم إلى فهمها ؟ . .

لم يفعلوا . . بل ساروا على ترفعهم واعتزالهم الجماعة ، وجعلوا الايمان برأيهم عن هذه « المنزلة بين المنزلتين » أصلاً من أصول مذهبهم الخمسة ، أي مع التوحيد والعدل ، والوعد ، والوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر !

ولكن بعض العلماء لهم في تسميتهم بالمعتزلة قول آخر . فقد ذكر المقريزي في خططه أنه كان منتشراً في عصر ظهور المعتزلة طائفة من اليهود اسمهم « الفروشيم » ومعنى ذلك « المعتزلة » . . وإن هذه الطائفة تشبه في بعض أقوالها أقوال المعتزلة ، فلا يبعد أن يكون بعض من أسلموا من اليهود قد أطلقوا هذا الاسم عليهم لوجوه الشبه .

ولقد كان حقاً أن أوجه الشبه بين الطائفتين أن معتزلة اليهود كانوا يفسرون التوراة على مقتضى منطق الفلاسفة ، وكان

المعتزلون كذلك يتناولون كل ما في القرآن من أوصاف على مقتضى منطق الفلاسفة .

ما كان المعتزلة ليذكرهم أحد هذا الذكر لولا ما التصق بهم في تاريخ المفكرين الاسلاميين من قولهم بخلق القرآن ودعوتهم لمن تتلمذوا عليهم من خلفاء العباسيين أن يخرجوا من الاسلام من لم يقل بخلق القرآن مثلهم ، وأن يقتلوه بالسيف .

فهؤلاء الذين كان أول أمرهم أن يجعلوا مرتكب الكبيرة « في منزلة بين المنزلتين » وسوسوا للخليفة المأمون ـ بعد أن ساعدهم بتقريبه لهم وتتلمذه عليهم ـ ليجعل القول بأن القرآن كلام الله ، كما هو بنص القرآن ، إنكار أن القرآن مخلوق فليس بكلام الله عملاً فوق الكبيرة يستحق محنة السيف .

بدأ الخوض في مسألة « خلق القرآن » في عهد الرشيد ، ولكن الرشيد لم يقبل ذلك ، ومنع الجدل في العقائد .

ثم جاء المأمون فجعل أكثر حاشيته منهم ، وكان يكرمهم ويبالغ في إكرامهم ، ولكنه لم يتدخل في حرية اعتقاد الناس حتى كان عام ٢١٢ هجرية وكان زعماء المعتزلة قد نجحوا في أن يزينوا له اعلان القول بخلق القرآن . فأعلنه وفتح مجال المناظرات عليه في مجلسه ، وكان هو يناظر فيه ويدلي بحجته ، فكان ذلك أول إشارة إلى قيام الأمير العباسي نصير المعتزلة بقيادة فعلية لأخطر

آرائهم وهو إنكار أن القرآن كلام الله ، لأن الله لا يتكلم فالقرآن مخلوق .

ثم تصاعد الأمر حتى كنت سنة ٢١٨ هجرية التي بدأ فيها للمأمون بوسوسة المعتزلة أن يعلن تدخل الدولة في شأن كل من لم يؤمن بخلق القرآن .

ثم كانت المحنة العظمى للامام الورع الباسل ، الأسوة في صدق إيمانه ، أحمد بن حنبل الذي سيق مع ثلاثة من الفقهاء لعرضهم على السيف أو يرجعوا عن إصرارهم على رفض بدعة خلق القرآن .

أما الأول فضعف أمام المسألة والاستجواب وأقر لهم فأطلقوه من قيوده ، وفي اليوم الثاني ضعف ثالث الثلاثة فأطلقوه ، وبقي اثنان سيقا في الحديد إلى المأمون في طرطوس ، أما احدهما وهو محمد إبن نوع فقد استشهد في الطريق ، وأما الآخر وهو أحمد بن حنبل فقد بقي على إيمانه الثابت ومع ذلك أطلقوه إلى حين . . فقد مات المأمون ! .

القدر

قبل الاسلام كانت الوثنيات القديمة تتكلم في القدر وتجادل فيه . وفي سقطة المجتمع البشري عن مرتبة الايمان السليم اصبح الجدل سمة المتكلمين في الدين وتجارتهم قبل الاسلام .

وعندما ضعف سلطان الدولة الرومانية الغربية وانقسمت الى شرقية وغربية بدأ شكل التحلل يأخذ ظواهر هذه المباحث السفسطائية التي يتلاعب فيها المنطق الخادع بالعقول ، ولم تشذ المجوسية وراء نهر الفرات عن ذلك . .

ووصل القول بالقدر والادعاء والتنصل من المسؤولية عن الأعمال أمام الله إلى بعض المشركين من العرب الذين جاسوا بتجارتهم وقوافلهم خلال العالم القديم كله وحيث كانت لقريش رحلة شتاء إلى الشام الخاضع للروم ، ورحلة الصيف إلى اليمن الخاضع للفرس ويقص علينا القرآن الكريم جدل المشركين عن أنفسهم في تبرير شركهم حيث يقول الله .

« سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما اشركنا نحن ولا آباؤ نا ولا حرمنا من دونه من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا » .

ويمثل هذا الاعتذار الخادع لا يزال يتكلم حتى اليوم اولئك الذين يركنون في تبرير ذنوبهم الى القول بجبرية القدر .

ولكن الرسول صلى ﷺ أوضح ان الايمان بالله يعني الايمان بالقدر « خيره وشره » والذي هو خير كله وان بدا للبعض ان بعضه خير وبعضه شر . . ثم نهى عن الخوض فيه .

الا ان المناقشات والمجادلات نشطت مرة اخرى بعد ان اختلط المسلمون العرب بغيرهم من الشعوب غير العربية التي

لم تلبث ان تحركت مع الزمن اسئلتها ووساوس دياناتها القديمة ، فكان ذلك مبعثا لعديد من الفرق الاسلامية . . . . والوان من الجدل والكلام . .

لقد بدأ الجدل حول القدر والخلاف فيه حتى ظن فريق من هذه الفرق ان الايمان بالقدر يمنع من التدبير ومن الحذر ومن استعمال العقل . وهي قضية اجاب عنها عمر بن الخطاب جوابا حاسما شافيا حين امتنع عن الدخول الى مدينة بها طاعون فقيل له « افرارا من قدر الله » . . فقال « انما نفر من قدر الله الى قدر الله » !

المهاجرون

لم يعرف الاسلام الطبقة ـ في دعوة القرآن ـ وهي الجماعة المتميزة في المجتمع بمصالحها التي تتناقض مع طبقة اخرى في المجتمع نفسه وتخضع لها . . ولكنه عرف « الدرجة » التي لا تعني الا امتيازا بالعمل ، وسبقا الى الجهد والجهاد والفداء في سبيل مصلحة الجميع ، في مجتمع يقوم بالايمان على اساس العلاقات المتساوية بين افراده وليس العلاقات المتناقضة .

ومنذ هاجر الرسول الكريم وصاحبه ابو بكر « ثاني اثنين اذ هما في الغار » وقد اصبحت الهجرة الى الله ورسوله ، والجهاد

في سبيل الله بالمال والنفس لبناء دار المسلمين الاولى ، ومجتمع المؤمنين الاول ـ درجة فوق ما يليها من درجات الايمان والمؤمنين . . وفي هذا يقول الله : « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله باموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله ».

وهذه الدرجة هي بسبب احتمالهم مع الجهاد بالنفس والمال معاناة ترك الاوطان والاهل والاحباب والاموال في سبيل الله وذلك اسوة بالمثال المرفوع امام جميع المسلمين في هجرة ابراهيم الذي يقول الله عنه : « وقال اني مهاجر الى ربي انه هو العزيز الحكيم ».

وامتثالا كذلك لامر الله الذي لا يغفر للمستضعفين خطيئة الكفر ما دامت الهجرة والفرار الى الله في وسعهم وذلك في قوله : « قالوا الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها ».

وقوله : ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله . .

لذلك فالذين آمنوا في مكة قبل الفتح ولم يهاجروا كانوا اقل درجة ، وقد منع الله المؤمنين من ولايتهم في قوله : « والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ».

ولذلك فانه في يوم السقيفة بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام عندما اختلط الامر على المؤمنين في شأن الخلافة من بعده وقف عمر فقال « اسلمنا قبلكم ، وقدمنا في القرآن عليكم ، والعرب لا تعرف هذا الامر الا لهذا الحي من قريش ، فمنا الامراء ومنكم الوزراء » أقر الانصار قوله ، وغاضت الفتنة ، وتمت البيعة لابي بكر .

المؤمنون

المؤمنون هم عامة المصدقين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر من غير خلاف فيما امر الله به من طاعته وطاعة رسوله .

فالمؤمنون هم الذين علموا يقينا ان الله احياهم بالايمان من موات الكفر ، وانه جعل لهم اذ اخرجهم من الظلمات نورا يمشون به في الناس ، فليسوا كمن افتقدوا الايمان السليم في ظلمات يتتابع بعضها فوق بعض بلا نهاية .

لذلك فانهم اذا استمعوا الى الآيات المحكمات في القرآن الكريم آمنوا بها قولا وعملا ، فاذا وردوا المتشابه من آياته لم تزغ قلوبهم ، فيتبعوا المتشابه بالتأويل ابتغاء الفتنة به والخلاف ، بل كانوا الراسخين في العلم بصدق ايمانهم اذ يدركون ان المتشابه لا يتناقض بداهة مع المحكم ، ولذلك فانهم « يقولون آمنا به كل من عند ربنا » .

ولذلك ايضا فانهم هم الذين آمنوا اقتداء بايمان الرسول واستقاموا معه كما امر الله : « فاستقم كما امرت ومن تاب معك ولا تطغوا ».

ولذلك فانهم في شدقهم وتورعهم وتطهرهم لم يوالوا الذين ظلموا ولم يركنوا اليهم في خلافاتهم على الدين الحق ، وتأويلاتهم لشريعة الله وكتابه فسمعوا لامره في قوله : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار » . . .

ولذلك فقد حفظوا انفسهم بان يكونوا اولياء بعضهم البعض ، فلا يغفلوا فيما بينهم عن مداومة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام على طاعة الله وعبادته كما رأوا رسول الله يفعل وذلك في قوله : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ».

ولذلك فهم اصدق الناس تقربا الى الله بطول العبادة واخلاص الخضوع فيها له كما يصفهم في قوله عن عباد الرحمن : « والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ».

ولذلك اخيرا فانه ليس للشيطان عليهم من سلطان ».

كما وعد الله « ان عبادي ليس لك عليهم سلطان ».

المؤلفة قلوبهم

المؤلفة قلوبهم جماعة يراد جمع قلوبهم على الاسلام وتبتغي هدايتهم او تثبيت ايمانهم وتدعيم اسلامهم لانهم في الغالب يكونون حديثي عهد بالاسلام ويخشى عليهم من الشيطان وما يوسوس به لهم . او هم اناس يخشى شرهم على المسلمين فيعطوا من الزكاة لكف شرهم .

وقد قسم الفقهاء المؤلفة قلوبهم الذين يستحقون الصدقة الى مسلمين وكفار وجعلوا المسلمين منهم اربعة اقسام والكفار قسمين :
والمؤلفة قلوبهم من المسلمين هم :

١ ـ قوم من سادة المسلمين مع حسن اسلامهم اعطوا لمكانتهم في قومهم .

٢ ـ زعماء ضعفاء الايمان من المسلمين مطاعون في اقوامهم يرجى باعطائهم تقوية ايمانهم وضمان اخلاصهم كالذين اعطاهم الرسول من غنائم هوازن وهم طلقاء .

٣ ـ قوم من المسلمين في الثغور يدافعون عن الاسلام والمسلمين .

٤ ـ قوم من المسلمين يحتاج اليهم لجباية الزكاة ، واخذها ممن لا يعطيها ، الا بنفوذهم وتاثيرهم ـ الا أن يقاتلوا ـ فيختار بتأليفهم المساعدة على تحقيق الصالح العام
اما الكفار فهما :

١ ـ من يرجى ايمانهم بتأليفهم كصنوان بن امية الذي امنه الرسول يوم الفتح واعطاه ابلا كثيرة محملة وامهله اربعة اشهر .

٢ ـ ٢ ـ من يخشى شره فيرجى باعطائه كف الاذى وفي ذلك قال ابن عباس : ان قوما كانوا يأتون النبي فان اعطاهم مدحوا الاسلام ، وقالوا هذا دين حسن ، وان منعهم ذموا ، وعابوا .

ويرى الاحناف ان سهم المؤلفة قلوبهم قد سقط باعزاز الله لدينه ـ واجاز البعض التأليف عند الحاجة ويقول الشافعي : لا تتألف كافرا ، فاما الفاسق فيعطى من سهم التاليف .

اهل البيت

البيت في القرآن الكريم هو بيت الله الذي اقام قواعده بامر الله ابراهيم واسماعيل عند مكة ، بعد هجرة ابراهيم وبلوغ اسماعيل ليكون (مثابة للناس وامنا) ومحجا لمن استطاع من المسلمين .

فأهل البيت هم ابناء اسماعيل الذين عاشوا في اسباطهم وعشائرهم من حوله ، حتى كانت قريش التي الفها الله للدين ، وحتى ظهر من قريش خاتم النبيين محمد ﷺ الذي نزل عليه القرآن المبين ، وانتصر به الدين الحق .

يقول الله في تاليف قريش « فليعبدوا رب هذا البيت . . . » ويقول الله في بناء البيت : « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل . . » .

ويقول في دعاء ابراهيم واسماعيل بظهور محمد ليهدى قومه حول البيت : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم »

ويقول في دعاء ابراهيم لمكة البلد الامين بعد بناء البيت : « واذا قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبنى ان نعبد الاصنام ».

ويقول في ان ابراهيم وذريته من المؤمنين هم اهل البيت عندما تعجبت زوج ابراهيم من ان تلد وهي عجوز : « قالوا اتعجبين من امر الله رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت ».

ويقول فيما دعا به نساء النبي ـ بعد هجرة الرسول الى المدينة ـ الى ما كرمهن به وما هو اوجب لهن وهن الذرية المؤمنة لاسماعيل وابراهيم ، وازواج خاتم النبيين الذي هو

خاتم المصطفين من ذريتها فلا يليق بهن ما نزع إليه النساء في الجاهلية ، وكان بعضه فاشياً في المدينة قبل ظهور الدين وأكتماله : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

لهذا فانه بعد وفاة الرسول الكريم استقر الرأي بعد مؤتمر السقيفة على ان يكون الامر للمهاجرين اي لقريش ذرية اسماعيل التي عاشت في سدانة البيت نحو ستة وعشرين قرنا ولم يكن ذلك للانصار . .

ولهذا ايضا فانه عندما انشقت الوحدة ودب الخلاف بين قريش ـ قبل غيرها ـ على الخلافة ، ونشطت المنافسة العشائرية القديمة بين بيتي هاشم وامية مال الذين لم يتعصبوا للعروبة وظنوا انهم يتعصبون للدين الى ان يعطوا هذا الشرف . . شرف الخلافة عن رسول الله الى ذرية النبي الخاصة من ابنته الزهراء وابن عمه الامام علي وسموهم هذه المرة « آل البيت » . . وبذلك يبقى هذا الشرف للذرية المؤمنة من أبناء اسماعيل وإبراهيم .

شروط عمر . . للموظفين

روى ابو يوسف ـ صاحب ابي حنيفة ـ رضي الله عنهما ـ ان عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، كان اذا استعمل رجلا ،

أشهد عليه رهطا من الانصار ، وغيرهم ، واشترط عليه شروطا : الا يركب برذونا ، ولا يلبس ثوبا رقيقا ، ولا يأكل نقيا ، ولا يغلق بابا دون حوائج الناس ، ولا يتخذ حاجبا .

قال : فبينا عمر يمشي في بعض طرق المدينة اذ هتف به رجل : يا عمر : اترى هذه الشروط تنجيك من الله ، وعاملك « عياض بن غنم » على مصر ، وقد لبس الرقيق واتخذ الحاجب ؟

فدعا عمر محمد بن مسلمة ، وكان رسوله الى عماله ، فبعثه الى عياض . وقال له : آتني به على الحال التي تجده عليها . . فاتاه محمد بن مسلمة ، فوجد على بابه حاجبا ، فقال : اجب امير المؤمنين .

فقال : دعني حتى أطرح على قبائي .

فقال : لا ، الا على حالك هذه !

فقدم به على عمر ، فلما رآه ، قال : انزع قميصك ، ودعا بمدرعة صوف ، وبقطيع ، من غنم ، وعصا ، وقال له : البس هذه المدرعة ، وخذ هذه العصا ، وارع هذه الغنم . واشرب ، واسق من مر بك ، واحفظ الفضل علينا . . . أسمعت ؟

قال : نعم والموت خير من هذا !!

فجعل عمر يرددها عليه ، وهو يردد : الموت خير من هذا . .

فقال عمر : ولم تكره هذا ، وانما سمى أبوك غنما لانه كان يرعى الغنم ؟ اترى عندك خبر ؟

قال : نعم يا امير المؤمنين !

قال : انزع !

ورده الى عمله . . فلمْ يكن له عامل يشبهه !!

خواطر رمضانية

سلام هي . . حتى مطلع الفجر

القرآن الكريم هو دستور الخالق لاصلاح الخلق وقانون السماء هداية لهداية الارض ، اليه ينتهي كل تشريع ولذلك جعل الله ليلة نزوله ذات شرف وقدر وعظمة ، وجلال ، لانها اكتسبت تلك الفضائل من ذلك الكتاب الحكيم الذي يرشد الضال ، ويهدي المنحرف ، ويقوم المعوج ، ويضع موازين الحق ، ويرسم معالم الحرية ويثبت دعائم العدل ، ويكفل للانسان معنى الانسانية .

وليلة القدر هي الليلة المباركة التي بدأ فيها نزول أول شذرة قرآنية . . وأول فيض من ربك غيث الرحمة الالهية (إقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذي علّم بالقلم علّم الانسان ما لم يعلم) . بالدعوة الصريحة إلى طرق أبواب العلوم والمعرفة ، وتحطيم أسوار الجهالة والتخلف والاستضاءة بنور هذا الكتاب الهادي لتحقيق وسائل السعادة للبشر . وتطبيق مبادىء الحق وقيمه في هذا الوجود .

وهذه الليلة التي جعلها الله سبحانه وتعالى خيرا من الف شهر يطلب من المسلم فيها ان يسلم نفسه الى خالقه . . وان يشغلها بالذكر والدعا والضراعة والعبادة . . وان يشكر الله على نعمة الظاهرة والباطنة . وأن يلوذ بكنف الله . ويحتمي بحماه وان يطلب منه نصر أوليائه على اعدائه . . . فهي ليلة قبول واجابه . . . وموسم توبة وانابةً . . وهي ليلة أمن ورحمة ومغفرة (سلام هي حتى مطلع الفجر) . .

وقد روى اصحاب السنن في فضلها قول الرسول ﷺ . . من قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه .

مربي الغرائز

أن السلوك متأثر بمدى تحكم الغرائز في الانسان ، وابرز ما يتغلب عليه منها غريزة الجنس ، والمقاتلة والتملك .

ولقد شاءت ارادة الله العليم الحكيم ـ تبارك وتعالى ـ ان تطبب النفس باعلاء هذه الغرائز حتى يحد من حدتها ، فكان رمضان خير طبيب ومرب ، فالجوع والعطش يكسران حدة الشهوة ، ولقد جعل الرسول ـ ﷺ ـ الصوم وقاية للشباب لمصادرة هذه الشهوة .

لقد عد النفسيون المحدثون الاعلاء ، والابدال ، والقلب طرق تربية هذه الغريزة ، فما اعظم هذا الدين !

اما « المقاتلة »، فالباعث عليها « حدة الغضب » والانفعال المؤدي إلى زلـل اللسـان . فكـان التـطبيب لهـا هـو الاعتراف باثر الصوم بالقولة الماثورة : « اللهم اني صائم »، وفيه التفكر الداعي الى تذكر الواجب نحو من هدأت نفسه ، فكان حليما !

وغريزة « حب التملك » طاغية تدفع الى الشح ، والطمع ، والاستلاب وكلها امراض نفسية كان طبيبها « اخراج الزكاة المفروضة » على المال والبدن ، ثم الصدقة الجارية المستحبة في المجازاة بعشر امثالها من صاحب الفضل العظيم .

ان التأمل في حكمة التشريع يتجلى فيه مدى العناية السامية في « اصلاح النفوس »، ليقوم بناؤ ها على اسس سليمة تحقق لها انسانيتها في هذا الوجود .

ولقد تجلت « وحدة المجتمع » في الصوم من حيث المساواة عند الامساك والافطار من دون تفاضل في التوقيت والاشتراكية في اعطاء الفقراء حقهم من الاغنياء وبهذا كله يتبين معنى « الصلاح » لدى كل نفس بارة نقية موصولة برضا المولى جل علاه .

امثل صورة . . للذكر

حياة الايمان في قلوب المؤمنين بالله ، رهن بذكر الله ذكرا متصلا ، في كل حال من احوال المؤمن . قائما ، وقاعدا عاملا وفارغا من عمل . . وبهذا الذكر تصح نسبة المؤمن الى المؤمنين ، الذين يقول الله تعالى فيهم : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والارض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » . . .

والصلوات الخمس المفروضة على المؤمنين في كل يوم وليلة ، هي امثل صورة واكملها لذكر الله ، ولهذا كانت دعوة ابراهيم عليه السلام لربه ان يجعله مقيما للصلاة هو ومن يهديهم الله من ذريته ،

والصلاة في شريعة الاسلام هي الركن الاول من اركان

العبادات التي تعبد الله تعالى بها امة محمد ، بعد الايمان بالله . ولهذا يقول الرسول الكريم عنها :

« الصلاة عماد الدين . فمن اقامها فقد اقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين » . . وهي خمس صلوات كل يوم وليلة ، كل صلاة منها مقيدة بوقت معلوم محدود من النهار او الليل ، كما يشير الى ذلك قوله تعالى : « ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » اي فرضا مؤقتا بوقت من الزمن لكل صلاة . . اشبه بموسم الزرع لكل ثمر . . اذا فات اوان غرسه لم يخرج نباتا ، او يطلع زهرا او ثمرا .

وامر من امر الصلاة يتصوره كثير من المسلمين على غير حقيقته ، وهو ان كثيرا منهم لا يؤدون الصلاة الا في رمضان ، حين يصومون مع الصائمين ، ظنا منهم ان صومهم لا يقبل الا مع الصلاة ، وان فريضة الصلاة اكد والزم في شهر الصوم . . وهذا حق وباطل معا . . اما انه حق فان الصلاة من شانها ان تنهي عن الفحشاء والمنكر ، فاذا صام الصائم وهو حريص على اداء الصلاة في اوقاتها ، كان على صيامه ـ في ظل الصلاة ـ حارس يحرسه من اللغو ، ومن قول الزور والعمل به . . واما انه باطل ، فلأن الصـلاة هي الصلاة ، في رمضان ، وفي غير رمضان ، فريضة مؤكدة اوثق التوكيد ، في كل زمان ومكان ، لا تسقط عن المسلم ابدا ، الا عن المرأة

في حال حيضها او نفاسها ، ولا يجزي عن المسلم شيء عنها من صيام ، او صدقة ، او نسك . . وقد توعد الله المصلين الذين يؤدون الصلاة في حال ، ويسهون عنها في حال توعدهم بالويل والعذاب ، فقال سبحانه : « ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » . .

وان من السهو ان يؤدي المسلم الصلاة في رمضان ثم يدعها ويغفل عنها في غير رمضان . .

رذاذ الكلمات التي تقتل

ان التأييد الكامل الذي يقدمه الدين في شريعته لتاكيد سيادة القانون على سلوك الافراد ليضبط حريتهم بحدود حريات الآخرين نحو صالح المجتمع هو احدى ظواهر التميز في الحضارة الاسلامية التي نفذت بضوء الدين ، وبخوف الله وحبه وطاعته ، الى ضمير الفرد والمجتمع على السواء ، فكان من رقابة المجتمع بعضه لبعض ، ومن حنوه بعضه على بعض ما اعطى مثالا فريدا ومجسدا لقدرة الدين الكاملة . . . الدين الحق . . على بناء المجتمع الحر النامي السليم . .

ان الدين يعمد بحق الحسبة الى استمرار تيار الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في ايجاد رأي عام فاضل ، يجتذب قوى الفرد والجماعة الى معاني الكمال ، وينفر ويقاوم

الانحراف بكل صورة . . حتى ما كان تمجيدا لبعض الرذائل في اغنية عابرة . . تظهر وتموت . . كتلك الاغنية مثلا ، التي تقول . . « حلو وكذاب » . . !

ان رذاذ الكثير من الكلمات التي قد تقال بسذاجة . . وبحسن نية . . يقتل احيانا . . فعندما يخلو الانسان الفرد بنفسه في لحظات الاستجمام . . او قبيل النوم . . تلفو فوق ضميره أو تترسب عليه كلمات ونماذج وصور وانماط من السلوك قد تميت هذا الضمير الحي بالدوام والاستمرار . . وقد تعذبه في مراحل مقاومة طويلة قبل الموت . . لهذا حرص الاسلام على ضمان سلامة كل القوى التي تبني الرأي العام كل كمال النفس والجسد على صورة عامة لفضائل الانسان وحيوية ايمانه . . وبذلك وحدة تنطلق قوى الافراد للعمل المثمر . . ولا تموت او تتعذب ضمائر المناضلين عن الامانة والحق والخير . .

ان جرائم الاحداث هي ثمرة لما قد يصيب تكوين الراي العام الذي يحمي الاخلاق والفضائل من ضعف وتخلخل يؤديان الى الاستهانة بسلطة الدولة والقانون . .

ان الغرب الذي يستهين بحرية من يسميهم الملونين وحقوقهم يحاول ان يشيد في مجتمعه كيانا لرأي عام ينشط الشفقة والبر ومساعدة المحتاج . ويدفع الى مواساة حتى

الحيوان الجريح .. فاذا كنا نراه مع ذلك لا يهتز لمواساة ونصرة شعب مظلوم فان علينا ان نهتز نحن لمواساة ونصرة انفسنا ، وذلك بأن نبني مجتمعنا على أساس من احياء ضميرنا الديني المسئول امام الله ، وان نكفل افاضة ذلك في كل مجالات نشاطنا وعملنا من اجل معركتنا الواحدة للتحرير والتقدم .

قالوا .. عن الجوع

ليس المراد من الجوع بالصيام تعذيب النفس بل تعويدها الكف عن الشهوات وخفة الجوارح للطاعات . ولذلك كان الجوع من صفات الصوفية . والركن الاساسي للمجاهدة في الطاعة . ولقد ورد الكثير من اخبار الجائعين طلبا لينابيع الحكمة :

فقد قيل ان سهل بن عبد الله كان لا يأكل الطعام الا في كل خمسة عشرة يوما تقليلا للاكل . فاذا دخل رمضان كان لا ياكل طعاما حتى يرى هلال شوال وكان يفطر كل ليلة على الماء الصافي تحرزا من كراهة الوصال وطلبا للخفة في الطاعة .

وقد قال يحيي بن معاذ : « لو ان الجوع يباع في الاسواق لما كان ينبغي لطلاب الاخرة اذا دخلوا السوق ان يشتروا غيره » .

وقال ايضا : (الجوع للمريدين رياضة) ففيه التقوية على رياضة انفسهم (وللتأبين تجربة) بتعود انفسهم الجوع وانسهم به (وللزهاد سياسة) فيسوسوا انفسهم فلا يلتفتوا لامور الدنيا (وللعارفين مكرمة) يكرمهم الله بها ليشغلوا انفسهم بمناجاته ويتلذذوا بها عن المطاعم والمشارب .

ولقد اشتهى ابو الخير العسقلاني السمك سنين طويلة . وكان قد عود نفسه على ترك شهواتها . وبقي على ذلك مدة طويلة يجاهد نفسه لا يعطيها ما تطلب ولا ينقض عهده مع الله تعالى . ثم جاءه السمك من طريق حلال فلما أراد الأكل أخذت شوكة أصبعه فذهبت يده تأديباً له لعدم وفائه بما عزم عليه من ترك شهوته فقال يا رب : هذا جزاء من مد يده تأديباً له لعدم وفائه بما عزم عليه من ترك شهوته فقال يا رب : هذا جزاء من مد يده بشهوة إلى حلال . فكيف بمن مد يده بشهوة إلى حرام . هكذا كانوا !!

عبد الجواد مسعود

السيئة . . بالسيئة

في هذه الآية الكريمة تحريك لمشاعر أولئك الذين بغى عليهم اهل البغى ، ان يأخذوا بحقهم منهم وألا يتحرجوا من رد الاساءة بمثلها ، فذلك حق مشروع ، وقصاص عادل .

وانه اذا كان العفو سنة كريمة ، وعملا مبرورا ، فانه لا يكون على هذا الوصف الا اذا جاء عن قدرة على الباغي ، وتمكن من الانتقام منه ، فيكون العفو عندئذ عن تفضل واحسان الامر الذي يرى منه الباغي ان يدا قادرة قاهرة ، تمسك به ، وتنزله منزل الذلة والصغار ، ثم تطلقه تكرما وتفضلا . .

وقد وصف رد العدوان ، ودفع السيئة بانه سيئة ، في قوله تعالى « وجزاء سيئة سيئة مثلها » ـ في هذا اشارة الى أن من اساء الى الناس لا ينبغي للناس ان يتحرجوا من الاساءة اليه ، والحاق الضرر به ، كما أساء هو اليهم ، والحق الضرر بهم . فالسيئة هنا انما هي سيئة بالاضافة الى من بدأ بالاساءة ، فما هي الا عمله رد اليه « سيئة مثلها » اي من جنس عمله .

وفي قوله تعالى : « فمن عفا واصلح فاجره على الله » . . اشارة الى امرين :

اولهما : طلب الغلب على المسيء والتمكن منه ، وذلك باعداد القوة التي تقهره حتى يكون للعفو عنه موضع .

وثانيهما : ان العفو عن المسيء اولى من مقابلة اساءته بالاساءة ، وذلك على شريطة أن يكون للعفو موضع عنده ، بحيث يصلحه ، ويضعه امام نفسه موضع الخزى والندم . .

وهذا ما يشير اليه الجمع بين العفو والصلح في قوله تعالى : « فمن عفا واصلح » اي كان عفوه عن المسيء اصلاحا له ، ودرساً نافعا يتلقى منه العبر والعظة والا لم يكن للعفو موضع ، فان العفو في غير موضعه اغراء للمفسدين ، وتحريض لاهل السوء .

رد العدوان . . بالعدوان

هذه الآيات معطوفة على آيات قبلها ، تكشف جميعها عن صفات المؤمنين ، وترسم الصورة السوية للمجتمع المؤمن ، الذي تنتظمه هذه الصفات افرادا وجماعات .

ومن صفات المؤمنين انهم لا يصبرون على ضيم ، ولا يبيتون على جور ، ولا ينزلون على حكم اهل البغى والعدوان . . « اذا أصابهم البغى هم ينتصرون » . . انهم حرب على الظلم والظالمين ، يبذلون في سبيل ذلك اموالهم وانفسهم ، ويبيعون حياتهم بيع السماح ، انتصارا للحق ، ودفعا للظلم ، وانفة من قبول الضيم والذل . . فالمؤمن عزيز بايمانه بالله ، فمن لم يجد هذه العزة في نفسه فليس على ايمان صحيح ، فانه لن يجتمع ايمان بالله ، مع هوان نفس ، وصغار ذات ، والله سبحانه وتعالى يقول : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » . .

وفي قوله تعالى : « هم ينتصرون » وفي الآتيان بضمير الفصل « هم » ـ اشارة الى ان من وقع عليه عدوان يجب أن يكون هو أول المنكرين له ، المتصدين لدفعه ، لا ينتظر من يتولى عنه اخذ حقه ، والانتصاف له ، وقد ضيعه اذ مكن خصمه منه أولا ، ثم لم يقم بعد هذا باستخلاصه من يده ثانيا . .

وفي اسناد دفع الظلم الى من وقع عليه الظلم ـ هو اعلان لانكار هذا المنكر ممن وقع عليه ، والا كان سكوته قبوله للضيم ، ورضى بالظلم الامر الذي لا يقيم له حجة لغيره ان ينتصر له ، ويقف في المعركة معه .

وفي قوله تعالى : « ينتصرون » اشارة الى ان المظلوم المبغى عليه ، اذا هو استنكر ما وقع عليه ، كان على وعد مع النصر ، لانه يلقى عدوه بمشاعر مشحونة بالحنق والنقمة ، وهذا من شانه ان يمده بقوى نفسية ومادية تمكن له من النصر . . والله سبحانه وتعالى يقول : « ومن بغى عليه لينصرنه الله » فهذا وعد من الله تعالى يحفز همم المستضعفين ، ويشد عزائم الجبناء ليلقوا العدو الذي بغى عليهم ، وهناك يجدون ما وعدهم الله من تأييده ونصره . .

الصلاة . . وشارب الخمر

المطلوب من المؤمن ، هو أن يتجنب المحرمات ،

ويستعصم بايمانه من ارتكابها . . فلا يسرق ، ولا يقتل ، ولا يزني ، ولا يشرب الخمر . . الى غير ذلك مما نهى الله عنه من فواحش ومنكرات . .

ولكن المطلوب شيء ، والواقع شيء آخر ، فما أكثر العصاة من المؤمنين . . ففي مجتمع المؤمنين من يسرق ، ومن يقتل ، ومن يزنى ، ومن يشرب الخمر ، ويشهد الزور . . ومن ، ومن . . بل وفي مجتمع المؤمنين من يأتي هـذه المنكرات جميعها . . ثم هو مع هذا في حساب المؤمنين بالله . .

والوصف الذي يوصف به من يأتي منكراً من المؤمنين ، هو انه مؤمن عاص ، في معرض غضب الله وسخطه . . ومع ذلك فان عصيانه هذا لا يسقط عنه فرضا .

وقوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » هو قيد وارد على امر المؤمنين بالصلاة ، وهو ألا يكون المصـلي قد غلبه هواه ، وغلبت عليه شقوته فشرب الخمر ، حتى سكر ، واختلط عقله ، فلا يدري ما يقول . . فاذا كان المؤمن على تلك الصفة فلا يقرب الصلاة ، ولا يقف فيها بين يدي الله ، حتى يعود اليه عازب عقله ، وكامل ادراكه ، او بمعنى آخر حتى تعود اليه آدميته التي يستأهل بها ان يخاطب ربه ويناجيه .

نقول هذا ، لان المفسرين يكادون يجمعون على أن هذا المقطع من الاية منسوخ بآية الخمر في قوله تعالى : « انما

الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ». . . وينبني على هذا ان شارب الخمر لا تصح منه صلاة حتى ولو صحا من سكره . . كما يذهب الى ذلك كثير من الفقهاء . . ولو صح هذا لانسحب على كل من ارتكب منكرا ، فلا تصح صلاة لسارق ، اوزان ، او شاهد زور او نحو ذلك ، فلم يختص شارب الخمر من بين مرتكبي المنكرات بقطعة عن الصلاة اذا صحا من سكره ؟

والامر على خلاف هذا ، فان عصاة المؤمنين ـ وما اكثرهم ـ لا يحول بينهم وبين الصلاة حائل الا ان يكون شارب الخمر في حال سكر . .

ثم كيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر اذا سد بابها دون من ياتون الفحشاء والمنكر ؟ انها هي الدواء الذي تداوى به تلك النفوس المريضة المتهالكة على الفحشاء والمنكر ، وبالحرص على الصلاة والمداومة عليها يستشفى هؤلاء المرضى من عللهم وامراضهم ، فما تزال بهم الصلاة حتى تنهاهم عن الفحشاء والمنكر . .

دموع الأوابين

ان للخطيئة في الضمير الحي وخزا كوخز الابر يجرح ويدمي ، ويرعش الاعصاب كلها ، بل الجسد كله لا من خشية

الله وحده بل منها ومن حساب الضمير ، ولا يملك العجز الانساني عندئذ غير الندم الذي يطلق اللسان بالتوبة والاستغفار ، ويملك مع الندم وما يكسبه ليطهر به جرح الخطيئة .

ولم تكد النفس تستشعر طهرها وتنعم به حتى تتحرك حولها حبائل شياطين الهوى والانس والجن والفتنة لتوقعها في خطيئة بل خطايا فيقف ذلك التائب في صراع مع الشياطين ، وقد يهرع في ربه فيتعلق بسبب من أسباب الغلبة : بالصلاة او القرآن او الاستعاذة او الدعاء ليفر من شراك الخطيئة .

وقد ينهزم ضميره امام نفسه الامارة بالسوء ، وامام ما سولت له الشياطين ، فيتردى في الخطيئة فاذا سقط فزع الى الله ينشره الالم والاسى ويطويه اليأس ، وهو لا يدري اتقبل توبته ان تاب ، ويحط عنه ذنبه ام سيطارده غضب الله . . ؟

وفي آذانه يدوى صوت السماء : عبدي احببتنا فاحببناك وعصيتنا فكرهناك ، وان رجعت الينا قبلناك ، ويستعرض قول الله : « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات » وقوله : « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم » . .

فاذا أنس من وعد الله ، وما قطعه على نفسه بكى وتاب وخر راكعا واناب ، فوسعته رحمة الله التي وسعت كل شيء .

من ذا الذي يعفو عمن عاد الى الذنب ، ويصفح عمن افرط في اقتراف الخطيئة ثم يتبعها الندم والتوبة والانابة ؟

ليس غير الله وحده العفو الغفور الرحمن بعباده (غافر الذنب وقابل التوب).

ايها الاوابون الى الله ، الطارقون ابواب رحماته ورضاه ! طهروا بالدمع جراح الخطايا فرب دمع يتفتح له من أبواب الرحمة ما لا يتفتح لنداء او دعاء .

والانابة مع الصوم الخالص تغسل النفوس من ادران خطاياها وتمحو عنها ما شابها من اوضار الذنوب وشوائب الاوزار .

فليت العاصي ينيب الى ربه ، ويتخفف من ذنبه ، ويحط عن كاهله الاحمال قبل ان يزل بالاثقال ، وليعلم ان الله غفار للاوابين ولن يرد عن ابوابه المنيبين .

هتاف
من جديد

ودارت الايام ، وطويت صفحات من عمر الزمن ، واقبل رمضان وبعد ايام قلائل يودعنا ، فما اجمل ايامه فيها تصفو النفوس ، وتأخذ من عطرها وشذاها راحة للنفس ،

وتحلق ارواحنا في عالم علوي كريم . وتشدنا الذكرى الى انتصارات المسلمين الاول في ايامه الخالدة . التي تضيء الان أمام العرب والمسلمين طريق الجهاد والصبر حتى ينتصر الحق على الباطل ، كما انتصر في (بدر) ، ويعود العرب الى اوطانهم كما عاد رسول الاسلام الى وطنه الحبيب (مكة) فكان هذا الفتح انتصارا للحق وقضاء على دولة الشرك .

وفي أيامك يا رمضان كان النصر في (عين جالوت) على من ظنوا ان القدر يأتمر بامرهم ، والنصر يمشي في ركابهم ، وأضيئت جنبات عالم مظلم في أوربا يوم أن حمل المسلمون مشاعلك في الاندلس .

فأيامك يا رمضان جزء من التاريخ حيث ارخت للحياة ومنحتها اجمل زاد على طريق مسيرتها ، وذكرت القلوب بالايات البينات ، وانرت الدنيا بضياء التنزيل ، واسعدت البشرية بسفارة جبريل ورسالة الامين التي بددت الظلام والضلال وصانت السلوك الانساني من الانزلاق مع التيارات المنحرفة التي تعوق تقدمه .

هذه ذكريات يثيرها في نفوسنا شهر رمضان حين يقبل وحين يدبر لنتخذ منها العظات والعبر . . واذا كان الماضي لا يموت . والحاضر قد استدار له فليس من شك في ان أيامنا الثائرة تسير الان الى غد مشرق عزيز يبزغ فيه فجر الوحدة

الشاملة لنرى امة عربية قوية منتصرة . . وعندئذ يعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون .

ومن جديد يملأ سمع الدنيا كلها هتاف . . الله أكبر .

قضاء رمضان

اذا كان الله تبارك وتعالى قد اجاز للبعض ان يفطروا في رمضان ثم يقضوا ما عليهم عند الاستطاعة ، فان القضاء لا يجب ان يكون على الفور ، بل انه يجب وجوبا موسعا بمعنى امكان القيام به في اي وقت يستطيعه الانسان وكذلك الكفارة .

وقد ورد عن عائشة رضي الله عنها انها كانت تقضي ما عليها من رمضان في شهر شعبان من العام التالي . والقضاء يكون اداء فلا يصوم الانسان الا الايام التي اضطر الى الافطار فيها .

ولا يلزم في القضاء ان يكون الصوم متتابعا بل يصوم الانسان بقدر استطاعته عدة الايام متفرقات او متتابعات لقوله تعالى : ومن كان مريضا او على سفر فعدة من ايام اخر ولقول الرسول : « ان شاء فرق وان شاء تابع ».

واذا لم يتسطع الانسان القضاء ثم حل رمضان في العام التالي صام رمضان ثم يقضي ما عليه بعد انتهاء صوم رمضان ولا وزر عليه او فدية سواء اكان التاخير لعذر او لغير عذر كما

يرى الاحناف والحسن البصري اما مالك والشافعي واحمد فقد وافقوهم على انه لا فدية عليه ولكن خالفوهم اذا كان التاخير بدون عذر . وقالوا عليه ان يصوم رمضان الحاضر ثم يقضي ما عليه بعده ، ويفدي عما فاته من كل يوم . .

قصة انسان

كل يوم ورقة . . وبكل ورقة احاسيس ومشاعر . . واذا اختلفت المشاعر وتغيرت تجاه المخلوق . . فهي واحدة لا تتغير تجاه الخالق الرحمن الرحيم .

نحن بنى الانسان نسعى . . والسعي حق . . ومن اضاع حقه فقد اضاع نفسه . . ومن اضاع نفسه فقد فقد دينه ودنياه . . ولم يعد له الا الله الواهب العاطي . . الرحمن الرحيم . .

ولقد حدثتنا السطور التي في بطون الكتب . . ان واحدا من بنى الانسان اضاع نفسه . . ولم ينتبه لهذا الضياع الا وهو في النزع الاخير . . فاوصى بألا يدفن جسده . . بل يحرق . . ويذرى رماده في الهواء . . ولما سئل عن سبب ذلك اجاب ودمعه هطال : « خجلان ان اقابل ربي ولم احسن استعمال عيني فعميت . . ولم احسن استعمال قلبي فغويت . . ولم

احسن استعمال يدي فاثمت .. لم احسن استعمال قدمي فتهت .. ضعت ..

فواسواتاه .. واسواتاه ..!

وكان هذا الواحد من بنى الانسان صادقا في ندمه غير مراء في خجله .. فنودى عليه من السماء : « انت ايهذا الادمى .. لقد غفر لك .. لصدقك في ندمك وخجلك .. وان الله قد قبل توبتك .. انه .. الرحمن الرحيم ..

يا رحمن يا رحيم .. من لنا سواك ..

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٣٢٠٤٠١

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

مختارات إسلامية

١ - أبو بكر الصديق
٢ - عمر بن الخطاب
٣ - عثمان بن عفان
٤ - علي بن أبي طالب
٥ - معارك إسلامية ١
٦ - معارك إسلامية ٢
٧ - ديار العرب والإسلام ١
٨ - ديار العرب والإسلام ٢
٩ - ديار العرب والإسلام ٣
١٠ - كلمات ومواقف خالدة